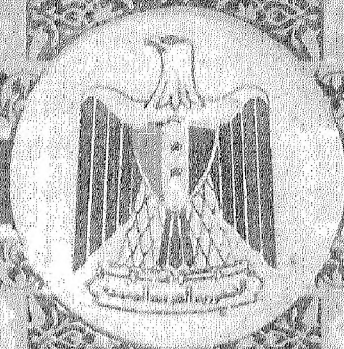


اختبرنا لك ١١٣



# اشتراكية الاسلام

الطبعة الثانية

مقدم  
الدكتور مصطفى السباعي

0178339



Bibliotheca Alexandrina



# أشهر الكتب الإسلامية

بقلم

الدكتور مصطفى السباعي





## مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .  
وبعد فقد كنت أرغب ألا يعاد طبع هذا الكتاب للمرة الثانية إلا بعد ، أن أكون قد انتهيت من كل الأبحاث التي وعدت بتحقيقها في الطبعة الأولى ، ولكن الكتاب ماكاد يخرج إلى الأيدي حتى نفذت نسخته بعد أشهر قلائل ، ثم ازداد الطلب على ناشره ازديادا كبيرا مما اضطرني إلى تقديمه للطبعة الثانية دون أن أتمكن من تحقيق كل ما وعدت به قراء الطبعة الأولى .

ومع هذا فقد امتازت هذه الطبعة بتحقيقات مهمة وزيادات كثيرة وأمثلة عديدة من الواقع التاريخي ، أرجو أن يجد القارئ الكريم فيها الفائدة والمتعة الروحية والعلمية .

واني لأسأل الله جل شأنه أن يوفقني والعلماء الباحثين المخلصين لأبراز ما في تراثنا العقائدي والحضاري من مبادئ تكفل لنا بنساء نهضتنا الحاضرة على هدى من شريعة الله ، وتراث سلفنا الصالح وتجارب الأمم في القديم والحديث ، وهو ولي الهداية والتوفيق .

دمشق

٦ من رجب الفـرد ١٣٧٩

٤ من كانون الثاني (( يناير )) ١٩٦٠

مصطفى حسنى السباعي

أستاذ الاحوال الشخصية في كليتي الشريعة والحقوق  
ورئيس قسم الفقه الاسلامي ومناهجه بجامعة دمشق

## مقدمة الطبعة الاولى

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وأخوانه من الرسل والأنبياء دعاة الخير والحق والبر ومن تبع هداهم وعمل بهديهم وارشادهم .

«وبعد» فان مشكلة الفقر والجوع والحرمان ما تزال من أهم مشكلات الحياة منذ أقدم العصور ، وكانت مهمة الانبياء والمصلحين على اختلاف أزمانهم هي الدعوة الى انصاف البائسين ورحمة الفقراء ورفع الظلم الاجتماعي عنهم «١» .

ومن المعلوم ان أوروبا عاشت خلال القرون الوسطى في جو من التخلف الفكري والاجتماعي يختلف تماما عما كان عليه العالم الاسلامي من حضارة زاهرة وتجارة مزدهرة ، ومستوى كريم من العيش تجلّى فيه الرحمة والتعاون والتكافل الاجتماعي بأروع صورته ومعاملته .

واستمرت أوروبا في غفلتها وتخلفها حتى فتحت أعينها على روائع الحضارة العربية الاسلامية وبدأت تحطم القيود والاعلال الى أن كانت نهضتها الحديثة ، من حيث بدأنا نحن في التخلف والتفكك والتخلي عن جمل لواء الحضارة ، حتى أدى ذلك الى استيلاء الغرب على معظم الأقطار الاسلامية ، وبسط نفوذه الاستعماري على جميع مقدراتها وشؤونها فزاد ضعفها ضعفا وتخلفها تخلفا وفقرها فقرا .

وشهدت أوروبا في القرن التاسع عشر والقرن الحاضر حركات فكرية وسياسية متعددة تتوخى كلها معالجة التفاوت الاجتماعي في بلادها ومسح جراح الجماهير التي كانت تكتوى بجحيم الظلم الاجتماعي ونار الحرمان والمهانة والضياع ، وكتب لبعض هذه الحركات النجاح في إقامة دولة تحكم الشعب بمنهجها الذي آمنت به ، كما كتب لبعض الحركات الاخرى أن تنجح في حمل كثير من حكومات العالم على سن القوانين لانصاف البائسين والعمال والفلاحين وغيرهم من ذوي الدخل المحدود وكبح جماح ذوي الثروات الواسعة والاراضي الشاسعة ، واشراف الدولة على رأس المال ووسائل الانتاج .

---

(١) رأينا أن نتوسع في هذا الموضوع في هذه الطبعة فافردنا له بحثا مستقيضا يراه القارئ فيما بعد ووضعنا مكانه هذه الفلانة التاريخية .

واقفنا من غفلتنا الطويلة على ضجيج الحضارة الغربية الحديثة ومخترعاتها وتقدمها ووجدنا أنفسنا نعيش نحن سكان الشرق العربي والإسلامي في مستوى من العيش أدنى مما تتطلبه الحياة الإنسانية الكريمة ، وأدنى مما هو عليه مستوى المعيشة في أمم الحضارة الغربية وسرى إلينا تيار الأفكار الإصلاحية التي قامت في الغرب منذ قرنين واشتدت في منتصف القرن التاسع عشر وأصبحت حقائق تشريعية ملزمة مطلع هذا القرن حتى منتصفه الذي نعيش فيه .

وكما هي سنة الحياة من افتتان الضعفاء بالأقوياء في كل ما يأتي عنهم من خير أو شر ، فقد ساد الفكر الثقافي في عالمنا العربي والإسلامي جو من الإعجاب بالحركات الفكرية السائدة في عالم الحضارة ، يصحبه جو من الشك فيما بين أيدينا من تراث عقائدي وحضاري من حيث صلاحه للحياة الحديثة ، وأمكانه مجاراة التطور العالمي في كل شؤون الحياة وخاصة في الميادين الاقتصادية والمعاشية ، بل تسرب إلى بعض العقول التي تدعى الثقافة والتحرر والتفكير العلمي فكرة خبيثة ما يزال يبيتها الاستعمار الغربي في أوساطنا الثقافية منذ قرن أو أكثر وهي أن سر تأخر الشرق - وخاصة العربي والإسلامي - هو أديانه التي كانت - على ما يزعمون - من أكبر عوامل تأخره وانحطاطه ، بل أخذ بعضهم يجهر بأن هذه الأديان مخدرة للشعوب خادمة للرأسمالية والاقطاع مؤبنة لدعائم الاستعمار .

ونحمد الله على أن هذا الصوت المنكر الذي يدل على جهل علمي وتاريخي قاضح ، قد أخذ يخفت شيئاً فشيئاً منذ ابتدأت الثقافة في بلادنا تتحرر من نفوذ الاستعمار وتوجيهه وسيطرته على مناهج التعليم في بلادنا المتحررة ، وبدأنا نبحث في عقائدنا وتراثنا بحث العقل النير الذي يشق بقدرة على البحث والتمحيص .

ولكن سير الأحداث في العالم جعل لذلك الرأي قوته - لافي الداخل - بل في الخارج بحيث أصبح دعايته يجدون مجالاً لتحويل الأنظار عن الحقيقة التي جهلوا إلى الجهل الذي البسوه ثوب الحقيقة في بعض البلدان وعند بعض الناس حيث تدعّمه القوة ويؤيده النفوذ والسلطان .

وقد أسهم كثيرون من أفاضل العلماء والمصلحين منذ عصر المصلح الإسلامي الكبير السيد جمال الدين الأفغاني وتلميذه وزميله الإمام محمد عبده رحمهما الله ، حتى وقتنا هذا ، في جلاء تلك الحقيقة التي جهلها دعاة المذاهب المستوردة الدخيلة على شرقنا العربي والإسلامي إلى أن استوى تحررها العلمي على قدميه واستطاع أن يرد الباطل ويكشف الزيف ويجلو جمال الحق للبصائر والأبصار .

واليوم اذ اتقدم بهذا البحث « اشتراكية الاسلام » ارجو يكون  
لى عند الله جل شأنه ثواب العاملين على خدمة الحق ودحض الباطل  
وكشف الشبهات والدعوة الى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة .  
وقبل أن أبدأ فى خوض غمار المشكلة التى اتحدث عنها فى هذا  
الكتاب . أود أن اذكر الملاحظة التالية :

## - ١ -

لقد سميت القوانين والاحكام التى جاءت فى الاسلام لتنظيم التملك  
وتحقيق التكافل الاجتماعى « باشتراكية الاسلام » ، وأنا اعلم أن بعض  
الغيورين على الاسلام يكرهون هذه التسمية ، لأن الاشتراكية فى رأيهم  
هى « موضة » هذا العصر فلا يصح أن نبادر الى القول بالاشتراكية  
الاسلامية ، تمشياً مع هذه « الموضة » ولأنه قد يأتى زمن تبطل فيه  
هذه الموضة ويسود القول بمذهب اقتصادى آخر ، فنضطر حينئذ الى  
العدول عن القول باشتراكية الاسلام ، وهناك من يحاذر القول  
بالاشتراكية الاسلامية خوفاً من أن تستغل المذاهب الاشتراكية - وخاصة  
الشيوعية منها - هذه التسمية لتستخدمها فى الدعوة الى مذهبها  
وأيضاً فالاسلام نظام مستقل قائم بذاته وقد سماه الله « اسلاما » فلا  
يجوز لنا أن نسميه باسم جديد ! ..

ومن الناس من ينكر أن تكون فى الاسلام أية نزعة اشتراكية يقول  
بعضهم هذا تشويها لسمعة الاسلام وصدا عنه ، كالشيوعيين فان مصلحتهم  
الحزبية تحتم عليهم أن يؤكدوا فى الأذهان أن الشيوعية وحدها هى  
الاشتراكية « العلمية » الصحيحة ، وما عداها فزيف وباطل ويقول بعضهم  
ظنا منهم أن الاسلام دين « رأسمالى » ! وهؤلاء هم الجاهلون بالاسلام  
مع حبهم له ! ويقول آخرون خدمة للفريبيين ومن يدور فى فلكهم  
من الأغنياء وذوى الثروات والملكيات الكبيرة وهؤلاء هم المتاجرون بالدين  
الذين يضعون أنفسهم فى خدمة من يستأجرهم .

لقد اخترت القول باشتراكية الاسلام مع العلم بكل ما يقول  
هؤلاء لانى لا اعتقد أن الاشتراكية « موضة » ستزول ، بل هى نزعة  
انسانية تتجلى فى تعاليم الانبياء ومحاولات المصلحين منذ أقدم  
العصور ، وتسعى شعوب العالم الحاضر - وخاصة الشعوب المتخلفة  
الى تحقيقها لتخلص من فواجع الظلم الاجتماعى والتفاوت الطبقي  
الفاحش الذى يكرهه الانسان ، وليست حقيقة الاشتراكية هى « التأميم »  
ولا « انتزاع رأس المال » ولا « تحديد الملكية » ولا « الضرائب  
التضامنية » بل هذه كلها وسائل يراها دعايتها الطريق الصحيح لتحقيق  
هدف الاشتراكية .

ان هدف الاشتراكية على اختلاف مذاهبها هو منع الفرد من استغلال رأس المال للأثراء على حساب الجماهير وبؤسهم وشقائهم ، واشراف الدولة على فعالية الفرد الاقتصادية ومراقبتها له ، وتحقيق التكافل الاجتماعى بين المواطنين بحيث تمحى مظاهر الفاقة والحصرمان وتفاوت الثروات تفاوتاً فاحشاً يقترب فيه الجوع والفقر والمرض والمهانة بجانب الترف والرفاهية والقسوة والانحلال الخلقي .

وهذا الهدف لا اعتقد أن واحداً ممن يعرف الاسلام ويفهم روحه على وجهها الصحيح ينكر أن الاسلام قد وضعه نصب عينيه في كل تشريعه ، ووضع له من التشريع ما يكفل تحقيقه على أحسن حال ، فإذا كان الأمر كذلك وكان هذا الهدف هو مما لا سبيل الى رجوع الانسانية عنه وستظل تكافح في سبيله حتى تصل اليه ، كان من الصد عن دين الله والظلم لشريعة الاسلام وللحق أن ننكر القول باشتراكية الاسلام أو نتجانب هذه التسمية .

وما دام الناس في مختلف الشعوب يتوقون الى تحقيق ذلك الهدف ويتهافتون على المذاهب الاشتراكية المعروفة ، اعتقاداً منهم بأنها هى الطريقة الوحيدة لتحقيقه ، أفلا يجب علينا أن ندلهم على « طريق آخر » لا يعرفونه لتحقيق ذلك الهدف العظيم ، وهو طريق أكمل منهجاً وأكثر استقامة وأبعد عن مساوئ تلك المذاهب الاشتراكية وعيوبها وماذا يفعل الذين يعتقدون بالحق حين يجدون الناس يبحثون عنه ؟ الا يسلكون كل سبيل مشروع للدعاية له ولفت الانتظار اليه ؟ فلماذا نحجم عن لفت أنظار الناس الى طريق الاسلام في تحقيق هدفهم الذى هو هدف الانسانية الكريمة في كل عصورها ؟

ان ما نعرضه في هذا البحث هو « التشريع الاسلامى » الذى جاء لتحقيق ذلك الهدف ، لا تزويق فيه ولا تحريف ، وهو تطبيق ذلك التشريع نظرياً في أحكام الفقه ، وعملياً في تاريخ الدولة الاسلامية في مختلف عصورها ، فليسمه غيرنا بما يشاء ، ليسمه باسم « العدالة الاجتماعية » أو « التكافل الاجتماعى » أو « محاربة الفقر » أو ما شابه ذلك ، أما نحن فنسميه بالاسم الذى يحبه الناس وبرونه أملهم الوحيد في الخلاص من شقائهم واضطراب أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية وبذلك نكون قد أمثلنا أمر الله تعالى « أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » (١) وما هى الحكمة ان لم تكن دعوة الناس الى الحق والخير بأسلوب يصفون اليه ويأتسون به ؟

## - ٢ -

قال لي مرة نائب في المجلس النيابي السوري الاسبق ١٩٥٠ :  
 « انى لاعجب كيف تقولون الاشتراكية الاسلامية ، ، ان الاشتراكية هي  
 التاميم ، والاسلام لا يقول بالتاميم ولا يعرف شيئا اسمه « التاميم »  
 لان المقصود بهذا اللفظ هو استيلاء الدولة على المصانع ، ولم تكن  
 الصناعة ولا المصانع موجودة في عصر الاسلام ! . »

فأجبت : انى لاعجب من جهلك بالاسلام وبالاشتراكية على السواء !  
 فلا أنت تعرف حقيقة الاشتراكية ، ولا أنت تعرف شيئا عن الاسلام ،  
 فالدخول معك في نقاش حول هذا الموضوع لا يفيد ! على أنه يلزمك بناء  
 على رأيك هذا أن تنكر القول بالاشتراكية المسيحية من باب أولى ، مع  
 أن الاحزاب الاشتراكية موجودة في أكثر بلاد الغرب ، ولا اظن أنك  
 تلقى جهلها بالمسيحية أو الاشتراكية ! فسكت ولم يجر جوابا .

وكان مرة في مجلس يضم نفرا من كرام اساتذة الجامعة وغيرهم ،  
 وجرى الحديث حول الاشتراكية وعما اذا كان الاخذ بها خيرا للبلاد ،  
 وبينت لهم رأيي وتطرق الى اشتراكية الاسلام ، فقال بعض الحاضرين  
 متهمكا : قبل أن ينتشر القول بالاشتراكية في أوروبا لم تكن نسمع أحدا  
 ينادى بالاشتراكية في بلادنا ، أما الآن فقد أصبح كل انسان يدعيها . حتى  
 الاسلام أصبح اشتراكيا ! فكان مما قلت : بعد أن تم اتصالنا بالحضارة  
 الغربية ، وبداننا نتجه الى اصلاح أوضاعنا السياسية والاجتماعية ،

كان لابد من أن نتأثر بالاتجاهات الفكرية السائدة في الغرب وليس  
 العجيب أن نستفيد من الغرب طرائق صالحة نفتق أثرها في نهضتنا  
 الحاضرة ، وأن نأخذ بالحق وتدعو اليه اذا اقتنعنا به ، ولكن العجيب  
 أن يكون هذا الحق وذلك النهج الصالح لرفع مستوى الحياة موجودا  
 عندنا في تشريعنا وتراثنا الحضاري بأكمله وأتم مما عند الغربيين ثم  
 نتنكر نحن لذلك وننكر على من يدلنا عليه !

وقال انسان يوما ما : ان اشتراكية الاسلام تقوم على « الصدقة »  
 على الفقير ، وأما نحن فنريد أن « نمحو الفقر من المجتمع » .

أما أن تكون اشتراكية الاسلام هي « الصدقة » فهذا ما نجد الرد  
 عليه في هذا الكتاب وأما أن يكون الهدف الذي ينفرد بالدعوة اليه ذلك  
 الانسان هو « محو » الفقر . فهذا جهل بالاسلام وبسنة الحياة وتقرير  
 بقول الناس !

ان « الفقر » ان كان هو المهانة والجوع والعري والمرض والتشرد  
 فهذا مما محاه الاسلام من مجتمعه قبل أربعة عشر قرنا لا بالصدقة ،  
 بل بالتشريع وسلطان الدولة كما سنطلع عليه في هذا الكتاب . وان كان  
 « الفقر » هو عدم الفنى والاثراء . أو بالاحرى عدم تساوى المواطنين  
 في الرفاهية ومستوى المعيشة . فهذا مما لاسبيل لقوة في الارض الى  
 محوه الا بأن تجعل الناس جميعا متساوين في الفقر والحرمان .

لقد رأينا باعيننا في الاتحاد السوفيتي وهو الدولة التي تمثل  
 أقصى اليسار في المذاهب الاشتراكية كيف يتفاوت فيها الناس في مستوى



المعيشة ، وفي الدخل الشخصي ، وفي الادخار ، وفي التمتع بمتطلبات الحياة ، فمن عامل دخله الشهري ٥٠٠ روبل في الشهر ، الى رئيس جامعة راتبه الشهري ١٥٠٠٠ روبل في الشهر ، ومن مواطن يسكن غرفة صغيرة في بناء متواضع ، الى وزير أو موظف كبير أو حزبي بارز يسكن قصرا فخما وله سيارة فخمة ! بل رأينا بأعيننا في قلبه موسكو « الشحاذين » يقفون على باب مسجد موسكو يمدون أيديهم بالسؤال ويعطيهم الناس ما يجودون به عليهم ! وقد التفتت بنفسى صورا لهذا المنظر لا تزال محفوظة لدى ، واذن فلا الشيوعية ولا دولتها الكبرى التى قامت منذ اثنتين وأربعين سنة ، ادعت انها محت الفقر بمعنى عدم تفاوت الناس في المعيشة ، بحيث أصبحوا جميعا يعيشون في مستوى واحد ، لانه لاسبيل الى ذلك مادام الناس يتفاوتون في المواهب والانتاج والقدرة على الاكتساب ، فمن ادمى بعد ذلك أنه يريد أن يمحو الفقر بهذا المعنى ، فقد غرر بالعقول ، واتخذ أسلوب «الدعاية» لمذهبه لا أسلوب المنطق واحترام الحقائق !

ان الهم - وهذا ما تسعى اليه الانسانية جاهدة - هو محو المهانة والحرمان في المجتمع ، وان يحصل كل انسان على مستوى من العيش يليق بكرامة الانسان ، وفي هذا تتنافس المذاهب الاشتراكية ، وفي هذا يقدم الاسلام «برنامج» للوصول الى هذه الغاية ، فمن كان عنده أفضل من هذا البرنامج ، فليتفضل بعرضه على الامة بأسلوب العلم والعلماء ، لا بأسلوب التجار والمهرجين .

### - ٣ -

لما كنت في زيارة الاتحاد السوفييتى مع وفد جامعة دمشق بدعوة من جامعة موسكو في حزيران «يونيه» عام ١٩٥٧ اتيج لى أن أبحث مع عدد من المستشرقين السوفيت ورجال الخارجية السوفيتية ، آراءنا في الاسلام والشيوعية ، فشرحت للمستشرقين السوفيت في مقرهم بموسكو خلال جلسة استغرقت مايزيد على ساعتين ، اشتراكية الاسلام ، وكيف استطاعت أن تقيم في العصور الوسطى مجتمعا اشتراكيا كان هو أول مجتمع اشتراكى في العالم ، فأبدوا دهشتهم لذلك ، وذكرت لهم من الأدلة والشواهد ما حملهم على الاعتراف أخيرا بهذه الحقيقة ، ثم حاول بعضهم أن يحدض الافتراءات التى تنشر عن النظام الاجتماعى في الاتحاد السوفييتى ، فكان مما قال : انهم يزعمون أن الشيوعية تحرم الملكية الشخصية ، وها أنا أريك دفترى الخاص بتوفيرى المدخر فى البنك ، فاذا رصيده المسجل باسمه يزيد على سبعة آلاف روبل ، فسألته : هل هذا الادخار مما يسمح به النظام الشيوعى كما وضعه كارل ماركس ؟ وبعبارة أخرى : هل هذا الادخار مما يسمح به النظام الشيوعى ؟ لم أنتم تطبقون نظاما اشتراكيا ؟ فتبسم وقال : نحن لانطبق الشيوعية كما هى ! ثم تابع حديثه فقال : ويفترون علينا بأننا نحارب الاديان مع أن عندنا جمهوريات تعداد سكانها المسلمين ٣٣ مليوناً ، ولعلك شاهدت المساجد والكنائس كيف هى مفتحة الابواب للمتعبدين فى أى وقت يشاءون ! قلت : هذا صحيح ، ولكن هل الشيوعية تعترف بالله ؟

والديانات ؟ وهل تسمحون للآباء أن يعلموا أولادهم الدين في مدارس خاصة ، وهل تسمحون لخطباء المساجد مثلا أن يشرحوا نظام الاسلام الاشتراكي للمسلمين في المساجد ؟ وهل سمحتم بافتتاح المساجد والكنائس بمجرد قيام الحكم الشيوعي ؟ ام انكم فعلتم ذلك بعد ان ربيتم - خلال اربعين عاما من الحكم الشيوعي - اجيالا من الشباب على الفلسفة الشيوعية فلم يعودوا يرتادون اماكن العبادة من تلقاء انفسهم سخريه من العبادة وشعائرها ، ولم يبق الا الشيوخ الذين ينقرضون شيئا فشيئا : والمسألة كما قال لنا شيوعي كبير في بلغاريا : أن الدين عندنا ليس ذا مشكلة لانه يصفى نفسه ! فسكت محدثي المستشرق ولم يقل شيئا .

وفي خلال الحفلات التكريمية التي كانت تقام لنا في موسكو اتيح لي ان اجتمع بعدد من كبار رجال وزارة الخارجية السوفيتية منهم السيد « سيمينوف » وكيل وزير الخارجية ، والسيد « زائتسف » رئيس قسم الشرق الاوسط في الوزارة « سفير الاتحاد السوفيتي في العراق الآن » وكنا نتحدث عن العلاقات بين البلاد العربية والاتحاد السوفيتي : واذكر انني قلت في الحفلة الختامية التي اقامتها لنا جامعة موسكو قبيل مغادرتنا الاتحاد السوفيتي بأيام .

اننا نرحب بهذا التعاون القائم بين الاتحاد السوفيتي وبين البلاد العربية في الميدان السياسي ونرجو أن يظل هذا التعاون « خالصا » مستمرا لا يتأثر « بالتقلبات السياسية » واذكر أن السيد سيمينوف قال لي : أحب أن تتأكدوا بأن مساعدتنا لكم ضد الاستعمار الغربي مستمرة لان مصلحتنا ومصلحتكم تقتضي ذلك ! وقبيل مغادرتنا موسكو يوم واحد اجتمع بالسيد « زائتسف » في دار وزارة الخارجية السوفيتية لمدة ساعتين تقريبا، وتناول البحث فيما تناوله من موضوعات موقف البلاد العربية من الشيوعية والشيوعيين ، وكان الحديث بيننا صريحا جدا فكان مما قلت له ، اننا في البلاد العربية لا يمكننا أن نلتقي مع الشيوعيين لعوامل كثيرة، منها أن سياستهم الوطنية ليست مستقرة أي ليست مستوحاة من مصلحة الشعب بل من مصلحة حزبهم قبل كل شيء ، ثم هي تتوجه بتأثير خارجي ! ومنها موقف الشيوعيين في بلادنا من الدين ، انكم اذا كنتم قد اضطررتم للثورة على الدين في بلادكم حين قيام الحكم الشيوعي ، فلان الدين كان حينئذ يمثله عندكم رجال سخرؤا أنفسهم لخدمة القيصر والاقطاع ضد مصلحة الشعب ، أما في بلادنا فان الاسلام الذي يعتنقه ٩٨ ٪ من الشعب العربي له مبادئ واضحة صريحة لا يعيش معها اقطاع ولا ظلم اجتماعي ، حتى الدين المسيحي في بلادنا لم يقف موقف التأييد للظلم الاجتماعي كما كان الامر عندكم في العهد القيصري ، وازيد على ذلك اننا لا نزال في معاركنا المتصلة مع الاستعمار، والدين يمدنا بأقوى سلاح معنوي يدفع الجماهير للاستشهاد والكفاح ضد الاستعمار ، وضربت له المثل بالجزائر ، وقلت له : ان الجزائريين ما برحوا منذ بدء الاستعمار الفرنسي حتى الآن - أي منذ أكثر من ١٣٠ عاما - في ثورات متواصلة ضد الفرنسيين بما أم يحدث مثله في تاريخ أمة على وجه الأرض ، هذا مع أن الفرنسيين أكثر منهم

عددا وأقوى سلاحا وأوفر مالا وأكثر علما ، فهل يمكن أن نرى سببا لعدم استطاعة الكتلة والفوة والمال والعلم الانتصار على القلة والضعف والفقر والجهل في الجزائر خلال مائة وثلاثين سنة إلا الدين الذي يعتنقه الجزائريون ؟

فاترق مليا ثم قال : أنا معك في هذا .

قلت له : فتصور الجريمة التي يريد أن يفعلها الشيوعيون في بلادنا حين يتم لهم ما يريدون من القضاء على الدين في نفوس أبناء الشعب ؟ . . . أن النتيجة الأولى لذلك بالنسبة إلينا هي القاء سلاحنا الفعال في وجه الاستعمار ، والقاء الجزائريين السلاح ليكونوا غنيمة باردة للفرنسيين ، ولهذا فنحن لا نرى في موقف الشيوعيين في بلادنا من الدين جريمة عقائدية فحسب ، بل هي جريمة وطنية كبرى لها أبلغ الأثر في سير نضالنا الوطني ! (١)

هذا عدا أن نظام الاسلام الاشتراكي يحقق لنا كل ما نحتاج إليه من اصلاح لأوضاعنا الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، ولا يضيق ذرعا بكل تجديد للحياة الحرة الكريمة ، مع الاحتفاظ بأهم مقومات الحياة في كل أمة وهو الدين الاخلاق . ولذلك فأؤكد لك إن بلادنا لن تختار الشيوعية عقيدة وعندها أديانها ولها شخصيتها وماضيها وطموحها ، وإذا كان الشيوعيون العرب يقولون لكم غير هذا فانهم يضللونكم !

كان هذا في صيف عام ١٩٥٧ يوم أن كان الاتحاد السوفيتي يناصر قضايانا في المجال الدولي ، وكنت ممن ينادون - منذ عام ١٩٤٨ على الأقل بالتعاون معه في الميادين السياسية والاقتصادية - كوسيلة من وسائل الانتصار في معركتنا ضد الاستعمار الغربي - على أن نحفظ بعقائدنا وحيادنا .

وقد جهرت بمثل هذا الرأي من قبل في عام ١٩٥٤ أثناء انعقاد المؤتمر الاسلامي المسيحي العالمي في بجمدون ، وسرى القارىء في آخر الكتاب نص هذا الخطاب الذي ألقته في المؤتمر بعنوان « جواب الاسلام على الشيوعية . »

## - ٤ -

زرت أوروبا أكثر من مرة ، وزرت الاتحاد السوفيتي وبعض بلدان أوروبا الشرقية ، وفي هذه الرحلات كلها أتبع لي أن أتعرف على حقيقة الحياة الاجتماعية في العالم الغربي والعالم الشيوعي ، وقد خالطت

---

( ١ ) وأريد على ذلك الآن أن أحد الشيوعيين الرسميين في بلغاريا قال لنا - عام ١٩٥٦ - ونحن نتحدث من موقف الشيوعيين من الدين حين قيام الحكم الشيوعي في روسيا عام ١٩١٧ : «لنا هنا في بلغاريا لم نتعرض للكنيسة الارثوذكسية السائدة في بلغاريا ، لأنها كانت تشارك في الحركات الوطنية طيلة الاحتلال التركي ، بل كانت الاديرة والكنائس مقرا لكل الحركات الثورية التي قامت ضد ذلك الاحتلال .»

ففيهما مختلف الطبقات ، وكنت حريصا على أن أستفيد من كل ما أرى . ولأسمع ، وأن أنظر الى الامور نظرة باحث منصف ، ومع أنى أعجبت . بكثير من مظاهر الحياة في أوروبا الغربية وفي العالم الشيعوى ، فإن الذى اقتنعت به أن الحضارة الغربية بقسميها الرأسمالى والشيعوى حين أهملت الروح في بناء أسسها الحضارية ، أفقدت الإنسان مناعة كبرى ضد القلق والاضطراب ، وأن الشيوعية زادت على ذلك أنها أفقدت الإنسان مثله العليا التى تتخطى حدود الحياة المادية من مأكلى وملبس . وممكن ، لقد اقتنعت بأن الإنسانية تنشئ حضارة من طراز آخر تجد فيها استقرارها النفسى ولا تفقد مثلها العليا (١)

### - ٥ -

ان اشتراكية الاسلام لو طبقت في مجتمعنا لاستفاد منها جميع المواطنين من مسلمين ومسيحيين ، لأنها كما سيرى القارىء وضعت . ليستفيد منها كل مواطن ، فليس الأخذ بها انتصارا لدين على دين ، ولا افتثانا من المسلمين على المسيحيين ، أنها ثروة تشريعية رائعة لوأشرفت على تطبيقها عقول مرنة نيرة لكان لنا منها أروع نظام يستهوى القلوب . والانظار فمن الخطأ الكبير تجاهلها في نهضتنا الحاضرة .

ان القومية العربية لا يمكن أن تنقطع عن الماضى ، بل انها تستمد منه عناصر قوتها ومناعتها ، وفي الماضى تراث وحضارة ، فماذا يمنع من الاستفادة منهما ؟ ليزعم في شأنهما وقيمتيهما من شاء ، فليستطيع أحد أن يزعم أنهما غشاء لا خير فيهما أو أنهما ماتا مع الزمن الذى مضى . فلماذا لا نستفيد مما فيهما من خير وحياة ؟

ان الذى يبنى بيتا للسكن - لا للأيجار - يتخير أجود مواد البناء قوة وجَمالا ، ولو كلفه ذلك مالا وعناء ، والقومية العربية بيت للسكنى . لنسكن فيه نحن وأبنائنا والأجيال اللاحقة بنا ، وأبنائنا وأحفادنا لا يحاسبون إذا كانت في مواد البناء عناصر غريبة غير صالحة ولا جميلة . لما نحن فسوف نحاسب حسابا عسيرا ، وأول من يحاسبنا في هذه الحياة هم أبنائنا وأحفادنا !

إذا كان المانع من الاستفادة من الاسلام وحضارته ، خوفا من أن يعود التعصب الطائفى الى الوجود ، فذلك خوف «باطل» ، لأن التعصب لم نصنعه نحن ، ولم يكن له وجود يوم استسلمت قيادة حضارتنا الأبدى الطاهرة ، والعقول النيرة ، والنفوس المخلصة في إيمانها ، ونحن لا نريد أن نقودنا اليوم غير أمثال تلك الأبدى والعقول والنفوس .

وإذا كان المانع هو الخوف من أن يرمينا الغرب بالتعصب ، فهو خوف «قاتل» . أنه يمنعنا من أن نحكم البناء كما ينبغي وكما يدوم طويلا ، لقد كان الغرب يحاول أن يمنع حركاتنا التحريرية من الضى في

(١) ظهر للؤلف جهد الطبعة الأولى لهذا الكتاب كتاب « من روائى حضارتنا » وفيه توضيح وتأكيد لهذه الحقيقة .

طريقها بتهمة « التعصب الوطنى » وكان يخاف من ذلك ضعف الايمان بوطنهم وبأمتهم ، ولقد مضى هؤلاء الى سبيلهم ، واستقامت حركاتنا التحررية وآتت ثمارها ، منذ نشأ فينا جيل من القادة لا يخاف من تهمة « التعصب الوطنى » بل يساهى بها ، وتهمة « التعصب الدينى » هى من تلك المحاولات التى يحاول بها الغرب أن يمنعنا من البناء القوى المتكامل ، ان الغرب متعصب «لنفسه» فى كل ما يعود عليه بالخير ، متعصب «علينا» فى كل ما يعود علينا بالخير ، فلنمض فى طريقنا غير مصغين الى ذلك المتعصب «للباطل» ليمنعنا من الأخذ «بالحق» !

وان كان المانع هو الخوف من متاعب الماضى القريب ، فنحن نتساءل : اليس من سبيل للاستفادة من هذا التراث العظيم مع تجنب تلك المتاعب ؟ ان بعد النظر والسياسة الحكيمة والثقة المتبادلة كفيفة بأن تجنبنا كل الصعاب . فهل جربنا ذلك ؟

واذا لم يكن المانع شيئاً مما ذكرناه ، لم يبق هناك الا سبب واحد وهو أن بعض الناس لا « يحبون » هذا التراث لعوامل فكرية وعقائدية ، ولا « يتجاوبون » مع تلك الحضارة لاسباب وراثية وتاريخية ، فلنترك علاج هؤلاء الى الزمن . ولكن ما عذر الآخرين إذن ؟

## - ٦ -

ان هذه القوانين والمبادئ التى تنتظمها اشتراكية الاسلام اساس صالح متين لا قامة مجتمع اشتراكى فى بلادنا تتجاوب الامة فى مشاعرها وعقائدها مع قوانينه ونظمه وفى ذلك تعجيل بتطوير مجتمعنا الى المستوى الذى تنشده نهضتنا العتيدة واختصار من الجهود التى تبذل لاقناع الشعب بتقبل نظم الحياة الاشتراكية الجديدة عن غير هذا السبيل ان الشعب أكثر استعدادا لتقبل المبادئ التى تنتظمها اشتراكية الاسلام . ولتطبيقها بحماس وايمان لا ينكر أثرهما فى نهضات الشعوب . ولوقت قيمته فى تاريخ النهضات وخاصة فى عصرنا الحاضر ، ونحن فى هذا العرض الواضح للاشتراكية الاسلامية نرجو أن نكون قد أسهمنا فى اقامة مجتمعنا على أساس اشتراكى سليم . وفى تخطيطه من الرواسب السيئة التى خلفها الجهل والفوضى وفساد الاخلاق فى العصور المتأخرة من تاريخنا .

وفى الاستفادة من اشتراكية الاسلام اثبات لشخصيتنا المستقلة، وتحرير لأمنا من التبعية الفكرية والسياسية لاية دولة من دول العالم، وتحصين قوى من «الفزو» الفكرى الذى يجب أن تبذل الجهود الصادقة لوقاية جماهيرنا من أخطاره . وفيها أيضاً أقوى رد على تلك «المحاولات» التى تبذل لربطنا بمجلة جديدة بعد أن بدأنا نجمع قوانا المبعثرة، ونسلك الطريق الصحيح للوحدة الكاملة والسيادة التامة على أرضنا ومقدراتنا

## - ٧ -

كنت أود أن أتوسع فى بحث « الواقع التاريخى » فى الدولة والمجتمع والفرد المسلم ، لولا ضيق المجال ، كما اننى لم أتحدث عن

حركة أبي ذر التي قام بها في عهد عثمان رضي الله عنهما ، لاني لم استكمل بعد دراسة أسبابها وحقيقتها وتمحيص النصوص التاريخية الواردة بشأنها بالشكل الذي أطمئن اليه وأقتنع به ، وأيضا فلم أتعرض لبعض الحركات السياسية التي قامت في العصر العباسي واتخذت شكلا فوضويا شيوعيا كحركة القرامطة وأرجو أن أضيف هذه الأبحاث كلها مع التوسع في كثير مما أجملته في هذه الطبعة الى الطبعة القادمة بإذن الله .

## - ٨ -

وأخيرا فان هذا البحث الذي أقدمه في هذا الكتاب هو نص المحاضرة التي أقيمتها على مدرج جامعة دمشق بتاريخ ٢١ من رمضان ١٣٧٨ و ٣٠ آذار ١٩٥٩ . في سلسلة المحاضرات الجامعية العامة لعام ١٩٥٩ . والله الموفق للصواب ، ومنه نستمد العون والهداية .

دمشق

ذو القعدة ١٣٧٨

( مايو ١٩٥٩ )

مصطفى حسني السباعي



## مقدمة المحاضرة

مما يتميز به عصرنا الذي نعيش فيه ، انه عصر الاشتراكية ، فكثير من الدول تدعيها ، والاحزاب المنتمية اليها منتشرة في اكثر بلاد العالم وجمهير الشعوب تحلم بها وتحمس لها ، واكثر مفكرى العالم يرونها الطريق الوحيد للخلاص مما يعانيه الجنس البشرى من اضطراب اقتصادى وشقاء اجتماعى ، ولكن ماهى الاشتراكية ؟

انها - كما تعلمون - متعددة المذاهب من متطرفة الى اقصى اليسار كالشيوعية ، ومن معتدلة ومن قريبة الى اليمين . واجمل ما قيل في تصوير هذا التعدد : انها تشبه مخلوقا له عشرون رأسا ، ولست الآن في صدد التحدث عن مذاهبها والفروق بينها ، فذلك مالا يتسع له وقت كوقت حديثنا هذا ، ويكفي ان نقول : انها جميعا تشترك في الايمان بوجود اشراف الدولة على استثمار المال في المجتمع ، وتحقيق التكافل الاجتماعى لجميع أبنائه ، حتى يتسنى لهم الاشتراك في حياة تضمن فيها كرامة الانسان ، واطمئنانه الى حاضره ومستقبله .

ونحن كأمة لها تشريع عالمى انسانى ، وحضارة اضاءت للعالم طريقه عشرة قرون او تزيد وهى الآن تتأهب للقيام بدورها الحضارى من جديد ، من حقنا أن نتساءل : ماهو موقف الاسلام من الاشتراكية الحديثة ؟ ان بعض الناس يزعمون أن الاسلام بعيد عن « التفكير » الاشتراكى ، لانه أقر « الملكية الشخصية » وسمح « بالارث والمكيات » الزراعية الكبيرة بل قد زعم بعض الناس أن الاسلام « رأسمالى » يسمح للفنى أن يتصرف بماله كما يشاء ، وقد التقى على هذا الزعم أعداء الاسلام من دعاة الشيوعية ، مع بعض أتباع الاسلام تملقا للاقطاعية والرأسمالية :

فما هو الحق في هذه المسألة ؟ أن الجواب عنه هو موضوع هذا البحث ، وسترى أن ذينك الفريقين من أعداء الاسلام وإبنائه قد ظلماه ظلما كبيرا ، وأن له « اشتراكية » واضحة المعالم ثابتة الدعائم ، تتميز عن كل المذاهب الاشتراكية الحديثة في جملة مبادئها ، واكثر قوانينها وتشريعاتها .



# موقف الاديان من الفقر



تتفق الديانات السماوية الثلاث : الاسلام والمسيحية واليهودية في  
اباحة الملكيات الشخصية والاعتراف بها ووجوب حمايتها .

وتتفق ايضا في الاعتراف بواقع الحياة العلمية في كل العصور  
من تفاوت الناس في الثروة ، ووجود الغنى والفقر في المجتمع .

وهي حين تعترف بذلك لاتقر بذلك الظلم الاجتماعي بين ابناء  
المجتمع ، ولا تترك الفقراء عرضة للحرمان والاهمال والمهانة ، بل توصي  
ببرهم ودفع غائلة الجوع والعري عنهم ، وتنهي عن اذاهم وظلمهم .

بيد أن هذه الديانات تختلف في الطرق التي سلكتها لتلك العناية  
المحمودة ، ولحمل المجتمع على العناية بتلك الفئات الضعيفة .

وسنذكر فيما يلي نصوصا من القرآن الكريم ومن الكتب الدينية  
المعترف بها عند أصحاب الديانتين المسيحية واليهودية . تؤيد ما زعمناه  
من اتفاق الاديان الالهية في موقفها من مشكلة الفقر .

## حديث القرآن عن عناية الانبياء بمشكلة الفقر

يتحدث القرآن في كل مناسبة عن وحدة الأديان الالهية في اصولها  
التي بعث الله بها الانبياء والمرسلين في دعوتهم الى عبادة الله وحده لاشريك  
له ، والى فعل الخير واتباع الحق ، ونشر المحبة والسلام بين الناس .  
والأخذ بالعدل ومجانبة الظلم .

ويوضح هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم « انما بعثت لاتمم  
مكارم الاخلاق » (١) وتعبيره صلى الله عليه وسلم بـ « أتمم » يشير الى  
الالتقاء مع الانبياء السابقين في الدعوة الى القيم الاخلاقية التي يقوم  
عليها بناء المجتمع .

ولا شك في أن أكرم القيم الأخلاقية . بر الانسان بأخيه الانسان ،  
واحترامه له ، ورحمته به ، ومساعدته الى نجده واسعاfe عنه  
الحاجة والفاقة ، والترفع عن ظلمه واهائه وهذا ماواردت عليه  
تعاليم الانبياء قاطبة كما يحدثنا القرآن بذلك .

فهو يقول عن ابراهيم واسحق ويعقوب عليهم الصلاة  
والسلام :

« وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا اليهم فعل الخيرات واقام  
الصلاة وأيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين » (٢) .

( ١ ) رواء الحاكم في مستدركه .

( ٢ ) سورة الانبياء : ٧٣ .

ويقول عن اسماعيل عليه السلام : « وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة » ( ١ ) .

ويقول الله تعالى جوابا عن دعاء موسى عليه السلام بأن يرحمه الله وقومه : « ورحمتى وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون » ( ٢ ) .

ويقول على لسان عيسى عليه السلام : « وأوصاني بالصلاة والزكاة مادمت حيا » ( ٣ ) .

ومن وصايا الله تعالى للأمم السابقة وصيته لبنى اسرائيل : « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » ( ٤ ) .

وقال تعالى يخاطب بنى اسرائيل أيضا : « وقال الله أنى معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلى وعزرتهم وأقرضتم الله قرضا حسنا لأكفرن عنكم سيئاتكم ولادخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار ، فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل » ( ٥ ) .

ويقول عن أهل الكتاب جميعا : « وما أمروا إلى ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة » ( ٦ ) .

فهذه الآيات قد جعلت « الزكاة » من وصايا الله لأنبيائه وعباده ، ومن وصايا الأنبياء لأقوامهم ، ومن المعلوم أن فرض الزكاة بالنظام الذى جاء به الاسلام ، أمر مبتكر ، لم يرد من قبل فى شريعة قط ، فيكون المراد بالزكاة فى تلك الآيات معنى البر والانفاق على الفقراء والمحتاجين .

ومما يحدثنا به القرآن عن دعوة نوح عليه السلام أن «كبراء» قومه من ذوى الجاه والنفوذ والفنى وهم المعبر عنهم « بالملأ » كان مما اتخذوه ذريعة للاعراض عن دعوته أنه لم يتبعه فى تلك الدعوة الا الفقراء والطبقات المهينة فى عرفهم :

« فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك اتبعك الا الذين هم اراذلنا بآدى الراى ، وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين » ( ٧ ) وكان مما أجابهم به نوح على هذا الازدراء ممن معه من الفقراء « ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله اعلم بما فى أنفسهم انى اذا لمن الظالمين » ( ٨ ) حقيقة كريمة يعلنها نبي كريم : ان الفقراء لا يمنع أصحابه من أن يكونوا من حملة الخير وأهل الفضل ! ان من يزعم ذلك يكون ظالما لنفسه باعتقاده غير الحق ، وظالما للفقراء بامتهانهم وتجريدهم من المكرمات ، وظالما للمجتمع باعلانه التفاوت الانسانى بين فئات المجتمع الواحد .

( ٥ ) المائدة : ١٢

( ٦ ) البينة : ٤ .

( ٧ ) هود : ٢٧ .

( ٨ ) هود : ٣١ .

( ١ ) سورة مريم : ١٥٥

( ٢ ) الامراف : ٥٦

( ٣ ) سورة مريم : ٣١

( ٤ ) سورة البقرة : ٨٣



ويحدثنا القرآن عن شعيب عليه الصلاة والسلام انه كان مما قاله لقومه الذين فشا فيهم اكل الأموال بالباطل ، والتلاعب بالموازن في البيع والشراء ، والتأمر على حقوق العمال بالانتقاص من أجورهم : « فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها » (١) .

من كل ما تقدم يبدو واضحاً ان الأنبياء جميعاً قبل محمد صلى الله عليه وسلم قد عتوا بحقوق الفقراء والضعفاء ، وألبر بهم والحفاظ على حقوقهم ، والرفع من شأنهم في المجتمع . فلننظر في الكتب الدينية المعترف بها لدى المسيحيين واليهود .

## في اليهودية

### في العهد القديم :

نحب ان نعرض الامرين قبل استعراضنا للنصوص الواردة بحق الفقراء في أسفار العهد القديم المعتمدة الآن عند اليهود .

أولاً : ان اليهود حرفوا النصوص الواردة عن أنبيائهم بشأن الفقراء ، فبعد ان كانت تعاليم الأنبياء عليهم السلام انسانية النزعة عامة لجميع الناس ، قصرها اليهود على عنصرهم وأبناء دينهم فحسب مما يتنزه عنه أنبياء الله وحملته رسالاته ، وليس أدل على ذلك من أنهم قد نفلوا في التوراة ان تعاليم الله حرمت الربا بين اليهودي وأخيه اليهودي ، ولكنها أباحت أكل الربا من الفسرباء عنهم . !

جاء في سفر التثنية « ٢٣ - ١٩ » (١) من وصايا الله لموسى التي أمره بتبليغها الى بنى اسرائيل لاتقرض أخاك رباً : رباً قضة أو رباً طعام أو رباً شيء ما مما يقرض رباً ، للأجنبى تقرض رباً ، ولكن لأخيك لا تقرض رباً لكى يباركك الرب الهك فى كل ما تمتد إليه يدك فى الأرض التى انت داخل اليها لتمتلكها !

وعلى ضوء هذا النص نستطيع ان نفهم المراد من كل ما ذكره من الوصايا الواردة بشأن الفقراء والمساكين من أنها خاصة باليهود دون غيرهم ، وهذا يفسر لنا تعاون اليهود فى جميع بلاد العالم على استنزاف دماء الشعوب التى يعيشون بينها عن طريق المصارف والمعاملات الربوية ، كما يفسر لنا قسوتهم واجرامهم فى سلب فلسطين العربية من سكانها العرب وابتنعادهم عن كل المبادئ الاخلاقية التى نادت بها الديانات والشرائع .

ثانياً : ان اليهود لم يتقيدوا بتعاليم توراتهم فيما يتعلق بالعطف على فقرائهم وأراملهم وإيتامهم ، بل كانوا فيما بينهم قساة غلاظ الأكباد أو كما جاء وصفهم فى بعض اسفار التوراة ( صلب الرقاب ) وكما وصفهم أشعياء النبى - أعمال الرسل : ٢٨ - ٢٦ - وكما جاء وصفهم فى أول سفر أشعياء ( ١ - ٣١ ) ، وتفيض هذه الأسفار بجرائمهم ومخالفاتهم لأنبيائهم وغضب الله عليهم مرة بعد مرة ، وقد أفاض القرآن الكريم فى بيان ذلك ، ونحن انما نذكر النصوص التالية عن توراتهم التى بين أيديهم فيما يتعلق بالفقراء ورعايتهم . لائنا نعتقد أنها هى التعاليم الحقيقية التى جاء بها أنبياء بنى اسرائيل عامة غير خاصة . فقصروها على أنفسهم . ومع ذلك فلم يعملوا بها .

( ١ ) الرقم الاول يشير الى رقم الاصحاح ، والرقم الثانى يشير الى رقم الآية وهكذا فى كل ما يأتى من النصوص .

نستطيع ان نقول : ان جميع النصوص الواردة في التوراة المتعلقة بالفقر والفقراء ، تصرح بالأمور التالية :

١ - ان الله مالك السموات والأرض : «مبارك» ابرام ( ابراهيم ) من الله العلى مالك السموات والأرض - سفر التكوين ١٤ - ١٩ .

٢ - ان الفقر والفنى بيد الله وحده : « الرب يميم ويحيى ، يهبط الى الهاوية ويصعد ، الرب يفقر ويفنى ، يضع ويرفع ، يقيم المسكين من التراب ، ويرفع الفقير من المذلة للجلوس مع الشرفاء » صموئيل الاول : ٢ - ٦ - ٨ .

٣ - ان الفقير لا يرفع من الأرض : « لانه لا تفقد الفقراء من الارض ، ولذلك أنا أوصيك قائلا : افتح يدك لأخيك المسكين والفقير في ارضك » سفر التثنية ١٥ - ١٠ - ١١ .

٤ - ان العمل يؤدى الى الشبع ، والكسل يؤدى الى الجوع « لا تحب النوم لئلا تفتقر ، افتح عينيك تشبع خبزا » سفر الامثال : ٢٠ - ١٣

« المشتغل بأرضه يشبع خبزا ، وتابع البطالين يشبع فقرا » امثال ٢٨ ١٩ .

« العامل يبد رخوة يفتقر ، أما يد المجتهد فتغنى » امثال ١٠ - ٤ .

وقد كان اليهود في القديم ينفذون هذا تماما ، فما من يهودى حتى الاحبار الا وهو صاحب مهنة يأكل منها .

٥ - ان الشبع والفنى يؤديان الى الكفر والظلم ، والفقر والجوع يؤديان الى السرقة والجرائم : « لا تعطى فقرا ولا غنى ، اطعمنى خبز فريضة ، لئلا أشبع وأكفر وأقول من هو الرب ، أو لئلا افتقر وأسرق واتخذ اسم الهى باطلا » سفر الامثال ٣٠ - ٩ .

« تحت ثلاثة تضطرب الأرض ، وأربعة لا يستطيع احتمالها : تحت عبد اذا ملك ، وأحمق اذا شبع خبزا . » سفر الامثال : ٣٠ - ٢١ .

٦ - ان الفقير المستقيم خير من الفنى الظالم أو الملك الجاهل : « ولد فقير وحكيم خير من ملك شيخ جاهل » سفر الجامعة : ٤ - ١٣ .

الأمثال : ١٩ - ٢٢ .

« زينة الانسان معروفة ، والفقير خير من الكدوب ! » سفر الامثال : ١٩ - ٢٢

« الفقير السالك باستقامته خير من معوج الطريق وهو غنى » سفر الامثال : ٢٨ - ٦ .

٧ - الأمر باطعام الفقراء والمساكين وعدم اهانتهم ولزوم الدفاع عنهم .

« اقضوا للذليل والليتيم ، انصفوا المسكين والبائس ، نجوا المسكين والفقير » مزامير : ٧٢ - ٤ .

« أما الفقير فلا يسمع انتهارا ، لا تسلب الفقير لكونه فقيرا ، ولا تسحق المسكين في الباب » مزامير : ١٣ - ٨ - ٢٢ .

« من يرحم الفقير يقرض الرب ، وعن معروفه يجازيه » أمثال : ١٩ - ١٧ .

« ظالم الفقير يعير خالقه ، ويمجده راحم المسكين » أمثال : ١٤ - ٣١ .

« اقض بالعدل ورحم عن الفقير والمسكين » أمثال : ٣١ - ٩ .

من دعاء سليمان : « اللهم اعط أحكامك للملك ، وبرك لابن الملك يدين شعبك بالعدل ، ومساكنك بالحق . يقضى لمساكين الشعب ، يخلص بنى البائسين ، ويسحق الظالم . ويسجد له كل الملوك ، وتعبد له الأمم لأنه ينجي الفقير المستغيث ، والمسكين اذ لا معين له ، يشفق على المسكين والبائس . ويخلص أنفس الفقراء . من الظلم والخطف يفدى أنفسهم » مزامير : ٧٢ - ١ - ١٤ .

ومن قول أيوب يذكر ما فعل : « لأنني أنقذت المسكين المستغيث واليتيم ولا معين له . بركة الهالك حلت علي . وجعلت قلب الأرملة يسر . كنت عيونا للعمى وأرجلا للعرج . أب أنا للفقراء . ودعوى لم أعرفها فحصدت عنها . هشمتم أضراس الظالم . ومن بين أسنانه خطفت الفريسة » أيوب : ٢٩ - ١٢ - ١٧ .

٨ - النهي عن الاساءة الى الفقير وظلمه : « ان رأيت ظلم الفقير ونزع الحق والعدل من البلاد فلا ترتع من الأمر . لأن فوق أفعالي عاليا يلاحظ . والاعلى فوقهما . ومنفعة الأرض لكل . الملك مخدوم من الحق » الجامعة ٥ - ٨ - ١٠ .

« اذا كان فيك فقير أحد من اخوتك في أحد أبوابك في أرضك التي يعطيك الرب الهك . فلا تقس قلبك عليه ولا تقبض يدك عن أخيك الفقير . بل افتح يدك له وأقرضه مقدار ما يحتاج اليه » التثنية : ١٥ - ٧ - ٨ .

« ان اقترضت فضة لشعبي الفقير الذي عندك فلا تكن له كالمرابي لاتضعوا عليه ربا » من وصايا الله لموسى التي أمره بتبليغها الى بنى إسرائيل ، سفر الخروج : ٢٢ - ٢٥ .

« لاتسلب الفقير لكونه فقيرا . ولا تسحق المسكين في الباب لأن الرب يقيم دعواهم ويسلب سالي أنفسهم » أمثال : ٢١ - ٢٢ - ٢٣ .

٩ - ترغيب المنفقين على الفقراء بالسعادة والثواب ، وترهيب المعرضين عنهم بالعنة والعقاب « من يعطى الفقير لايحتاج . ولن يحجب عنه عينيه لعنات كثيرة » أمثال : ٢٨ - ٢٧ .

« أليس أن تكسر للجائع خبزك ، وأن تدخل المساكين التائهين

الى بيتك ، اذا رأيت عريانا أن تكسوه . حينئذ ينفجر مثل الصبح  
نورك « أشعيا : ٥٨ - ٧ - ٨ .

» وأنفقت نفسك للجائع . وأشبعت النفس الذليلة . يشرق في  
المظلمة نورك « أشعيا : ٥٨ - ١٠ .

» الملك الحاكم بالحق للفقراء يثبت كرسيه الى الأبد « أمثال :  
٢٩ - ١٤ .

» الرجل الظالم مكرهة الصديقين . والمستقيم الطريق مكرهة  
الأشرار « أمثال : ٢٩ - ٢٧ .

١٠ - التنديد بالأغنياء الظالمين وبالذين يعتمدون على ثروتهم  
ويتفخرون بها .

» ان كنت قد جعلت الذهب عمدي ، أوقلت للابريز انت متكلى ان كنت  
قد فرحت اذ كثرت ثروتى ولأن يدي وجدت كثيرا . فهذا أيضا اثم  
يعرض للقضاء . لاني أكون قد جحدت الله من فوق « أيوب : ٣١ -  
٢٤ - ٢٥ - ٢٨ .

» ظالم الفقير كثيرا لماله . ومعطى الفنى انما هو للموز « أمثال :  
٢٢ - ١٦ .

ولماذا أخاف في أيام الشر عندما يحيط بى اثم متعقبى الذين يتكون  
على ثروتهم وبكثرة غناهم يفتخرون « - مزامير ٤٩٠ - ٥ - ٦ .

وفي التنديد بالأغنياء الأشرار : « ينقلون التخوم يغتصبون قطيعا  
ويرعونه يشتاقدون حمار اليتامى ويرتهنون ثور الأرملة يصدون الفقراء  
عن الطريق مساكين الأرض يختبئون جميعا . هاهم كالقثران في القفر  
يخرجون الى عملهم يبكرون للطعام . البادية لهم خير ولاولادهم في الحقل  
يحصدون علفهم ، ويقللون كرم الشرير ، ويبيتون عراة بلا لبس وليس  
لهم كسوة في البرد يتلون من مطر الجبال ولعدم الملجأ يعتنقون الصخر  
يخطفون اليتيم عن الثدي ومن المساكين يرتهنون عراة يذهبون بلا لبس  
وجائعون يحملون حرما ، ويعصرون الزيت داخل أسوارهم يدوسون  
المعاصر ويعطشون ، من الوجع أناس يثنون ونفس الجرحى تستغيث  
النخ « - أيوب ٢٤ - ٢ - ١٢ .

١١ - خص اليتيم والأرملة والغريب - من بنى اسرائيل - بنوع  
من العناية في المواعظ والتوصية بهم :

ففى بيان أعمال الرب « يعضد اليتيم والأرملة » - مزامير ١٤٦ :  
٩ - .

وفي أعمال الخطاة المتكبرين « يقتلون الأرملة والغريب ويميتون  
اليتيم » - مزامير : ٩٤ - ٧ -

وفي وصف القضاة والكتاب الظالمين « لتكون الأرامل غنيمتهم وينهبوا  
اليتامى » - أشعيا : ١٠ - ٢ .

« ولا تظلموا الارملة ولا اليتيم ولا الغريب ولا الفقير » - زكريا ،  
٧ - ١٠ .

« ولا تدخل حقول الايتام لان وليهم قوى هو يقيم دعواهم عليك » -  
امثال : ٢٣ - ١٠ - ١ .

١٢ - الخطايا تؤدي الى الفقر : اسمع انت يا ابني وكن حكيما وارشد  
قلبك في الطريق لاتكن بين يدي شريبي الخمر بين المتلفين اجسادهم لان  
السكير والمصرف يفتقران » - امثال : ٢٣ - ١٩ - ٢١ .

« لانه بسبب امرأة زانية يفتقر المرء الى رغيف خبز » :  
امثال ٦ - ٢٦ .

« خطاياكم منعت الخير عنكم » - ارميا : ٥ - ٢٥ -

١٣ - لا يدوم الفنى لاحد : « المولود ملكا قد يفتقر » جامعة :  
٤ - ١٤ .

« ذو العين الشريرة يعجل الى الفنى ولا يعلم ان الفقر ياتيه » -  
امثال : ٢٨ - ٢٢ .



## في المسيحية

### في العهد الجديد :

أرسل المسيح عليه السلام في بيئة مادية جشعة هي بيئة اليهود الذين تركوا شرائع الله التي أوصاهم بها أنبيأؤهم . فقد بالغوا في عهد المسيح منتهى الحرص على جمع المال والافتنان في اكتنازه وكان أغنياؤهم على أكبر جانب من افسوس وموت الضمير ، ورجال دينهم لا يألون جهدا في تحريف احكام الشريعة ، والولاة الرومان جعلوا من المجتمع طبقتين متميزتين : طبقة الأغنياء والأشراف الذين استأثروا بالطيبات والأموال ورغد العيش ، وطبقة الفقراء الذين حرّموا من الكرامة وأبسط حقوق الانسانية ، وأصبحوا يثنون من وطأة المراهبين المستغلين . وكان جمهورهم معرضين عن الحق ، يرتكبون كل المنكرات الخليقة والجنسية كما جاء ذلك على لسان المسيح في متى ١٢ - ١٥ ، وفي رسالة بولس الى أهل رومية ١ - ٢٦ .

لذلك كان طبيعيا أن تتجه رسالة المسيح قبل كل شيء الى تطهير المجتمع اليهودي من تلك الرذائل ، ومحاربة المادية البشعة ، وما أدت اليه من تفاوت طبقي مهين . وعلى ضوء هذا نفهم ما أثر عن المسيح من مواظب ووصايا تتعلق بالمال ، ومن نمط حياته وحياة تلاميذه « الحسواريين » .

### اما الوصايا والمواظب فتتلخص فيما يلي :

١ - ليست حياة الانسان بالطعام والشراب فحسب ، بل بالايمان والتحلّى بالفضائل ! « ليس بالخبز وحده يحيا الانسان » - انجيل متى : الاصحاح الرابع ، الآية الرابعة .

٢ - للجائع أن يأكل ما تحرّمه الشريعة « فجاء تلاميذه وابتدأوا يقطفون سنابل ويأكلون فالفريسيون لما نظروا قالوا له : هوذا تلاميذك يفعلون مالا يحلّ فعله يوم السبت ، فقال لهم إنما قرأتم ما فعله داود حين جاع هو والذين معه كيف دخل بيت الله وأكل خبز التقدمة الذي لم يحلّ أكله له ولا للذين معه بل للكهنة فقط » - متى ١٢ - ٤١ .

٣ - الدعوة للرحمة بالبرّساء والضعفاء والمساكين : « طوبى للرحماء لأنهم يرحمون » - متى : ٥ - ٦ .

٤ - من أطعم أو أعان فقيرا فالله يجزيه : « تعالوا يا مباركي أبي ، رثوا الملكوت المقدم لكم منذ تأسيس العالم ، لأنى جعت فاطعمتموني ، وعطشت فسقيتموني ، كنت غريبا فلاويتموني ، عربانا فكسوتوني ، مريضا فزرتوني .. محبوسا فاتيتكم الى ، فتجيبه الابراة حينئذ قائلين : يا رب متى رأيناك جائعا فاطعمناك ؟ او عطشانا فسقيناك ، ومتى رأيناك غريبا

فآويناك أو عريانا فكسوناك ، ومتى رأيناك مريضاً أو محبوساً فآتيننا  
إليك ؟ فيجيب الملك ويقول لهم : الحق أقول لكم بما أنكم فعلتموه  
بأحد اخوتي هؤلاء الأصاغر فبى فعلتم « متى : ٢٥ - ٢٤ - ٤٠ .

٥ - عدم الاهتمام بالاكل والشرب واللباس والاتكال على الله : « لا  
تهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون ، ولا لأجسادكم بما تلبسون ،  
أليست الحياة لأفضل من الطعام ، والجسد أفضل من اللباس ، انظروا  
الى السماء انها لاتزرع ولا تحصد ولا تجمع الى مخازن وأبوكم السماوى  
يقوتها ولماذا تهتمون باللباس ، فلا تهتموا للغد لأن الغد يهتم بما لنفسه »  
متى : ٦ - ٢٤ - ٣٤ .

٦ - الاقتصاد على عيش الكفاف « فصلوا أنتم هكذا : إباننا الذى فى  
السموات ، ليتقدس أسمك ، ليأت ملكوتك ، لتكون مشيئتك كما فى  
السموات كذلك على الأرض . . خبزنا كفافنا اعطنا اليوم ، واغفر  
لنا ذنوبنا كما تغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا » متى : ٦ - ٩ - ١٢ .

٧ - الترغيب فى الصدقات : « يبعو أموالكم واعطوا صدقة » -  
لوقا : ١٢ - ٣٣ -

قال يسوع : « ان أردت أن تكون كاملاً فاذهب وبع أملاكك وأعط  
الفقراء ، فيكون لك كنز فى السماء وتعال أتبعنى ، فلما سمع الشاب  
الكلمة مضى حزينا لأنه كان ذا أموال كثيرة » متى : ١٩ - ٢١ - ٢٢ -

٨ - تفضيل صدقة الفقير على صدقة الفنى « وتطلع فرأى  
الأغنياء يلقيون قرايينهم فى الخزانة ، ورأى أيضاً أرملة مسكينة ألقت  
هنالك فلسين ، فقال بالحق أقول لكم : ان هذه الأرملة الفقيرة ألقت  
أكثر من الجميع لأن هؤلاء من فضلتهم القوا . فى قوانين الله ، وأما هذه  
فمن أصواها ألقت كل المعيشة التى لها » لوقا : ٢١ - ٢ - ٤ -

٩ - التحذير من اظهار الصدقة أمام الناس رياء « احتزوا من أن  
تصنعوا صدقتكم قدام الناس لكي ينظروكم والا فليس لكم أجر عند  
أبيكم الذى فى السموات فمتى صنعت صدقة فلا تصوت قدامك بالبوق  
كما يفعل المرأون فى المجمع وفى الأزقة لكي يمجدوا من الناس » متى :  
٥ - ١ - ٢ -

١٠ - التحذير من اكتناز الأموال واقتناء الذهب والفضة « ولا  
تكتنزا لكم كنوزاً على الأرض حيث يفسد السوس والصدأ وحيث ينقب  
السارقون ويسرقون » متى : ٦ - ١٦ .

« لا تكتنزا ذهباً ولا فضة ولا نحاساً فى مناطقكم ولا مزوداً للطريق ولا  
توبين ولا أحذية ولا عصاً لأن الفاعل مستحق طعامه » - من وصايا  
المسيح الى جواريه الاثنى عشر - متى : ١٠ - ٩ -

١ - النهى عن عبادة المال « لا يقدر أحد أن يخدم سيدين لأنه إما أن  
يبغض الواحد ويحب الآخر . أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر لا تقدر أن  
تخدموا الله والمال » متى : ٦ - ٢٤ .

١٢ - التنديد بالأغنياء « الحق أقول لكم أنه يعسر أن يدخل غنى الى

ملكوت السموات . وأقول لكم أيضا ان مرور جمل من ثقب ابرة إسر من أن يدخل غنى الى ملكوت الله . فلما سمع تلاميذه بهتوا جدا قائلين . اذا من يستطيع ان يخلص ، فنظر اليهم يسوع وقال لهم : هذا عند الناس غير مستطاع ولكن عند الله كل شيء مستطاع » متى : ١٩ - ٢٣ - ٢٦ -

١٣ - التنديد بأكل اموال الارامل وبالمتظاهرين بالصلاح : « ويل لكم ايها الكتبة والفريسيون المراءون لانكم تأكلون بيوت الارامل ولعله تطيلون صلواتكم » متى ٢٣ - ١٤ .

١٤ - التنديد بالذين يتظاهرون بالعطف على الفقراء وهم سارقون ففي حادثة المرأة التي احضرت منا من طيب ناردن خالص كثير الثمن ودهنت قدمي يسوع ومسحت قدميه بشعرها فامتلا البيت من رائحة الطيب فقال واحد من تلاميذه وهو يهوذا سمعان الأسخريوطي المزمع أن يسلمه « أي المسيح من اليهود » لماذا لم يبع هذا الطيب بثلاثمائة دينار ويعطى الفقراء ، قال هذا ليس لانه كان يبالي بالفقراء بل لانه كان سارقا وكان الصندوق عنده وكان يحمل مايلقى فيه » يوحنا ١٢-٣-٨

١٥ - الجماهير الجائعة تتبع من أشبعها » قال لهم يسوع : انتم تطلبونني ليس لانكم رأيتم آيات ، بل لانكم اكلتم من الخبز فشبعتم » - يوحنا : ٦ - ٢٦ .

١٦ - الدعوة الى الرحمة والتسامح والمسالمة وعدم مقاومة العدوان والخضوع للحاكمين : « طوبى للرحماء لانهم يرحمون » - متى : ٥ - ٧

« قد سمعتم أنه قيل للقدياء لا تقتل ، ومن قتل يكون مستوجب الحكم ، وأما أنا فأقول لكم ان كل من يغضب على أخيه باطلا يكون مستوجب الحكم . . ومن قال - لأخيه - يا أحمق يكون مستوجب نار جهنم » متى : ٥ - ٢١ - ٢٢ .

« لاتقاوموا الشر ، بل من لطمك على خدك الايمن فحول له الآخر أيضا ، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضا ، ومن سخرك ميلا واحدا فاذهب معه اثنين ، ومن سأك فاعطه ، ومن أراد أن يقترض منك فلا ترده ، أحبوا أعداءكم ، باركوا لاعنيكم ، أحسنوا الى مبغضكم » - متى : ٥ - ٢٩ - ٤٤ .

« فقل لنا . . أيجوز أن تعطى جزية لقيصر أم لا ؟ فعلم يسوع خبثهم وقال : لماذا تجربونني يا مراؤون أروني معاملة الجزية ، فقدموا له دينارا ، فقال لهم : لمن هذه الصورة والكتابة ؟ قالوا له : لقيصر ، فقال لهم : أعطوا اذا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » - متى : ٢٣ - ١٧ - ٢١ .

١٧ - تفضيل الطهارة المعنوية على الطهارة الحسية

« ليس ما يدخل الفم ينجس الانسان ، بل ما يخرج من الفم هذا ينجس الانسان ، لأن من القلب تخرج أفكار شريرة ، قتل . . زنى . فسق

سرقة . شهادة زور ، تجديف . هذه التى تنجس الانسان وأما الأكل بأيد غير مغسولة فلا ينجس الانسان » - متى : ١٥ - ١١ - ١٩ - ٢٠ .

### معيشة المسيح :

لم يكن غريبا وتلك دعوة المسيح عليه السلام وهدفها ، من مقاومة مادية المجتمع اليهودى ورد اليهود الى الاخلاق الكريمة من التسامح والبذل والبر بالفقراء واطراح الشهوات ، أن يكون هو نفسه مثالا للتقشف وترك الدنيا والتخلى عن الأموال ، وعدم الافراط فى المأكل والملبس والسكن .

فقد جاء فى انجيل لوقا ٩ - ٥٨ من قول المسيح عليه السلام « للشعالب أو جرة ولطيور (١) السماء أوكار ، وأما ابن الانسان (يعنى نفسه) فليس له أين يسند رأسه » .

وكان له ولتلاميذه صندوق توضع فيه القرابين ( الصدقات ) يأكلون منه كما مر فى قصة يهوذا الاسخريوطى ، وكانوا من الجوع بحيث يأكلون السنابل فى حقول الزرع كما مر فى الفقرة (٢) .

وكان فى اغلب الأحيان يمشى حافيا عارى الرأس ، وأحيانا يركب حمارا . كما جاء فى انجيل متى : ٢١ - ٣٢ من قوله لتلاميذه من تلامذته اذهبوا الى القرية التى امامكما فلولقوا ثنانا مربوطة وجحشا معها فحلاهما واتيانى بهما وان قال لكما أحد شيئا فقولوا الرب محتاج اليهما ، فلولقوا يرسلهما » .

### معيشة أصحابه الاوائل ..

وكذلك عاش أصحابه وتلامذته الذين كانوا معه ، وانا لنجد فى أعمال الرسل من أسفار العهد الجديد صورة واضحة عن معيشة هؤلاء وتقشفهم والمبادئ الرئيسية التى ملأت نفوسهم حين اندفعوا لنشر المسيحية فى فلسطين وغيرها من الاقطار ، ونوجز الحديث عن ذلك فيما يلى :

١ - كانوا يعيشون من القرابين التى يقدمها المؤمنون الجدد لهم باعتبار أن هؤلاء الرسل ( التلاميذ ) كانوا سببا فى انقاذ المؤمنين من الضلال والهلاك ، فمن حقهم على المؤمنين أن يقوموا بنفقات حياتهم الجسدية « لأن أهل ( مكذونية وأخائية ) استحسنتوا أن يصنعوا توزيعا لفقراء القديسين الذين فى اورشليم ، استحسنتوا لذلك وانهم لهم مدينون لأنه أن كان الامم قد اشتركوا فى روحياتهم يجب عليهم أن يخدموهم فى الجسديات أيضا » رسالة بولس الاول الى أهل رومية : ١٥ - ٢٦ ، ٢٧ .

٢ - أما فيما بينهم فقد كانوا لا يملكون شيئا « فقال بطرس ليس لى فضة ولا ذهب » - أعمال الرسل : ٣ - ٦ .

( ١ ) الاجرة والاوكار هما مسكننا الشعالب والطيور التى تأوى اليها

وكانوا يطلبون من كل من أراد اتباعهم في التبشير بالدين الجديد (المسيحية) أن يبيع أملاكه ليوزع ثمنها على جميعهم وكانوا يعيشون عيشاً مشتركاً والأملاك والمقتنيات كانوا يبيعونها ويقسمونها بين الجميع كما يكون لكل واحد احتياج» - أعمال الرسل: ٢ - ٤٤ - ٤٥ .

«أذ لم يكن فيهم أحد محتاجاً لأن كل الذين كانوا أصحاب حقول أو بيوت كانوا يبيعونها ويأتون بأثمان المبيعات ويضعونها عند أرباب الرسل فكان يوزع على كل واحد كما يكون له احتياج» - أعمال الرسل: ٤ - ٣٣ .

وهنا يسجل تاريخ هؤلاء التلاميذ أن أحداً من اتباعهم لم يدفع لهم كل ثمن أملاكه فعاقبه الله هو وزوجته بالموت .

«ورجل اسمه حنانيا وامراته «سفيرة» باع ملكاً وأختلس من الثمن وامراته لها خبر بذلك . وأتى بجزء ووضع عند أرجل الرسل ، فقال بطرس : يا حنانيا لماذا ملأ الشيطان قلبك لتكذب على الروح القدس وتختلس من ثمن الحقل ؟ . أنت لم تكذب على الناس بل على الله . فلما سمع حنانيا هذا الكلام وقع ومات ، وصار خوف عظيم على جميع الذين سمعوا بذلك . ثم حدث بعد مدة ثلاث ساعات أن امرأته دخلت وليس لها خبر بما جرى . فأجابها بطرس قولي : بهذا المقدار بعثما الحقل ؟ فقالت : نعم بهذا المقدار . فقال لها بطرس : ما بالكما اتفقتما على تجربة روح الرب ؟ هو ذا أرجل الذين دفنوا رجلك على الباب وسيحملونك خارجاً . فوُقت في الحال عند رجله وماتت » - أعمال الرسل: ١٥ - ١ - ١٠ .

### المبادئ العامة لدعوتهم

لقد تحمل هؤلاء الحواريون المؤمنون جميع صنوف العذاب . والجوع والعطش والاهانة حتى القتل في سبيل دعوتهم بين اليهود وغيرهم من حدود بيت المقدس إلى رومية :

« إلى هذه الساعة نجوع ونعطش ونعري ونلكم وليس لنا إقامة » رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس : ٤ - ١١ -

وكانت دعوتهم منصبة إلى المبادئ الرئيسية التي جاء بها المسيح عليه السلام :

١ - الإيمان بالمسيح واتباعه وترك ، ما كان عليه اليهود ، مما يخالف دعوة المسيح من عقائد وشعائر وأخلاق ، وهذا نجده مبثوثاً في «أعمال الرسل» ورسائل بولس (١) المتعددة إلى كثير من النواحي . مما لا نجد حاجة إلى الاستشهاد بالنصوص لذلك .

( ١ ) هو من أشهر دعاة المسيحية في القرن الأول للميلاد . وهو واضع التنظيمات الكنسية للديانة المسيحية . ولد في طرسوس ( كانت تقع شمال أنطاكية . ومن ههنا ، بحر الروم « البحر الأبيض المتوسط » عند مدخل آسيا الصغرى ) من أسرة يهودية

٢ - تقليل شأن الطعام والشراب وتمجيد حياة الروح والعبادة :  
« ليس ملكوت الله أكلا وشربا . بل هو بر وسلام وفرح في الروح القدس »  
- رسالة بولس الى اهل رومية : ١٤ - ١٧ -

« ولكن الطعام لا يقدمنا الى الله لاننا لانزيد وان لم نأكل لانقص »  
رسالة بولس الاولى الى اهل كورنثوس : ٨ - ٨ .

٣ - النهي عن تعدى الانسان على اخيه وظلمه : ان الظالمين لا يرثون ملكوت الله « المصدر السابق : ٦ - ٩ .

٤ - تفضيل العزوبة على الزواج للتفرغ لعبادة الله والابتعاد عن ملذات الجسم .

« من زوج فحسنا يفعل ، ومن لا يزوج يفعل أحسن » - المصدر السابق : ٧ - ٣٨ .

« غير المتزوج يهتم فيما للرب كيف يرضى الرب ، وأما المتزوج فيهتم فيما للعالم كيف يرضى امرأته » - المصدر السابق : ٧ - ٣٢ .

وعلى هذا المبدأ تكون المرأة العذراء « غير المتزوجة » أظهر جسدا وروحا من المرأة المتزوجة .

« ان بين الزوجة والعذراء فرقا ، غير المتزوجة تهتم فيما للرب لتكون مقدسة جسدا وروحا ، ولأما المتزوجة فتهتم فيما للعالم كي ترضى رجلها » - المصدر السابق : ٧ - ٣٤ .

٥ - النهي عن الفواحش واتباع الشهوات :

« لاتضلوا ، لازناة ولا عبدة أوثان ولا فاسقون . . ولا سارقون ولا طماعون ولا سكيرون ولا شتامون ولا خاطفون يرثون ملكوت الله » - المصدر السابق : ٦ - ٩ .

٦ - كل مطيع لله يأخذ أجرته بحسب تعبته :

« اذن ليس الفارس شيئا ولا الساقى بل الله الذى ينمى ، والفارس والساقى واحد ، ولكن كل واحد سيأخذ أجرته بحسب تعبته » المصدر السابق : ٣ - ٨ ، ٧ .

٧ - تفضيل قوة الروح على قوة الجسد .

متدبنة تتمتع بالرعية الرومانية . تعلم فيها علومه المدرسية الاولى ، ولما شب ذهب الى اورشليم ( بيت المقدس ) فالتقى الديانة اليهودية عن أشهر أجيالها في ذلك العهد . ونشأ شديد التمسك بتعاليم الديانة اليهودية وطقوسها ، ولما ظهرت دعوة المسيح كان من أشد مضطهدى حواريه وتلاميذه ، ثم اعتنق الديانة المسيحية سنة ٣١ م وهو على أبواب دمشق على أثر رؤيا غريبة ذكرت في « اعيال الرسل » وانقلب بعدها من متحمس شديد ضد النصرانية الى متحمس شديد لها ، وانتقل من فلسطين الى انطاكية ومنها الى مدن الامبراطورية الرومانية يدعو الى المسيحية ويلقى الاذى الشديد في سبيل ذلك حتى حكم عليه بالاعدام في رومية ( روما ) سنة ٦٧ م في عهد الطاغية نيرون .

« فانظروا دعوتكم أيها الاخوه اذ ليس كثيرون حكماء حسب الجسد ، ليس كثيرون اقوياء ، ليس كثيرون شرفاء ، بل اختار الله جهال العالم ليحزى الحكماء ، واختار الله ضعفاء العالم ليحزى الاقوياء واختار الله اذبياء العالم والمزدرى وغير الموجود ليبطل الموجود ، لكي لا يفتخر كل ذى جسد امامه » المصدر السابق : ١ - ٢٦ ، ٢٩

٨ - التسامح مع الظالمين والمضطهدين ، والخضوع لسلطة الحاكمين :

« باركوا على الذين يضطهدونكم » رسالة بولس الى اهل رومية : ١٣ - ١٤ .

« لتخضع كل نفس للسلطين الفائقة ، لأنه ليس سلطان الا من الله والسلطين اذنه هي مرتبة من الله ، حتى ان من يعاوم السلطان يقاوم ترتيب الله ، والمقاومون سيأخذون لانفسهم دينونه ، فان الحكماء ليسوا خوفا للأعمال الصالحة ، بل للشريرة . أفتريد ان لاتخاف السلطان أفعل الصلاح فيكون لك مدح منه . لانه خادم الله للصلاح . ولكن ان فعلت الشر فخف . لانه لا يحمل السيف عبثا اذ هو خادم الله منتقم للغضب من الذى يفعل الشر . لذلك يلزم ان يخضع له ليس بسبب الغضب فقط بل أيضا بسبب الضمير . فانكم لأجل هذا توفون الجزية أيضا اذ هم خدام الله مواظبون على ذلك بعينه فأعطوا جميع حقوقهم . الجزية لمن له الجزية الجبائية لمن له الجبائية . والخوف لمن له الخوف . والاكرام لمن له الاكرام » - المصدر السابق : ١٣ - ١ - ٧

٩ - ولعل أجمع المبادئ التى كان يبشر بها تلامذة المسيح وخواريوه هي هذه الوصايا الجميلة :

« كونوا كارهين للشر . ملتصقين بالخير . وادين بعضكم بعضا بالمحبة الأخوية مقدمين بعضكم بعضا فى الكرامة . غير متكاسلين فى الاجتهاد . حارين فى الروح . عابدين الرب . فرحين فى الرجاء . صابرين فى الضيق . مواظبين على الصلاة . مشتركين فى احتياجات القديسين . عاكفين على اضافة الغرباء . باركوا على الذين يضطهدونكم . باركوا ولا تلعنوا . فرحا مع الفرحين وبكاء مع اباكين . مهتمين بعضكم لبعض اهتماما واحدا غير مهتمين بالأمور العالية ، بل منقادين الى المتضعين . لاتكونوا حكماء عند انفسكم ، لاتجازوا احدا شر بشر . مهتمين بأمور حسنة قدم جميع الناس ، ان كان ممكنا فحسب طاقتكم سالموا جميع الناس ، لاتنتقموا لانفسكم أيها الاحباء بل أعطوا مكانا للغضب . لانه مكتوب لى النعمة انا أجازى : يقول الرب . فان جاع عدوك فاطعمه . وان عطش فاسقه . لانك ان فعلت هذا تجمع جميع نار على رأسه يفلبنك الشر بل اغلب الشر بالخير » المصدر السابق : ١٢ - ٦ - ٢١

١٠ - وأخيرا فان دعوتهم تتلخص بالكلمات الثلاث : البر . والتعفف . والدينونة - أعمال الرسسل : ٢٤ - ٢٥ .

وكان من وصاياهم الى أتباعهم : « لتكن سيرتكم خالية من محبة المال . كونوا مكتفين بما عندكم » - الرسالة الى العبرانيين (١) : ١٣ - ٥ .

ومن هذا يتضح أن معالجة المسيح عليه السلام وتلاميذه - كما وردت في الكتب المقدسة عند المسيحيين - لمشكلة الفقر والظلم الاجتماعي اتخذت شكلا أخلاقيا تربويا . مناسبا للبيئة التي عاش فيها المسيح ونادى برسالته . ولا شك في أنها كان لها اثر كبير في انحسار الوثنية عن جزء كبير من العالم وتخليصه من قسوة المادية اليهودية .

---

( ١ ) هي من أسعار العهد الجديد ، ويختلف المؤرخون الدينيون المسيحيون في كاتب هذه الرسالة وتاريخها : وفي كتابها أقوال لا يرجع بعضها على بعض ، أما تاريخها فالمرجح عندهم أنها كتبت في عهد لا يتجاوز سنة ٨٥ م « انظر التفاسير البيضاوية المسيحية في شرح الرسالة الى العبرانيين : ٣ ، ٤ ، ٥ .



## في الاسلام

كان شأن الاسلام كشأن الديانتين السابقتين في العناية بالفقراء ومحاربة ظلمهم وإهمالهم ، لأن شرائع الله لا يمكن أن تهمل هذه الفئة دون عناية ورعاية ورحمة . والخلق كلهم عيال الله ، ، وقد وسعت رحمته كل شيء « ورحمتي وسعت كل شيء » (١) ، ومن أسماء الله تعالى « الرحمن الرحيم » .

غير أن الاسلام سلك للوصول الى هذه الغاية النبيلة مسلكا يختلف في تفاصيله وفي وسائله عما سبقه من الديانات وأن اتجه معها الى وجهة واحدة .

ذلك أن الاسلام آخر الديانات التي أرسل الله بها رسوله الى العالم لهدايتهم وسعادتهم . فكان لازما أن يحتوى من المبادئ والنصوص ما يمكن معها إقامة مجتمع متكافل في مختلف العصور ومتعدد الشعوب . وما يكفل بها سد الحاجات التشريعية لكل دولة ولكل أمة لتحقيق هذا الهدف المنشود . وأهم ما امتازت به طريقة الاسلام في معالجة مشكلة الفقر والغنى ميزتان :

أولا - أنه لم ينظر الى هذه المشكلة على أنها مشكلة قائمة بذاتها . بل متصلة بغيرها من شؤون الحياة ، فلا بد لمعالجتها من معالجة صحيحة لكل شؤون الحياة .

ثانيا - أنه لم يقتصر على المواعظ والوصايا الاخلاقية ، فذلك مما لا يؤثر في سواد الشعب غالبا الا أن يكون معه قوانين واضحة تحدد الواجبات ، وتحميها دولة ترهب المسيئين وتأخذ على يد الظالمين . وتحمل الدين لا تجدى فيهم الوصايا والمواعظ على تنفيذ تلك القوانين فتلک سنة الله في استقامة الحياة وانتظام المجتمعات .

ومن هنا نجد التشريع الاسلامي متماسكا يتصل ببعضه ببعض . ويتوقف نجاح كل قانون من قوانينه على تنفيذ القوانين الاخرى ، كما يتوقف نجاح قوانينه كلها على وجود الدولة التي تتبناها وتأخذ على عاتقها تنفيذها والأسهر على تطبيقها .

ومن أمعن النظر في قوانين الاسلام وجد أن هذه القوانين كلها تتوخى تحقيق مصالح الناس وحاجاتهم الضرورية والرفاهية، وسعادتهم الاجتماعية في الحياة الدنيا . وسعادتهم الخالدة في الحياة الاخرى . والعلماء مجمعون على هذه الحقيقة . والفقهاء الاسلامي في

جميع مذاهبه قائم عليها . وإنما يختلف مذهب عن مذهب في شرح هذه الحقيقة وكثرة التفريع عليها .

ومن هنا نشأت نظرية « المصالح المرسله » (١) في الفقه الاسلامي واتفق العلماء على أن الضروريات التي جاء الشرع لتحقيقها هي خمسة:

- ١ - حفظ الدين .
- ٢ - حفظ النفس .
- ٣ - حفظ النسل .
- ٤ - حفظ المال .
- ٥ - حفظ العقل .

قال الفزالي رحمه الله :

« إن مقصود الشرع في الخلق خمسة : وهو أن يحفظ عليهم دينهم ونفسهم وعقلهم ونسلهم ومالهم . فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة . وكل ما يفوت هذه الأصول فهو مفسدة ودفعها مصلحة (٢) .

وقال الشاطبي رحمه الله :

« تكاليف الشريعة ترجع الى حفظ مقاصدها في الخلق . وهذه المقاصد لا تعدو أن تكون « ضرورية » أو « حاجية » أو « تحسينية » أما لضرورية فمعناها أنها لا بد منها في قيام مصالح الدين والدنيا . بحيث إذا فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة . بل على فساد وتهارج وفوت حياة . وفي الأخرى فوت النجاة والنعيم والرجوع بالخسران المبين ومجموع الضروريات خمسة . وهي : حفظ الدين والنفس والنسل والمال والعقل (٣) .

وعلى ضوء هذه الحقيقة التي أجمع عليها فقهاء الاسلام . وعلى ضوء النصوص التشريعية الخاصة بحقوق الفقراء والفئات التي تحتاج الى عون المجتمع والدولة . استطعنا أن نصوغ نظرية « الاشتراكية الاسلامية » وفق المخطط التالي :

- ١ - الحقوق الطبيعية لكل مواطن .
- ٢ - القوانين التي تضمن هذه الحقوق وتنظم طرقها .
- ٣ - القوانين التي تضمن التكافل الاجتماعي .
- ٤ - المؤيدات التي تدعم تلك الحدود والقوانين .

وسنبحث فيما يلي في كل عنصر من هذه العناصر الاربعة بقدر ما يعطى فكرة واضحة عنها تاركين شرح هذه النظرية شرحا وافيا الى كتابنا الكبير الذي نضعه لذلك ونرجو أن يتم أنجازه قريباً بإذن الله .

( ١ ) سيأتي المزيد نتج عنها في بحث المؤيدات .

( ٢ ) المستقصى : ١ - ٢٧٨ .

( ٣ ) الموافقات باختصار : ٢ - ١٠٨ .

# الحقوق الطبيعية



## حق الحياة

الحياة منحة الله تبارك وتعالى للإنسان ، لا يملك أحد انتزاعها بغير إرادة الله « وانا لنحن نحى ونميت ونحن الوارثون(١) » « وانه هوأمامت وأحياء(٢) » « انا نحن نحى ونميت والينا المصير(٣) » .

وقد أعطى حق تتزاع الحياة من الافراد للدولة فحسب وفق قانون الجنابات ، لمصلحة المجتمع وحماية حياة الافراد ، وفي ذلك يقول القرآن الكريم : « ولكم فى القصاص حياة(٤) » .

والعدوان على حياة فرد بدون حق عدوان على المجتمع كله . والانتقام بالقصاص من هذا الجانى احياء للمجتمع كله : « من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ، ومن أحيأها فكأنما أحيأ الناس جميعا (٥) » .

واذا وقع العدوان على حياة الافراد من قبل الحاكمين الطففاة ، فشجعوا على قتل الأبرياء « وسحلهم » واشاعة الرعب فى قلوب الجماهير كان ذلك فى نظر القرآن ظلما يئأ بأصحابه عن الخير ، ويعرضهم لعقوبة الله المنتقم الجبار : « أأن تر الى الذى حاج ابراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك اذ قال ابراهيم ربه الذى يحى ويميت ، قال انا أحيى وأميت ! قال ابراهيم فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر ، والله لا يهدى القوم الظالمين(٦) » .

وفى قصة فرعون الذى قتل الرجال والاطفال ، واستحيا النساء والبنات ، فكانت نهايته أن أغرقه الله وأعوانه بالبحر ، أن فى هذه القصة التى تكررت فى القرآن فى ٢٧ سورة ، نذيرا للطفافة الذين يستبيحون دماء الجماهير البريئة بعاقبة كماقبة فرعون الذى نازع الله فى دعوى الألوهية وقال : « ما علمت لكم من اله غيرى(٧) » .

ولم يكتف التشريع الاسلامى باعلان هذا المبدأ « مبدأ حق الحياة بل أعلن مع ذلك وجوب صيانة الحياة من كل مايقضى عليها أو ي تلفها أو يضعفها ، فأعلن وجوب العناية بالصحة العامة ودفع الامراض والأوبئة عن المجتمع .

ففى قصة الوباء ( طاعون عمواس ) الذى حصل فى عهد عمررضى الله عنه . منع عمر دخول الجيش الى الارض الموبوءة ، عملا بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اذا كان الوباء بارض ولست بها فلا

( ٢ ) النجم : ٤٤

( ٤ ) البقرة : ١٧٩

( ٦ ) البقرة : ٢٥٨

( ١ ) الحجر : ٢٣

( ٣ ) ق : ٤٣

( ٧ ) القصص : ٣٨

تدخلها ، وان كان بأرض بها فلا تخرج منها(١) » فكان ذلك أول اعلان لبدا الحجر الصحى فى العالم .

أما أمر الافراد برعاية صحتهم ونهيه عن كل ما يضعفها ، فنجد ذلك فى مثل قوله تعالى « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا(٢) » فالاكل والشرب سبب استمرار الحياة ، والاسراف فيها منشأ الامراض والعلل(٣) .

ويقول صلى الله عليه وسلم : ان الله ما نزل داء الا جعل له شفاء الا باعباد الله فتداوا(٤) » ونهى الشارح عن ارهاق الجسم ولو بالعبادة فقد قال لبعض صحابته : « ألم أخبر انك تقوم الليل وتصوم النهار ولا تأتى أهلك ؟ قال بلى يا رسول الله ، قال فلا تفعل ، ولكن صم وأفطر ، وقم ونم ، وات أهلك ، فان أجسمك عليك حقاً وان لنفسك عليك حقاً ، وان زوجك عليك حقاً(٥) » .

ومن هذا نعلم أن ما يسلكه بعض جهلة المتصوفة من تجويع أنفسهم حتى تعجز عن القيام بالواجبات . أمر لا تقره نصوص الشريعة ولا روح مبادئها العامة .

وقد فاض التشريع الاسلامى - فى الكتاب والسنة وأجتهادات الائمة - بالاحكام المتفرعة عن حق « الحياة » وما تعلق به من حفظ الصحة . وسندكر فيما بلى أمثلة لهذه الاحكام :

#### أ - ما يتعلق بحفظ الحياة :

١ - تحريم قتل النفس بغير حق : « ولا تقتلوا النفس التى حرم الله لا بالحق(٦) » .

٢ - عقوبة الاعدام للقاتل بغير حق « كتب عليكم القصاص فى القتلى(٧) » .

٣ - القتل بحق . وهو اعدام القاتل ، وقتل الخارج على الجماعة وانظمتها العامة فى بعض الحالات .

٤ - تحريم الانتحار مهما كان الباعث على ذلك « ولا تقتلوا أنفسكم(٨) » .

٥ - النهى عن المخاطرة بالنفس : « ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة(٩) » .

٦ - حق الدفاع عن النفس . فمن صال على انسان ليقتله . جاز

( ١ ) رواه البخارى ومسلم وابو داود . ( ٢ ) الاعراف : ٣١ .

( ٣ ) من خر ما الف فى موقف الاسلام من الصحة والطب : كتاب « الوجيز فى الاسلام والطب : للزميل الدكتور شوكت الشطى : فقد صدر ونحن نعد هذا البحث للطبعة الثانية .

( ٤ ) رواه البخارى ومسلم . ( ٥ ) رواه البخارى وغيره .

( ٦ ) الانعام : ١٥١ . ( ٧ ) البقرة : ١٧٨ .

( ٨ ) النساء : ٢٩ . ( ٩ ) البقرة : ١٩٥ .

للمهاجم أن يدرك من نفسه الخطر ولو يقتل الصائل ، لان المهاجم معتد . والعدوان على حياة انسان بغير حق ولا عذر . مبيح لاهدار دم المعتدى .

٧ - ومن اكره على قتل انسان ظلما . لايجوز له أن يرتكب جريمة القتل ولو كان في امتناعه قضاء على حياته . اذ لايجوز له أن يفتدى حياته بحياة غيره .

٨ - من الاهداف التي شرع الجهاد من اجلها . حماية « حق الحياة » لابناء الشعب ، فان الحرب العدوانية من جانب الاعداء تعرض حياة الامة وأرواح أبنائها للخطر .

٩ - واذا خرجت فئة على جمهور الشعب وحملت السلاح في وجهه وجب قتالها حتى تفيء الى الحق « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فان بغت احدهما على الاخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله (١) »

١٠ - واذا تجمع بعض الاشقياء فكونوا عصابات تقطع الطرق ، وتقتل الانفس ، وتسلب الاموال . وتخيف الامنين . وجبت عقوبتهم بأنواع من العقوبة . منها الاعدام بكيفية خاصة : انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فسادا ان يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الارض (٢) « وفي تفسير هذه الآية وبيان أحكامها خلاف في المذاهب الاجتهادية . ولكن المتفق عليه أن جرائم هؤلاء الاشقياء ان بلغت حد قتل الابرياء وجبت عقوبتهم بالكيفية التي نص عليها القرآن في هذه الآية .

## ب - ما يتعلق بحفظ الصحة :

١١ - تحريم المسكرات والمخدرات ، فمن مقاصد تحريمها حفظ صحة الناس .

١٢ - تحريم الزنى والفواحش الجنسية . لما في ذلك من اضرار صحية وخلقية .

١٣ - تحريم اكل ما يضر الاكل ولو كان الطعام المأكول في حد ذاته مفيدا لغير الاكل . فمن أخبره طبيب حاذق أن اكل اللحم أو الخبز مثلا يضره . حرم عليه شرعا اكل اللحم أو الخبز .

١٤ - تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير . وهذه مما تكفل الطب الحديث ببيان أضرارها الصحية .

١٥ - النهي عن ادخال اليد في الاناء قبل غسلها .

---

( ١ ) الحجرات : ٩

( ٢ ) المائدة : ٣٣

١٦ - ايجاب الاكل عند اشراق الجائع على الخطر أو اضرار الجوع بصحته .

١٧ - ايجاب الوضوء عند كل حدث يخرج من الانسان . ولا يخفى مافي الضوء من الفوائد الصحية (١) .

١٨ - ايجاب الغسل عند حدوث الجنابة . ولا يخفى مافيه من فوائد صحية للجسم .

١٩ - ايجاب الصلاة خمس مرات في اليوم . ولا يخفى مافيه من رياضة لمختلف أعضاء الجسم .

٢٠ - ايجاب الصوم شهرا في كل عام . من طلوع الفجر حتى غروب الشمس . وقد عنى الطب الحديث ببيان فوائده .

٢١ - ايجاب الحج على من استطاع الى ذلك سبيلا ، ولا يخفى مافيه من رياضة النفس على مشقات السفر . وتعريض الجسم للشمس والمبيت في العراء تحت الخيام . مما يجعل الحج وخاصة الطواف حول البيت . والسعى بين الصفا والمروة . والموقف في عرفات . والمبيت في مزدلفة . والاقامة في منى . أشبه بمعسكر تدريبي أو مخيم كشفي .

٢٢ - ايجاب تغطية الاناء المكشوف اذا كان فيه ماء أو طعام . بعض الحشرات .

٢٣ - النهى عن الشرب من فم السقاء . خوفا من ان تكون فيه

٢٤ - النهى عن الاكل أو الشرب أو قضاء الحاجة قائما .

٢٥ - استحباب شرب الماء على أنفاس متعددة لا مرة واحدة .

٢٦ - استحباب غسل الايدي قبل الطعام وبعده .

٢٧ - استحباب السواك وخاصة عند الوضوء والصلاة .

٢٨ - استحباب الغسل يوم الجمعة (٢) وأيام العيدين وفي اوقات غيرها .

٢٩ - الترغيب في الرياضة من ركوب الخيل والسباحة وتعلم الرماية والمصارعة ، وفي الاثر من قول عمر . « علموا أولادكم السباحة والرماية وركوب الخيل » وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسابق عائشة (٣) قبل نزول آية الحجاب بالنسبة لنساء النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان يصارع ركانه (٤) فيغلبه عليه الصلاة والسلام وركانة أحد المشهورين بالقوة والصراع ومع ذلك يغلبه الرسول صلى الله عليه وسلم وما كان يفعل ذلك عليه السلام أمام الصحابة على جلالة قدره

( ٢ ) ما نذكر هنا من الفوائد الصحية لكل من الوضوء والغسل والصلاة والصوم والحج لا يعنى أن هذه الامور شرعت لحفظ الصحة فقط . بل نحن نعتقد ان فوائدها الروحية والحلقية أجل وأعظم .

(٢) قال بعض العلماء بوجود ذلك عملا بظواهر بعض الاحاديث .

(٣) رواه احمد وابو داود .

(٤) رواه ابو داود والترمذي وانظر زاد

( ٥ ) المائدة : ٢٣ المعاد لابن قيم الجوزية : ٤١/١



وعظيم مهابته في نفوس أصحابه ، الا تشريعا لامته في الاقتداء به . وتبيننا لمقاصد الشريعة من حفظ الصحة ورياضة الجسم ، ون ذلك لايتنافى مع العبادة لله ، ولا مع الكمال والهيبة في نفوس الناس ، وكان ذلك تبديدا للاوهام التي كانت شائعة لدى العباد والمتزهدين من اتباع الديانات السابقة ، من أن اهمال العناية بالجسم رمز للزهد والتقوى وسبيل الى التقرب من الله عز وجل .

٣٠ - جعل الشارع من مهمة الدولة تطبيب الفقراء وتيسير العلاج للناس كما سيأتى في قوانين التكافل الاجتماعى .

٣١ - نهى الشارع عن التعرض لمزاولة الطب دون اتقانها ، وأوجب على العلماء منع من يتعرض لذلك من الجاهلين حفظا لصحة الناس ، وعاقب من يتصدى لذلك وهو غير كفء .

٣٢ - نهى الشارع عن قربان الزوج زوجته في المحيض حتى تظهر « فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن(١) » .

٣٣ - وبالجمله فقد جاء في القرآن الكريم مايفيد الترفيه في النظافة والطهارة : « ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين(٢) » « فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين(٣) » .

وفي بعض الآثار . « النظافة من الايمان »

وفي الحديث : « نفسك مطيتك فارفق بها(٤) »

### ج - سقوط الواجبات عند الخطر :

ومن اروع ما جاء به الاسلام تأكيدا لحق « الحياة » وما يحفظها ، اسقاطه للواجبات والتكاليف عند تعرض حياة تملكف للخطر أو تعرض صحته للسوء ، واليكم بعض الامثلة :

٣٤ - سقوط فرض الوضوء بالماء ، وانتقال الفرض الى التيمم بالتراب حين يكون على الماء عدو مخيف أو حيوان مفترس .

٣٥ - سقوط فرض الوضوء أيضا عندما يكون استعمال الماء مضرا بصحة المتوضىء أو عندما يؤدي استعمال الماء الى تأخر شفاء المريض ، أو زيادة مرضه ، فيجب التيمم حينئذ .

٣٦ - وكذلك يسقط فرض الاغتسال بالماء وينتقل الى التيمم في الحالتين السابقتين .

٣٧ - ولا يجوز التوضؤ بالماء أو الاغتسال به اذا كان الانسان في حاجة الى هذا الماء لشربه أو لطبخ طعامه أو شرب دابته .

٣٨ - ويسقط فرض الاتجاه الى القبلة في الصلاة عندما يكون في

( ١ ) البقرة : ٢٢٢

( ٢ ) المصدر السابق

( ٣ ) التوبة : ١٠٨

( ٤ ) ذكره السرخسى في شرح كتاب الكسب للامام محمد بلفظ « نفس المؤمن

بطنته » وهو خطأ مطبعى وصوابه « مطيته » انظر المبسوط ٢٤٥/٣٠

اتجاهه الى القبلة خطر على حياته ، أو كان من المرض بحيث لا يستطيع التوجه الى القبلة .

٣٩ - ويسقط فرض القيام في الصلاة اذا كان مريضا لا يستطيع القيام أو يضره القيام .

٤٠ - ويسقط فرض الركوع والسجود والقعود في الصلاة اذا كان كذلك بحيث يمنعه المرض أو يؤدي الى ضرره .

٤١ - وعندما يكون الجيش الاسلامي في ميدان المعركة وجها لوجه مع العدو . وكان العدو في غير اتجاه القبلة ، فان الجيش حينئذ يصلي صلاة الخوف ، وهي أن يتجه الامام وفريق من الجيش معه الى الصلاة تجاه القبلة ، من حيث يبقى تجاه العدو وفريق كاف لصد هجومه على الجيش عند الصلاة ، فاذا صلى الامام ومن معه الركعة الاولى ، نهض الذين صلوا معه واتجهوا الى مقابلة العدو ، وبقي الامام في صلاته فيجئ الذين لم يصلوا مع الامام الى الركعة الثانية - وهي لهم أولى - فاذا أتموا الركعة مع الامام ، سلم الامام ثم ذهب هؤلاء أيضا الى جهة العدو ليأتي اخوانهم الاولون فيتموا منفردين صلاتهم ، فاذا أتموها عادوا الى جهة العدو ليتم اخوانهم صلاتهم أيضا مع العلم بأن حركاتهم ومشيمهم وانصرافهم عن القبلة لا يفسد صلاتهم وهي في الاحوال العادية من مفسدات الصلاة - بل يعتبرون في هذه التحركات خلال الصلاة كأنهم لا يزالون في الصلاة ، والاصل في ذلك قوله تعالى في صدد صلاة الجيش في ميدان المعركة .

« وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وامتعثكم فيميلون عليكم ميلا واحدة ولا جناح عليكم أن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم (١) ويستفاد من هذه الآية أيضا وجوب حمل السلاح عند الصلاة في تلك الحالة ، ويسقط هذا الواجب على من كان مريضا أو كانت حالة الجو تجعل حمل الاسلحة فيه أذى بالمصلين .

٤٢ - ويجب قطع الصلاة - مع شدة حرمة ذلك في الاحوال العادية - على من دهمه وهو في الصلاة ليذرا ذلك الخطر عن نفسه .

٤٣ - ومن رأى وهو في الصلاة حيوانا مؤذيا يمر بالقرب منه جازا له قتل الحيوان ، وعودته الى متابعة الصلاة دون أن يكون ذلك مفسدا لصلاته .

٤٤ - ومن سمع وهو في الصلاة استغاثة غريق أو مشرف على خطر الموت بسبب ما وجب عليه أن يقطع الصلاة ويسارع الى اغاثته و انقاذ حياته .

٤٥ - ومن رأى - وهو في صلاة - أعمى كاد يتردى في حفرة أمامه وجب عليه أن يقطع صلاته وينقل الأعمى من السقوط .

- ٤٦ - وهكذا الحكم في كل خطر يحق بالمصلى أو بغيره كان عليه أن يسارع لدفع الخطر .
- ٤٧ - ويسقط وجوب الصوم على المريض الذى يؤذيه الصوم إذا خبره بذلك طبيب عدل حاذق وعليه أن يقضى ذلك بعد زوال مرضه .
- ٤٨ - ويسقط وجوب الصوم عن الحائض والنفساء وعليهما قضاء ذلك بعد طهرهما .
- ٤٩ - ويسقط وجوب الصوم عن الحامل والمرضع إذا كان الصوم يضرهما أو يضر ولديهما ، وعليهما قضاء ذلك فيما بعد .
- ٥٠ - ويسقط الصوم عن الشيخ الكبير الذى يعجز عنه ، وعليه الكفارة كما هو مبين في كتب الفقه .
- ٥١ - ويسقط فرض الحج عن المريض الذى لا يستطيع القيام بشعائره
- ٥٢ - ويسقط أيضا عندما يكون الطريق محفوفا بالاشقياء والصوفى أو في حالة الحرب .
- ٥٣ - ويسقط الاحرام في الحج أو العمرة ممن يضره تعريض رأسه أو شيء من جسمه للشمس أو عندما يحتاج طبيا الى لباس خاص غير الاحرام ، وتعرف أحكام ذلك من الفقه أيضا .

#### د - جواز فعل المحرمات عند الضرورة :

- وكما أسقطت الشريعة الواجبات للمحافظة على الحياة أو الصحة ، أباحت الشريعة أيضا تناول المحرمات لضرورة المحافظة على الحياة أو الصحة أيضا . واليك بعض الامثلة :
- ٥٤ - حرمت الشريعة أكل الميتة والدم ولحم الخنزير ، ولكنها أباحت الشريعة أيضا تناول المحرمات لضرورة المحافظة على الحياة والأصل في ذلك قوله تعالى : « إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله ( أى ماذبح للوثان ) فمن اضطر غير باع ولا عاد فلا اثم عليه ان الله غفور رحيم (١) » . ومن هنا جاءت القاعدة الأصولية : « الضرورات تبيح المحظورات » القاعدة الثانية : « الضرورة تقدر بقدرها » .
- ٥٥ - وحرمت الشريعة تناول كل ما يضر بالصحة للأصحاء ، الا أنه اذا تعين ذلك لشفاء المرض ، أو دفع الخطر عن حياة الأصحاء جاز تناوله .
- ٥٦ - وحرمت الشريعة شرب الخمر ، ولكن من غص بالطعام حتى خشي الاختناق ، فلم يجد ما يزيل به غصته الا جرعة من الخمر جاز له ذلك ، بل وجب عليه اذا كان انقاذ حياته يتوقف على تناول تلك الجرعة (٢)
- ٥٧ - ومثل ذلك المريض الذى يتوقف شفاؤه على الخمر اما

( ٢ ) الاشياء والنظائر لابن نجيم : ٣٤

( ١ ) البقرة : ١٧٣

خالصا واما ممزوجا بالدواء : وأخبره بذلك طبيب حاذق ذو دين وورع،  
جا زله تناوله وفيما دون الضرورة خلاف يعرف من كتب الفقه .

٥٨ - ويحرم على الانسان قطع عضو من أعضائه ، الا أنه اذا تعين  
ذلك للبقاء على حياة الجسم كله فإنه يجوز بل يتحتم في أكثر الحالات

٥٩ - ويحرم على المرأة كشف شيء من جسمها لغير الحاجة ، الا  
أنه يباح للطبيب أن يرى من جسمها ما يحرم رؤيته لضرورة العلاج  
وال مداواة .

٦٠ - ويحرم على الانسان أن يأخذ مال غيره الا برضى منه ، غير أنه  
يباح له ذلك عند الجوع الشديد الذي يخشى فيه من الموت ، اذا كان  
الطعام زائدا عن حاجة صاحبه ، وامتنع عن اعطائه للجائع ، وسيأتي  
تفصيل ذلك .

٦١ - وكذلك الحكم بالنسبة الى العطشان الذي خشى التلف اذا  
وجد الماء الزائد عن حاجة غيره .

٦٢ - ومثل ذلك بالنسبة الى العريان الذي وجد الكساء الزائد  
عن حاجة صاحبه .

٦٣ - ويحرم دوس المصحف وكتب الحديث والفقه وكل ما فيه اسم  
الله تعالى أو اسم رسوله صلى الله عليه وسلم ، ومن فعل ذلك أمتهانا  
لكتاب الله أو لرسوله فقد كفر ، ولكن اذا كان الطعام أو الشراب في مكان  
عال ، ووصل به الجوع أو العطش الى حد الخطر جاز له أن يصعد على  
ما ذكرناه للوصول الى الطعام أو الماء (١) .

### هـ - حماية حياة الاطفال :

ووجه اشارة مثل هذه العناية أو أشد منها الى حياة الاطفال فقرر  
وجوب حمايتها من الموت أو الضعف ، ومن الامثلة على ذلك :

٦٤ - حرم الشارع أن تجهض المرأة ما حملته من الجنين في أحشائها،  
واعتبر ذلك قتل النفس .

٦٥ - واعتبر من اعتدى على امرأة حامل فأجهضت ، جانيا على  
نفس بريئة وأوجب الشريعة دفع « غرة » الجنين ( أى دية ) .

٦٦ - واذا ماتت الام وفي بطنها حمل ملعوم الحياة وجب شق  
بطنها وانقاذ حياة وليدها .

٦٧ - وأوجب على الام رضاعة طفلها فاذا امتنعت عن ذلك لعذر  
مشروع وجب على الاب استئجار ظئر ( مرضع ) لوليدته الطفل ابقاء  
على حياته .

٦٨ - واذا ارادت الام أن ترضع ولدا غيرها - بأجر او بغيره - فلا  
يجوز لها أن تفعل ذلك اذا كان يؤذى ولدها الرضيع .

والأرضاع أحكام في كتب الفقه يتجلى فيها حرص الشارع على حياة الطفل وصحته .  
 ٦٩ - وجعل الشارع حق حضانة الطفل لأمه رعاية لصحة الطفل وحسن القوامة عليه .  
 وللحضانة أيضا أحكام في كتب الفقه تتجلى فيها حماية الشارع للطفولة وحنوه عليهما .  
 ٧٠ - وجعل الشارع نفقة الطفل على أبيه حتى يستغنى بالكسب .  
 والنفقة أحكام سنذكرها في قانون النفقات من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى  
 ٧١ - وكل ما أوجب الشارع للطفل الشرعى من حق الحياة وحمايتها أوجب له للطفل اللقيط سواء بسواء . فعلى من وجده في الطريق أن يلتقطه وينفق عليه حتى يسلمه للدولة .  
 وللقبط أحكام تبدو منها بوضوح حماية الشارع لهذا الصنف الضعيف من الأطفال .

### و - حق الحياة للأرقاء :

٧٢ - وقد شمل الشارع في تقريره حق الحياة وحمايتها الأرقاء جميعا ، فلم يبح قتل الرقيق إلا إذا جنى فقتل غيره . ولم يبح جعله معرضا للجوع أو العطش أو المرض . وكل ما ذكرناه سابقا من أحكام الحياة والصحة يشمل الأرقاء بالاجماع .  
 ومن عرف ما كان يعامل به الرقيق في العالم القديم وخاصة في الغرب حتى نهاية القرن التاسع عشر . عرف فضل الاسلام وسمو اشتراكته الانسانية (١) .

### ز - حق الحياة للحيوان :

وكذلك لم تقتصر عناية الشارع بحق الحياة على اعتبار ذلك حقا للإنسان وحده ، بل اعتبر ذلك حقا للحيوان غير الأضرار وغير المأكول واليك بعض الأمثلة :  
 ٧٣ - لا يجوز قتل الحيوان غير المؤذى أو بلغ من الهرم حدا لا يستطيع معه صاحبه أن ينتفع به ، كالخيول العاجزة : أو المريضة .  
 ٧٤ - من امتنع عن إطعام الحيوان الذي يملكه ، وجب عليه أن يبيعه ، أو يسيبه إلى مكان يجد فيه مأكله ، أو يذبحه إذا كان مما يؤكل فإذا امتنع عن ذلك أجبره القاضى على الانفاق عليه أو ذبحه أو تسييبه ، وبذلك قال جمهور الفقهاء .  
 ٧٥ - حتى الحيوان المؤذى لا يجوز حبسه حتى يموت جوعا ، بل يقتله رأسا لأن الموت من الجوع تعذيب له وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم « عن تعذيب خلق الله » .  
 وسيأتى معنا مزيد بيان لأحكام الحيوان في قانون النفقات : وقد بدأنا بوضع كتاب باسم « حقوق الحيوان في الاسلام » ! . . ونسأل الله العون عن انجازه .

( ١ ) ذكرنا شيئا من هذه المقارنات في كتابنا « شرح قانون الأحوال الشخصية » الجزء الاول ، ولنا في ذلك كتاب ضاف لم يطبع بعد .

## حق الحرية

من تعاليم القرآن والسنة يبدو بكل جلاء أن الاسلام لا يرى قيمة للحياة الانسانية بدون الحرية . ومن هنا جاء حق «لحرية» وهو الحق الثانى من الحقوق الطبيعية الخمسة فى اشتراكية الاسلام . فما هى الحرية ؟

تطلق الحرية فى اللغة عن الخلوص من العبودية . فيقال : هو حر ، أى غير مسترق ولا مملوك وتطلق على الخلوص من القيد ، فيقال : هو حر ، أى غير أسير .

وتطلق على الخلوص من كل شيء دخيل . فيقال : فرس حر ، أى عتيق الاصل ، ليس فى نسبه هجنة ويقال : أرض حرة أى لا رمل فيها ورملة حرة أى لا طين فيها ، وطين حر أى لا رمل فيه .

وتطلق بمعنى الشرف والطيب والجودة فيقال : هو حر أى كريم شريف طيب الاصل . ويقال : هو من حرية القوم أى اشرافهم . والحر من كل شيء أحسنه وأطيبه وأعتقه .

يخلص لنا من هذا أن الانسان الحر هو غير المملوك وغير المقيد بأى قيد مادى ، وهو الخالص فى انسانيته لا تشوبها شائبه . وهو الكريم فى خلقه ، الشريف فى سلوكه .

والحرية بهذا المعنى الواسع قد قررها الاسلام اتم تقريراً ووضحه ونستطيع أن نصنفها الى الاصناف الآتية :

### ١ - الحرية «الانسانية» :

ونعنى بها أن يكون الانسان غير مملوك لاحد لا فى نفسه ولا فى بلده ولا فى قومه وأمته .

١ - فالانسان منذ ولادته يولد حراً لا يملكه أحد . وفى هذا يقول عمر قوائمه المشهورة لعمر بن العاص : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ » .

ومنه ما جاء فى أو لميثاق حقوق الانسان الذى وضعته هيئة الامم وتحفل به كل عام ! « الناس يولدون أحراراً متساوين . » الخ

٢ - والانسان لا يوصف بالعبودية لاحد من الناس . ولكنه يوصف بالعبودية لله وحده خالق الحياة وما فيها ومن فيها . والعبودية لله أمر واقعى . والاعتراف بها لا بد منه ، اذ هى خضوع لمن لا سبيل للخروج على أمره ، وذلك واجب مادام الانسان فى وجوده وفى مواهبه وخصائصه مديناً بها لله رب العالمين « قل هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والابصار والافئدة قليلاً ما تشكرون (١) » « وما بكم من نعمة فمن الله (٢) » « وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ان الانسان لظلوم كفار (٣) »

ومن هنا كان شعار المسلم دائما : لا اله الا الله . أى لا معبود بحق الا الله ، وكان مما امر به المسلم ان يردد في اليوم والليلة في صلواته : « اياك نعبد واياك نستعين (١) »

ومن هنا كان اترف وصف لرسول الله وانبياؤه وصفهم بالعبودية : « واذكر عبدنا أيوب اذ نادى ربه » ( ٢ ) .

وفى وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وأن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله » ( ٣ ) .

٣ - والانسان الحر لا يملكه قومه ولا مجتمعه ولا دولته ، لانه متساو مع قومه ومجتمعه في إنسانيته الحرة ، والدولة كيان معنوى يقوم به افراد من الشعب لخدمة الشعب لا لاستعباده حتى ان رئيس الدولة في الاسلام ليس الا خادما لمصلحة الشعب ، ومن هنا جاء قول أبى بكر رضى الله عنه أول ماولى الخلافة : « انما أنا واحد منكم لست بخيركم » وقد كان أبو حازم يدخل على معاوية فيقول له : « السلام عليك عليك أيها الاجير ! فاذا حاولوا أن يقولوا لابی حازم : قل « السلام عليك أيها الأمير » أبى عليهم ذلك ، ثم التفت الى معاوية فقال له : انما أنت أجير هذه الامة استأجرك ربك لرعايتها !

٤ - والامة حرة في وطنها الذى تعيش فيه ، لاستعباد لامة أخرى ولو كانت أقوى منها أو اعلم أو أغنى ، فاذا اعتدت أمة على أخرى فسلبتها حريتها ، كان ذلك عدوانا لا يدانيه عدوان ، وظلما يوجب على الامة المعتدى على حريتها أن تهب لدفع هذا الظلم بكل ما تملك من أرواح وأموال ، بكل قواتها القادرة على القتال ، « اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير (٤) » أى اذن للامة التى قوتلت واعتدى عليها بأن تقاتل دفاعا عن حقها « انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم (٥) » .

فاذا تقاعست الامة عن هذا الواجب ، عوقبت في الدنيا بالدلة والهوان ، وفي الآخرة بعذاب من الله أليم . « ألا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم . » (٦) .

واذا رضى بعض الناس أن يقيموا على الذل دون أن ينحازوا الى اخوانهم الاحرار في وطنهم الحر ، كان ذلك ظلما من هؤلاء المتقاعسين لانفسهم يعاقبون عليه بالعذاب وسوء المصير .

« أن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيما كنتم قالوا كنا مستضعفين في الارض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا (٧) » .

وفى قصة الثلاثة الذين تخلفوا عن الجهاد مع رسول الله دون أن يكون لهم عذر في هذا التخلف ، وما عوقبوا به من المقاطعة الادبية في المجتمع الاسلامى يومئذ ، مثل رادع لكل الذين يتخلفون عن الاشتراك في الجهاد المشروع (٨) .

(١) الفاتحة : ٥	(٢) سورة (ص) : ٢١	(٣) البقرة : ٢٣
(٤) الحج : ٣٩	(٥) التوبة : ٤١	(٦) التوبة : ٣٩
(٧) النساء : ٩٧	سورة التوبة : ١١٨	وقد نزل فيها
القرآن الكريم كما تراه فى (٨) انظر الى هذه الحادثة فى كتب السيرة		

٥ - والامة المعتدى على حريتها اذا نهضت للدفاع وعرفت كيف تقاوم العدوان ، يكافئها الله على ذلك بالحرية الكريمة والنصر المبين : « ونريد أن نمّن على الذين أستضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين (١) » .

٦ - وعلى الامة الحرة أن تهب لنجدة المستضعفين المعتدى على حريتهم، لتعيد اليهم حريتهم وتدفع الظلم الواقع بهم : « ومالكم لاتقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان (٢) » .

تلك هي مبادئ الحرية « الانسانية » في الاسلام . حقاً للفرد وللامة ، وحمايتها حق واجب على الفرد والدولة .

وقد يعترض على هذا بما يفتربه المفرضون المتعصبون على الاسلام ، من أن الاسلام شرع القتال لفرض سيطرته على الشعوب ، وفرض الرق على الاسرى تبعاً لذلك . ونحن في غنى عن الافاضة - في هذا المقام - في شرح مبادئ الاسلام في الحرب . وحسبنا أن نلمس فيما نلوانه من الآيات السابقة ، مع اضافة قوله تعالى : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين (٣) » وقوله تعالى « وقاتلوه حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله » (٤) وقوله تعالى : « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » (٥) .

حسبنا أن نتدبر هذه الآيات بعضها مع بعض لنعلم أن القتال في الاسلام مشروع (للدفاع) عن حرية الامة في وطنها وحريتها وفي عقيدتها فحسب . لا « العدوان » على حرية الامم الاخرى وعقائدها .

أما الرق فالاسلام «الباح» ولم «يفرضه» وهو ضرورة زمنية كانت تقتضيها معاملة المثل بالمثل . مع تضيق حدود هذه المعاملة الضرورية الى أقصى حد ممكن . والرق في هذه الحالة أمر طارئ مؤقت . ومن هنا جاء تعريف الفقهاء له بأنه : عجز حكيم . أي هو عجز الرقيق عن ممارسة حريته الانسانية « حكماً » لا حقيقة . كما يجرد بعض المواطنين المجرمين في نظر الدولة من حقوقهم المدنية والسياسية ! . وقد ذكرنا ما هو أوسع من هذا عن الحرب والرق في الاسلام في كتابنا « نظام السلم والحرب في الاسلام » !

## ٢ - الحرية « الدينية » :

لا ريب في أن أبرز مظهر من مظاهر حرية الانسان . حريته فيما يدين به من دين . ذلك أن الدين عقيدة تستقر في القلب . ويرضى عنها العقل أو يجب أن يطمئن اليها العقل . فكل جو لا تكمل فيه حرية العقيدة . يعتبر عدواناً على الحرية الانسانية للانسان . ومن ثم فهو

(٣) البقرة : ١٩٠

(٢) النساء : ٧٥

(١) القصص : ٥

(٥) التوبة : ٣٦

(٤) البقرة : ١٩٣



عدوان على الانسان نفسه . أشد خطرا وأبلغ اذى من العدوان على جسمه أو ماله .

واشتراكية الاسلام تقرر حق الحرية الدينية على السس تكفل قيام هذه الحرية ووجودها فعلا لا دعوى . فهي :

١ - تحرر العقل من الخرافات والاهام لينسر للعقل أن يختار العقيدة الصالحة . وسنشرح ذلك في الحق الثالث « حق العلم » .

٢ - تحرر الانسان من سلطان التقليد بغير تدبر . وتنهاه عن اتباع آباءه وقومه في دينهم دون أن يفكر في شأن هذا الدين الذي اتبعوه ، تفكير الاحرار المستقلين : « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباءهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون (١) » .

ومن هنا اختلف العلماء في ايمان المقلد لابويه في عقيدتهما هل ينجيه ذلك الايمان أم لا ؟

٣ - تطلب الى الانسان أن يستعمل عقله ويتامل في خلق السموات والارض وفي نفسه وفي كل ما يحيط به من الكون . وفي دلائل نبوة الرسول الذي يتبعه . ومن هنا نجد القرآن لا يكتفى بأن يقول للناس آمنوا بالله وآمنوا برسوله . بل يطلب منهم أن يستدلوا بعقولهم على وجود الله ووحدانيته ، وأن يستدلوا بالتفكير والتدبر في نبوة الرسول ومعجزة القرآن الناطقة بصدقه : « وقالوا لولا أنزل عليه الرسول قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين . أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم (٢) » .

٤ - وأخيرا تعلن حرية الانسان في عقيدته من حيث يمنع الاكراه عليها : « لا اكراه في الدين (٣) » « إفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين (٤) » . ولم يعط أحد حق اكراه انسان على عقيدته . وفي ذلك يقول القرآن للرسول عليه السلام « فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر (٥) » ..

٥ - ونتيجة للمبدأ السابق يجمع الفقهاء على أن غير المسلمين من أهل الكتب السماوية يتركون وما يدينون . ولا يجبرون على تنفيذ أحكام شريعتنا فيما لهم فيه تشريع خاص . سيما فيما يتعلق بأحكام الأحوال الشخصية .

وقد كان تاريخ الاسلام السياسي منفذا لهذا المبدأ في جميع عصوره بلا استثناء .

(١) البقرة : ١٧٠

(٢) العنكبوت : ٥١

(٣) البقرة : ٢٥٦

(٤) يونس : ٩٩

(٥) المائدة : ٢١

### ٣ - الحرية «العلمية»

ستعلم مما نذكره في البحث التالى وهو « حق العلم » أن الاسلام فتح آفاق الكون كله . أرضه وسماواته . بجميع عوالمه المتعددة . أمام العقل ليفكر فيه ويتدبره وأن الاسلام جعل أساس الوصول الى الحقائق العلمية المتصلة بهذه العوالم هى « التجربة » و « التّفكر » و « الخبر الصادق » ونتيجة هذا كله أن يفتح أمام العقل طريق البحث العلمى المجرد من كل قيد يحول دون انطلاقه . وهذا هو الذى وقع فى تاريخ الاسلام ، وكان أول حرية ينالها العقل فى ظل الديانات .

استطاع العقل بهذا الجو العلمى الحر أن ينطلق فى ميادين الآداب والفلسفة والعلوم . وأن يجتهد ويستنبط . من نصوص الشريعة ما تؤهله لذلك وسائل الاجتهاد والاستنباط . وأن يتدبر الكون وأحداثه . وأن يناقش الآراء ويفاضل بينها . ويختار منها ما يراه أقرب الى الصواب . وأوفق للعقل . مهتديا فى ذلك كله . بقوله تعالى : « فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه . أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الالباب (١) » .

وانا لنجد فى هذه الآية شيئا جديدا فى تاريخ العقل . وخاصة فى تاريخ الديانات . وهو أن الذين يستمعون الآراء ويتبعون أحسنها . هم العقلاء وحدهم دون غيرهم . وهم الذين هداهم الله واستحققوا ثنائه وثوابه . أن هذا شيء عظيم فى تطور العقل الانسانى وفى تاريخ الديانات .

وفى هذا الجو العلمى الحر . والجو الفكرى المنطلق . نشأت المذاهب وتعددت الآراء . وكثرت المدارس الفكرية . وتنوعت الحلقات العلمية . وكان لكل ذى رأى أتباعه . ولكل امام مؤيدوه .

وابتدأت حلقات العلم تنمو فى حماية الاسلام . فى كل نواحي العلوم وفروعها ، وأول ما بدأت فى المساجد . ثم أنشئت بجانبها المدارس . مما كان له أكبر الاثر فى ازدهار العلوم والآداب (٢) .

ونحن نذكر فيما يلى أهم الميادين العلمية التى أستعمل فيها العقل وتعددت فيها الآراء والمدارس الفكرية .

١ - فى تفسير القرآن الكريم : فقد قامت الآراء المختلفة فى تفسير كثير من آياته وكلماته .

٢ - فى الحديث الشريف : فقد نشأت بعد جمعه علوم كثيرة فيها آراء متعددة .

٣ - فى تشريع الاحكام : فقد تعددت المذاهب الاجتهادية تعددا جعل من الفقه الاسلامى ثروة تشريعية لا مثيل لها فى أمة من الامم فى القديم والحديث .

(١) الزمر : ١٧ ، ١٨

وأوقافها فى تاريخ الحضارة الاسلامية فى كتاب « من روائع حضارتنا » للمؤلف .

٤ - في علم الكلام - العقائد - فقد نشأت المذاهب المتعددة في الأصول العقائد . وحسبنا مدرستا الاشعري والماتريدي في جمهور أهل السنة .

٥ - في التاريخ : فقد أتبع كل مؤرخ ماصح عنده من الاخبار وما صح لديه من تفسيرها .

٦ - في الادب من نحو وصرف . وشعر ونثر . ولغة وقواف : فقد تعددت الآراء في كثير من أبحاثها . وحسبنا مدرسة البصرة . ومدرسة الكوفة في النحو . والآراء في نقد الشعراء والكتاب وتفضيل بعضهم على بعض .

٧ - في الفلسفة ما بين حفى بها مدافع عنها . وما بين مهاجم لها . معرض عنها . والعنيون بها ما بين منحاز الى رأى فيلسوف يدافع عنه ، وما بين منحاز الى فيلسوف آخر يتعصب له وما بين مستقل يبدى رأيه بحرية .

٨ - في الطب والعلوم والطبيعة . اذ كانت التجربة هى الاساس الذى قام عليه علم الكيمياء عند المسلمين .

٩ - في الفلك والاجرام السماوية . اذ قامت المراصد في عواصم الاسلام الكبرى لتتبع حركات النجوم وأحوالها .

١٠ - في الاخلاق وعلم النفس . اذ قامت الدراسات التى تدور حول طبائع النفس الانسانية وخصائصها .

١١ - في التصوف . حيث نشأت المذاهب المتعددة في السلوك والعبادة . ولكل شيخ فيها مريدون يأخذون بطريقته .

ونحن اذ نذكر هذه النهضة العلمية في مختلف الميادين . وتعدد مدارسها الفكرية . لا نتعرض لما كان للخلاف في بعض هذه الميادين من آثار في الحياة السياسية والاجتماعية للمسلمين - فذلك له موضع آخر . وانما نذكرها للدلالة على الحرية العلمية التى عاشت في ظل الاسلام وخاصة في عصور حضارته الزاهرة .

ومن الجدير بالذكر أن هذه الآراء والمدارس الفكرية المتعددة التى انتشرت في أنحاء الاسلامى كله . كان منها ما يمس العقيدة الاسلامية . ومنها ما كان يخالف الحقائق الاسلامية . ومع ذلك فلم تكن هناك سلطة دينية أو سياسية تحظر هذه الآراء أو تحكم على أصحابها بالاعدام والاحراق . بل كان علماء الشريعة يتصدون للرد عليها وبيان زيفها وبطلانها بالحجة والبرهان . وكان ميدان هذا النقاش هو الكتب والحلقات والمجالس العلمية فحسب . لا السيف ولا السجن . الا مرة واحدة في تاريخنا حين فرض المأمون والمعتصم رأى المعتزلة في خلق القرآن . وعذب المثات من العلماء المخالفين لذلك الرأى . ولكنها حادثة واحدة يذكرها التاريخ بأسف ومرارة . ولم يقع أن تدخلت الدولة - وخاصة في القرون الثلاثة الاولى للهجرة - ضد الآراء المهاجمة للاسلام

والمخالفة لتعاليمه ، إنما حين ترى الدولة أن من وراء هذه الآراء مآرب سياسية تعرض كيان الدولة للخطر . كما حصل في زمن على رضى الله عنه حين وقف من عبد الله بن سبأ اليهودى المتظاهر بالاسلام والذي نادى بالوهمية على رضى الله عنه ، فقد قاومه على وقاوم جماعته بالقوة . ونحن لانشك الآن في أن ذلك اليهودى الخبيث لم يكن له غرض من تلك الدعوة ألا تهديم الكيان الاسلامى ، وافساد العقيدة الاسلامية بما يبعث على التفرقة والفساد .

وكما حصل في عهد المهدي العباسى اذ نشط أعداء الدولة في نشر الآراء الهدامة التى لا بد من أن تقضى على كيان الدولة لو استمرت . ونجحت ، فنهض المهدي لمقاومة رؤوس هذه الفتنة وهم الذين يسمون بالزنادقة ، وكلهم من الفرس الذين استولى الاسلام على مملكتهم وقضى على فاسد عقائدهم .

ولم يقع اضطهاد بعض العلماء لأرائهم التى تخالف الجمهور الا في حالات نادرة . وفي العصور المتأخرة . كما وقع لابن حزم في الاندلس . وابن تيمية في دمشق . ولم يكن ذلك ليوقع لولا أن العقل الاسلامي كان قد بدأ يتعدى عن الحرية العلمية التى أرسى أساسها الاسلام .

#### ٤ - الحرية (( السياسية ))

الحرية السياسية في نظر الاسلام جزء أساسى من الحرية الانسانية . . وتتجلى الحرية السياسية في الامور الرئيسية التالية :

١ - حرية اختيار رئيس الدولة ( الخليفة أو أمير المؤمنين كما كان يسمى في الماضي ) فان أهل الحل والعقد في الامة هم الذين يتولون اختياره . فاذا اتفقوا أو أكثرهم على شخص منهم بايعوه على السمع والطاعة والنصرة ، ثم يتبعهم الجمهور في المبايعه . وبذلك يكون رئيساً شرعياً للدولة . وهكذا تمت مبايعه أبى بكر رضى الله عنه بالخلافة . وكذلك تمت بيعه الخلفاء الثلاثة الآخرين بقرىب من هذا الشكل . وتولى الخلافة بالوراثة كما حصل في عهد معاوية اذ عهد بها الى ابنه يزيد . أمر ان كان قد اقتضه الظروف السياسية في ذلك العهد - فان روح الاسلام ومبادئه تأباه .

٢ - حرية ابداء الراى الشورى لرئيس الدولة ، فانه مطلوب منه أن يستشير من هو أهل للشورى عملاً بقوله تعالى : « وشاورهم في الامر فاذا عزمت فتوكل على الله (١) » والشورى هى مظهر الحكم في النظام الاسلامى كما قال تعالى : « وأمرهم شورى بينهم (٢) » وقد طبق ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته السياسية والحربية كما هو معلوم في معركة بدر وأسراها .

٣ - حرية نقد الحاكم - في حدود الادب الاسلامى والمصلحة العامة . - فان لكل مواطن أن يبدى رأيه في تصرفات الحاكم . وأول من ضرب

المثل لهذا أبو بكر في خطبته الاولى بعد الخلافة : « ان رأيتموني على حق فاعينوني . وان رأيتموني على باطل فسدوني » ويتجلى هذا المبدأ واضحاً في تصرفات الخليفة الثاني عمر رضي الله عنه . واستماعه انى رأى الشعب في تصرفاته وإلى ردهم عليه بعض آرائه .

٤ - حرية التظلم الى رئيس الدولة من تصرفات الولاة والوزراء وقد كان عمر يرسل الى ولايته أن يجتمع بهم في موسم الحج وينادي في الناس : من كانت له مظلمة على أحد الولاة فليتقدم بالشكوى منه . وكان عمر يستمع الى كل شكوى . ولا نرى حاجة الى الاستسهاد بالادلة فذلك مما استفاض وعرف في التاريخ . وقد كان «ديوان المظالم» مما عرف في تاريخ الدول الاسلامية في مختلف العصور . وكثيراً ما كان الخليفة بنفسه يستمع الى المظالم ولو كانت على نفسه أو أمراء الدولة وأعيانها . وكثيراً ما كان الخليفة يستدعى الى مجلس القضاء ليقف أمام القاضي متهماً في دعوى رفعها ضده أحد أفراد رعيته . وتاريخ القضاء في الاسلام حافل بهذه الوقائع .

٥ - حرية عدم اطاعة الحاكم إذا أمر بمعصية . وبتعبيرنا الحديث عدم نفاذ أمره إذا خالف الدستور والانظمة العامة . والاصل في هذا قوله صلى الله عليه وسلم : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق (١) » .

٦ - حرية الخليفة نفسه . فان الخليفة - أو الرئيس - في نظام الاسلام ليس أمراً شكلياً . بل هو ذو صلاحيات واسعة . فهو الذى يعين الوزراء ويكونون مسئولين أمامه . وهو الذى يعلن الحرب على الأعداء إذا أعلنوا الحرب على الأمة . ويعبىء الجيوش ويقود المعارك كل ذلك ضمن مبدأ الشورى . هذا عدداً مهماته الداخلية . فلا بد أن يكون الخليفة قادراً على القيام بهذه الشؤون . ومن هنا تعرض الفقهاء لما اذا وقع الخليفة أسيراً في يد الأعداء قال القاضي أبو يعلى : « فان صار مأسوراً في يد عدو قاهر لا يقدر على الخلاص منه . منع ذلك من عقد الامامة له . لعجزه عن النظر في أمور المسلمين (٢) » ثم قال : « فان أسر بعد أن عقدت له الامامة فعلى الأمة استنقاذه . لما أوجبته الامامة من نصرته (٣) » .

وقصارى القول ان الاسلام قد كفل الحرية السياسية للأمة بطريقة تبقى على الأمة حريتها الكريمة . وتحفظ للدولة قيامها بواجباتها نحو الأمة في جو من الحزم والجد ووضع الأمور في مواضعها . واعتقد ان نظامه في هذا الشأن ينحى الأمة من مساوئ الحريات السياسية المائعة في بلد كفرنسا . رأينا كيف أدت الحريات السياسية للأحزاب فيها الى أن تستغل هذه الأحزاب مصالح الأمة في سبيل مصالحها الخاصة . مما أدى الى انهيار الدولة وانتشار الفساد الاخلاقى في موظفيها من رشوة وانحياز واستهتار وغير ذلك .

#### ٥ - الحرية ( المدنية ) :

ونعنى به حرية الفرد في اختيار العمل الذى يريده لكسب معيشته واختيار من يشاء لتكون زوجته . واختيار المرأة البالغة العاقلة من تشاء

(١) . الاحكام السلطانية : ٦/١ .

(٢) رواه احمد والحاكم .

(٣) الاحكام السلطانية : ٦/١ .

ليكون زوجها . وهذا على رأى كثير من الفقهاء . واختيار البلدة التي يقيم فيها . والعلم الذي يريد التخصص فيه ، ولا تتدخل الدولة في ذلك الا عند الضرورة كما فعل عمر رضى الله عنه في منع كبار الصحابة وفقهائهم من التحول عن المدينة الى الامصار والبلاد المفتوحة ليكونوا بجانبه يعينونه في حل مشكلات الخلافة والقيام باعبائها ، وقد بحث الفقهاء في الحالات التي يجوز للدولة أن تتدخل فيها في حرية العمل وحرية الإقامة وغير ذلك من الشؤون .

#### ٦ - الحرية ( الاجتماعية ) :

ونعنى بها حرية النقد الاجتماعى لكل من تؤهله كفاءته وعلمه للتصدي للنقد ، وهذا ما يسمى بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فالحكم الشرعى أن من رأى منكرا - وهو ما يخالف الشرع والعرف الذى يقره العقلاء ضمن حدود الشرع - فعليه أن ينكره بيده اذا استطاع ، كمن رأى انسانا يريد أن يقتل انسانا ظلما وعدوانا فعليه أن يمنع هذا القتل العدوان اذا كان يستطيع ذلك ، فان لم يستطع فعليه أن ينكر ذلك بلسانه ، فان لم يستطع بأن كان مقهورا مغلوبا على أمره فعليه أن ينكر ذلك بقلبه . ويشترط في ذلك كله ألا يؤدي انكار المنكر الى ما هو أشد خطرا على المجتمع ، كما يشترط أيضا شروط تعرف في مواضعها ، والاصل في ذلك قوله صلى الله عليه وسلم :

« من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان (١) » .

#### ٧ - الحرية ( الادبية ) :

ونعنى بذلك حرية الانسان فيما يفعله أو يقوله أو يميل اليه اذا كان ذلك ضمن المبادئ الاخلاقية والاجتماعية ، فان لكل انسان ميوله الفطرية ، ولذاته المشروعة ، فلا يحتم الشرع سلوك طريق معين لذلك ، وينبغى أن لا يختلط الامر بين الحرية بهذا المعنى ، وبين الحرية الاخلاقية المنطلقة من كل قيد ، فتلك هي حرية العقلاء ، وهذه حرية السفهاء لسنا نجد في الدنيا حرية لا تقيد بقيد ، ولسنا نجد مجتمعا لا يقيد بالتصرفات المدنية بقيود تضمن كرامة الجماعة وعدم انتقاص حريتها ، واذا تعارضت حرية الفرد مع حرية المجتمع كانت حرية المجتمع أولى بالتقدير . هذا هو حكم الشريعة ، وهذا هو موقف القوانين في الدول المتقدمة .

وأزيد هذا الموضوع ايضا بما كتبت في يوم من الايام : ليست الحرية كما يتوهمها أكثر الناس مقصورة على نوال الشعوب حقها في السيادة والاستقلال فتلك هي الحرية السياسية ، ووراءها حرية الامة في تفكيرها وثقافتها واتجاهاتها الانسانية الكريمة . وليست الحرية كما يظنها كثير من الشباب أن ينطلق الانسان وراء أهوائه وشهواته ، يأكل كما يشاء ، ويفعل ما يشاء ، ويحقق كل

(١) رواه مسلم وأحمد وأصحاب السنن الأربعة .

ما يهوى ويريد ، فتلك هى الفوضى اولا ، والعبودية الذليلة اخيرا .

اما أنها فوضى فلانه ليس فى الدنيا حرية مطلقة غير مقيدة بقانون او نظام ، بل كل شىء فى الدنيا له قانون يسيره وينظمه ، وحرية الفرد لا تصان الا حين تقيد ببعض القيود لتسلم حريات الآخرين . ومن هنا كانت الحكمة من الشرائع والدساتير والانظمة والقوانين . . . خذ لذلك مثلا قانون السير فى المدن الكبرى . هل تستطيع أن تسير بسيارتك الا وفق السهام التى تحدد اتجاهك فى السير . وخذ لك مثالا قانون الراحة العامة : هل تستطيع أن تفنى بعد منتصف الليل كما تشاء فى الشوارع الاهلة بالسكان . وخذ لذلك قانون حماية الاستقلال هل تستطيع أن تبث من الآراء ما يؤدى الى الانقضاء على أمن الدولة وتهديد سلامتها ؟ هل تستطيع أن تدعو الى الصلح مع العدو ، وأمتك فى قلب المعركة ؟ هل تستطيع أن تتاجر مع العدو أو تهرب اليه منتجيات بلادك دون أن تتعرض للعقوبة التى تصل أحيانا الى حد الاعدام .

ان « تمام » الحرية لا « كمالها » قد يكون بالمنع أحيانا ، فالمرضى حين يمنع من الطعام الذى يضره ، إنما تحد حريته فى الطعام مؤقتا ، لتسلم له بعد ذلك حريته فى تناول ما يشاء من الاغذية ، والمجرم حين يسجن إنما تحد حريته مؤقتا ليعرف كيف يستعمل حريته بعد ذلك فى اطار كريم لا يؤذى نفسه ولا يؤذى الناس .

ثم ان الانسان لا يعيش وحده ، وأنما يعيش جزءا من مجتمع متماسك يؤذى كله ما يؤذى بعضه ، وقد ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك مثلا من أروع الامثلة بقوم كانوا فى سفينة وكان بعضهم فى أعلاها وبعضهم فى أسفلها ، وكان الذين فى أسفلها يأخذون الماء ممن فوقهم ، فقالوا : لماذا لانخرق فى مكاننا خرقا نأخذ منه الماء من البحر رأسا . قال عليه الصلاة والسلام : « فان تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا ، وان أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا » انه مثل كريم من معلم الانسانية الاكبر يضع فيه الحد الفاصل بين الحرية الشخصية التى لا تؤذى أحدا ، وبين الحرية التى تؤذى المجتمع وتعرضه للانهايار اذا أطلقت يد صاحبها فيها كما يشاء .

وأما أنها العبودية ، فلان تمام الحرية هو أن لا يستعبدك أحدمن يساويك فى الانسانية أو يكون دونك فيها ، وفى الفوضى التى يعبر عنها بعض الناس « بالحرية الشخصية » عبودية ذليلة لمن هو مثلك أو دونك من قيم الحياة ومادتها .

حين تستولى على الانسان عادة الانطلاق وراء كل لذة والانفلات من كل قيد ، يكون قد استعبدته اللذة على أوسع مدى ، وأصبح أسيرها يجرى فى الحياة تحت أراذلتها ووجيها ، لا يعمل الا ما تريد ، ولا يستطيع فككا مما تهوى . فما هذه الحرية التى تنقلب الى عبودية لاهون ما فى الحياة من قيمة ومعنى . لئن كانت قيمة الانسان بمقدار ما ينال من لذائذه ، فان الحيوان أكثر منه قيمة وأعلى قدرا ، ان الحيوان هو الذى يسعى وراء لذته بلا قيد ولا هدف ومهما جهد الانسان أن ينال من لذائذه ما

يهوى فانه ملاق في سبيل ذلك - رغم أنفه - عوائق تمنعه من بعض ما يريد ، فهل يزعم أحد أن الحيوان الذي لا يعوقه دون استكمال لذته عائق ، أكثر من الإنسان حرية ، فهو أكثر منه سعادة !.

وحين ينطلق الإنسان وراء فتاة يهواها ، أو وراء الفانيات يشبع بهن لذائذه ، أيستطيع أن يزعم أنه حر من سلطانهن ! ألا تراه أسير اللحظات ، رهين الاشارات ، شارد اللب ، أقصى أمانيه في الحياة بسمة من حبيب هاجر . أو وصال من جسم ممتنع . أية عبودية أذل من هذه العبودية ، وهو لا يملك حريته في الحب والكراهة ، والوصل والمنع ، والرضا والغضب ، والهدوء والاضطراب .

وحين يسترسل الإنسان في تناول المسكرات يعب منها مائتاله يده حتى تتلف أمصابه وصحته . وتسلب عقله وكرامته ، أيزعم بعد ذلك أنه حر . أهناك أبشع من هذه العبودية لشراب قاتل وسُموم فتاكة ؟ ..

وقل مثل ذلك في التهالك على المال والجاه والتعصب للبلد والعشيرة ، ان كل ذلك حين يستولى على قلب الإنسان ونفسه ينقلب الى عبودية ذليلة ، وكل هوى يتمكن من النفس حتى تكون له السيطرة على الاعمال والسلوك ينقلب بصاحبه الى عبودية بشعة لانهاية لقبحها ، ومن أعجب أساليب القرآن تعبيره عن مثل هذه الحالة بقوله : « أفرأيت من اتخذ الله هواه » (١) .

ان الهوى عند أمثال هؤلاء خصائص الالهية في نفوس المؤمنين . ليس آله هو الذي يعبد ويطاع ، ويخشى ويرتجى . وأليس أصحاب الاهواء والشهوات قد خضعوا لاهوائهم وأطاعوها فيما تحب وتكره . فلا يستطيعون أفضائها ولا معارضة اتجاهاتها .

ليست العبودية قيذا ولا سجنا فحسب ، فهذه أهون أنواع العبودية وأسرعها زوالا ، ولكن العبودية الحققة عادة تتحكم ، وشهوة تستعلى ، ولذة تطاع ، وليست الحرية هي القدرة على الانتقال من بلد الى بلد ، فتلك أيسر أنواع الحرية وأقلها ثمنا ، ولكن الحرية الحققة أن تستطيع السيطرة على أهوائك ونوازع الخير والشر في نفسك ، ان الحرية الحققة ألا تستعبدك عادة ، ولا تستدلك شهوة .

بهذا المعنى كان المؤمنون المتدينون أحرارا لاتحد حريتهم بحدود ولا قيود ، ان الدين حرر نفوسهم من المطامع والاهواء والشهوات ، وربط نفوسهم بالله خالق الكون والحياة ، وقيد ارادتهم بارادته وحده ، والله هو الحق ، وهو عنوان الخير والحب والرحمة ، فمن استعبده الحق والخير والرحمة كان متحررا من ماعداها من صفات مذمومة .

واذا كان لابد للإنسان من أن يستعبده فكرة أو نوعة أو خلق فالذين يستعبدهم الحق خير وأكرم ممن يستعبدهم الباطل ، والذين



تستعبدتهم نزعاً انسانية كريمة تستمد سموها من الله ، أكرم ممن تستعبدتهم نزعاً شهوانية يمتد نسبها الى الشيطان ، والذين يخضعون لله ويمثلون أمره ونهيه ، أفضل وأكمل وأعقل ممن يخضعون لامرأة أو كاس أو مال أو لذة . أفلا ترى معنى بعد هذا سخف بعض التقدميين الذين يابون أن يناديهم الناس بأسمائهم كما سماهم آبائهم « عبد الله ، أو عبد الجواد » مثلاً ويأنفون في - زعمهم - أن يوصفوا بالعبودية ، أفلا ترى هؤلاء الذين يرفضون عبوديتهم لمن لا يملكون لانفسهم خروجاً من سلطانه ويقبلون عبوديتهم لاحقر شهوة وأحط رغبة . . الا ترى هؤلاء يستحقون منك الاشفاق والرثاء أكثر مما يثيرون في نفسك السخط والاستنكار .

ان أوسع الناس حرية أشدهم لله عبودية ، هؤلاء لاتستعبدهم غانية ، ولا تتحكم فيهم شهوة ، ولا يستذلهم مال ، ولا تضع شهادتهم لذة ، ولا يذل كرامتهم طمع ولا جزع ، ولا يملكهم خوف ولا هلع . لقد حررتهم عبادة الله من خوف ما عداه ( ألا ان أولياء الله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون ، لهم البشري في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم (١) . صدق الله العظيم .

فقد قطع هؤلاء بعبوديتهم له عن كل خضوع لغير الله ، فاذا هم في انفسهم سادة ، وفي حقيقتهم أحرار ، وفي أخلاقهم نبلاء ، وفي قلوبهم أغنياء ، وذلك لعمرى هو التحرر العظيم ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يقول : « ليس الغنى عن كثرة العرض إنما الغنى غنى النفس (٢) » وما أجمل قول ابن عطاء الله : « أنت حر لما أنت عنه آيس ، وعيد لما أنت له طامع » وبهذا المعنى الذي شرحناه تفهم تلك الحكمة البليغة التي قالها الشيخ الصوفي الكبير أحمد بن خضروية (٣) ( في الحرية تمام العبودية ، وفي تحقيق العبودية تمام الحرية ) اهـ (٤) .

(١) يونس : ٦٢ - ٦٤

(٢) رواء البخارى ومسلم

(٣) طبقات الصوفية لابی عبد الرحمن السلمى .

(٤) أحكام الصيانة وتوفلسفته ص ٥٨ للمؤلف

## حق العلم

هذا هو الحق الثالث لكل مواطن في اشتراكية الاسلام ، وقبل أن نبين معنى هذا الحق وأدلته من مصادر الشريعة ، لابد من أن نذكر بعض الحقائق المتعلقة بالعلم والعلماء في نظر الاسلام .

### أولاً : الاشارة بالعلم :

لم يسبق الاسلام — فيما نعلم — دين وقف من العلم كموقف الاسلام من الدعوة اليه ، والاشادة بفضله .

فأما الاشارة به فقد جاءت فيه نصوص كثيرة ، منها قول الله تبارك وتعالى ، وهو أول ما نزل من القرآن على النبي الامي محمد صلى الله عليه وسلم : « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم (١) » .

وجاء من أوائل السور المكية : « ن والقلم وما يسطرون (٢) » .

وجاء أيضاً : « والطور وكتاب مسطور في رق منشور (٣) » .

ومن المعلوم أن أداة العلم : قلم يكتب ، ومداد يوضح ، ومادة يكتب عليها ، وقد أقسم الله بهذه الأدوات الثلاث فيما ذكرناه من الآيات ، أقسم بالنون ، وهي الدواة على ما ذهب اليه جمهور المفسرين ، وأقسم بالقلم ، وأقسم بالرق المنشور ، ومن أمعن النظر في كتاب الله الكريم وجد أن الله تعالى إنما يقسم بكثير من مخلوقاته تنويهاً بشأنها ولفتاً لانظار الناس إليها .

ويقول تعالى في قصة خلق آدم : « وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء أن كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا أنك أنت العليم الحكيم ، قال : يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون (٤) » .

ذكر الله تعالى في هذه الآيات رده على الملائكة الذين تعجبوا كيف يجعل في الأرض خليفة له ممن شأنه سفك الدماء والافساد في الأرض ، فإن الانسان — وإن كان من بعض أخلاقه ما ذكرته الملائكة — ألا أن هذه الخصائص يشترك فيها كثير من الحيوانات ، ولكن الميزة « الأولى » التي ينفرد بها الانسان هي « استعدادة للعلم » ومن أجلها استحق الخلافة في الأرض والسيطرة عليها . واستحق أن تخضع له أكرم مخلوقات الله

(١) سورة العلق : ١-٥

(٢) سورة القلم : ١-٢

(٣) سورة الطور : ١-٣

(٤) سورة البقرة : ٣١-٣٣

وهم الملائكة ، فأمرهم بالسجود لآدم بعد أن أظهر لهم ميزته عليهم .  
« بالعلم » ، وفي هذا من الإشادة بالعلم وتكريمه وجعله الميزة الكبرى  
التي يتميز بها الإنسان عن غيره ، مالا مزيد عليه وما لا نعرف له مثيلا في  
الديانات السابقة التي حكمت قصة خلق الإنسان الاول ، وبالمقارنة بين  
ما أورده القرآن عن قصة خلق آدم كما ذكرناه آنفا ، وبين ما قصته  
التوراة الحاضرة عن بدء خلق آدم يتبين لنا الفرق بين صنيع القرآن  
الذي جعل « المعرفة » هي ميزة آدم التي خلقه الله من أجلها ، وبين  
صنيع التوراة التي جعلت « المعرفة » التي حلت بآدم حين أكل شجرتها  
التي نهاه الله عنها سببا في عقوبة آدم وحواء وطردهما من الجنة !.

ومما جاء في الحديث النبوي عن فضل العلم : « إذا مات ابن  
آدم انقطع عمله الا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد  
صالح يدعو له (١) » .

### ثانيا : الإشادة بالعلماء :

في القرآن والسنة من الإشادة بفضلهم ما يلفت الانظار الى سمو  
مكانة العلماء في نظر الاسلام .

قال تعالى : «شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم (٢)» .  
وقال تعالى : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم  
درجات (٣) » .

وقال تعالى : « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا  
العلمون » (٥) .

وأنت ترى في هذه الآية الاخيرة أن الله تعالى حصر العقل والتدبر  
في آيات الله في الكون وما يضربه للناس من أمثال للعبرة والعظة . بالعلماء  
دون غيرهم . وهذا تشريف للعلماء ولفتح الانظار الى اثرهم ومكانتهم  
في المجتمعات ما بعده مزيد .

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم : « العلماء ورثة الانبياء (٦) » .  
ومن المعلوم أن الانبياء هم الذروة العليا في الكمال الانساني، فهل هنالك  
أكثر تشريفا للعلماء من أن يكونوا ورثتهم ؟ .

(١) رواه مسلم وغيره

(٢) آل عمران : ١٨

(٣) المجادلة : ١١

(٤) فاطر : ٢٨

(٥) العنكبوت : ٤٣

(٦) رواه أبو داود والترمذي .

وعنه صلى الله عليه وسلم : « يوزن مداد العلماء ودماء الشهداء يوم القيامة (١) » .

ومن المعلوم أن دم الشهيد الذى يراق فى سبيل الله هو أغلى دم يراق من بنى الإنسان .

فإذا كان المداد الذى ينفقه العالم فى تأليف الكتب لنفع الناس يعادل دم شهيد . بل يرجح عليه فى بعض الروايات . كان ذلك اشادة كبرى يفضل العلماء .

### ثالثا : تفضيل العلماء على المتعطلين المنقطعين للعبادة .

لا شك فى فضل العبادة لله والوقوف بين يديه فى الصلاة مع الخشوع والحضور . ومع ذلك فقد جاء الاسلام بتفضيل العلماء على المنقطعين للعبادة .

قال عليه الصلاة والسلام : « فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب (٢) »

وروى عنه : « قليل العلم خير من كثير العبادة (٣) »

وعنه أيضا : « يبعث الله العالم والعابد ، فيقال للعابد : ادخل الجنة ، ويقال للعالم : أشفع للناس كما أحسنت أديهم » (٤)

### رابعا : البحث على طلب العلم :

قال الله تعالى : « فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون (٥) »

والذكر هنا هو العلم على رأى جمهرة المفسرين ، بدليل قوله « ان كنتم لا تعلمون (٦) » فان أمر من لا يعلم أن يسأل عما لا يعلم لا يكون الا بالسؤال من العلماء

وقال تعالى : « فلو لا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون (٧) »

وعنه عليه الصلاة والسلام : « طلب العلم فريضة على كل

(١) رواه ابن عبد البر

(٢) رواه أبو داود والترمذى

(٣) رواه ابن عبد البر

«وأخرجه البيهقى وغيره

(٤) رواه النسائى والترمذى

(٥) النحل : ٤٣

(٦) ابن عبد البر فى جامع بيان العلم ،

(٧) التوبة : ١٢٢

مسلم (١) «

وجاء في بعض الآثار : « أطلب العلم من المهد إلى اللحد »

**خامسا : فضل الرحلة في طلب العلم .**

. وقد صح عنه صلى الله عليه وسلم قوله : « من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة (٢) »

وعنه عليه الصلاة والسلام : « من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع (٣) »

**سادسا - لا خير في غير العالم والمتعلم :**

في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم : « العالم والمتعلم شريكان في الاجر ولا خير في سائر الناس بعد (٤) »

وفي الاثر عن عبد الله بن مسعود « اغد عالما أو متعلما ولا تغد بين ذلك » (٥)

وعن علي رضي الله عنه : « الناس ثلاث : فعالم رباني ، ومتعلم في سبيل نجاه ، والباقي همج رعاع اتباع كل ناعق (٦) »  
وستل عبد الله بن المبارك . من الناس ؟ فقال : هم العلماء !

قال الغزالي رحمه الله في شرح ذلك : لم يجعل غير العالم من الناس لان الخاصبة التي يتميز بها الناس عن سائر البهائم هي العلم . فالانسان انسان بما هو شريف لاجله . وليس ذلك بقوة شخصه . فان الجميل أقوى منه . ولا بعظمه فان الفيل أعظم منه . ولا بشجاعته فان السبع أشجع منه . ولا بأكله فان الثور أوسع بطناً منه . ولا لجامع فان الخس العسافير أقوى على السفاد منه . بل لم يخلق الا للعلم . أه (٧)

**سابعا - وجوب التعلم والتعليم :**

خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فائتى على طوائف من المسلمين خيرا . ثم قال : ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم ولا يعلمونهم ولا يعظونهم ولا ينهونهم ؟ وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم ولا يتفقهون ولا يتعظون ؟ والله ليعلمن قوم جيرانهم ويفقهونهم ويعظونهم ويأمنهم وينهونهم . ولتعلمن قوم من جيرانهم ويتفقهون ويتعظون أو لا عاجلنهم العقوبة ! .

ثم نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قوم : من ترونه عنى بهؤلاء ؟ قال : الاشعرين هم قوم فقهاء ولهم جيران جفاة من أهل المياه والاعراب . فبلغ ذلك الاشعرين فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) رواه البيهقي وابن عبد البر ، قال السخاوي في المقاصد الحسنة قد الحق بعض المصنفين بآخر هذا الحديث « ومسلمة » وليس لها ذكر في شيء من طرقها وان كان معناها صحيحا أ ه ص ٢٧٧

(٢) رواه مسلم وأبو داود والترمذي وغيرهم ٢٨/١ :

(٣) رواه الترمذي (٤) ابن عبد البر في جامع بيان العلم :

(٥) ابن عبد البر في جامع بيان العلم : ورواه ابن ماجه

(٦) ابن عبد البر : ٢٩/١ (٧) الاحياء : ٧/١

فقالوا : يا رسول الله ! ذكرت ألقواما بخير وذكرتنا بشر فما بالنا ؟ فقال : ليعلمن قوم جيرانهم وليعظنهم وليأمرنهم ولينهونهم ، وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتعظون ويتفقهون . أو لاعاجلنهم العقوبة في الدنيا ، فقالوا يا رسول الله ! أنفطن غيرنا ؟ فأعاد قوله عليهم ، وأعادوا قولهم : أنفطن غيرنا ؟ فقال ذلك أيضا ، فقالوا : أمهلنا سنة ، فأمهلهم سنة ليفقهوهم (١) ويعلموهم ويفطنوهم ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية : « لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون (٢) »

- وانك لترى في هذا الحديث من الحقائق ما يجدر التنبيه اليه .
- ١ - فالرسول عليه السلام لم يقر قوما على الجهالة بجانب قوم متعلمين .
  - ٢ - واعتبر بقاء الجاهلين على جهلهم وامتناع المتعلمين عن تعليمهم فصيانا لأوامر الله وشريعته .
  - ٣ - واعتبر ذلك أيضا - عدوانا - و - منكرا - يوجبان اللعنة والعذاب .
  - ٤ - وأعلن الحرب والعقوبة على الفريقين حتى يبادروا الى التعلم والتعليم .
  - ٥ - وأعطاهم لذلك مهلة عام واحد للقضاء على آثار الجهالة فيما بينهم .

٦ - ولئن كانت الحادثة قد وردت بشأن الأشعرين العلماء وجيرانهم الجهلاء ، فان الرسول أعلن ذلك المبدأ بصفة عامة ، لا بخصوص الأشعرين وحدهم بدليل أن الأشعرين لما جاءوا يسألونه عن سر تخصيصهم بهذا الانكار كما فهم الناس ، لم يقل لهم أنتم المرادون بذلك ، بل أعاد القول العام الذى سلف ثلاث مرات دون أن يخصه بالأشعرين ، أشعارا بأن القضية قضية مبدأ عام غير مخصوص بفئة ولا عصر معين .

وبذلك يكون الرسول صلى الله عليه وسلم قد أعلن مكافحة الامية قبل أن تعلنها الدول المتحضرة في عصرنا هذا بأربعة عشر قرنا ، وان هذا لعجيب أن يصدر من نبي أمي في بيئة أمية لولا أنه رسول الله .

### ثامنا - حدود العلم :

لا يرى الاسلام أن للعلم حدا ينتهى عنده العالم ، وأن لحقائق الوجود مدى يمكن أن يحيط بها العلماء ، بل على العالم أن يدأب على البحث والنظر ، وعليه أن يبتعد عن غرور « أنصاف » العلماء الذين يظنون

(١) كذا نقله المنذرى في الترغيب والترهيب: ١ ، ٦٠ والهيئى فى مجمع الزوائد : ١٦٤٨  
والحديث أخرجه الطبرانى فى الكبير  
(٢) الآية وردت فى سورة المائدة ٧٨ ، ٧٩

أنهم علموا كل شيء ، فليست هذه الصفة إلا لله وحده ( أن الله بكل شيء عليم (١) » .

- وفي ذلك آيات من القرآن الكريم :
- « وما أوتيتم من العلم الا قليلا (٢) » .
- « وقل رب زدنى علما (٣) » .
- « وفوق كل ذى علم عليم (٤) » .

#### تاسعا - مدلول العلم .

ويلاحظ من نصوص القرآن الكريم وأكثر نصوص الأحاديث التي أوردناها أن لفظ «معلم» مطلق غير مقيد بعلم معين ، اللهم الا أن يكون علما ضارا بالامة ، فهذا هو وحده الذى تحرمه مبادئ الشريعة حيث تمنع كل ما يضر بالمجتمع ويؤذيه .

ومن هنا يتفق العلماء على تحريم تعلم « السحر والشعوذة والحبل والرمق وأمثالها » .

وقد قال بعضهم بوجوب تعلمها اذا كان يراد بذلك تخليص الامة من الدجالين بكشف حيلهم وتغريهم بالسذج من الناس (٥) .

وقد خض بعض المتأخرين تلك النصوص الحاثئة على طلب العلم أو المشيدة بفضلها ، بعلم « التصوف » من حيث ايصاله الى خشية الله ومشاهدة جلاله وعظمته ، وخصها بعضهم بعلم « الفقه » من حيث يعرف الناس الحلال والحرام ، ويستدلون لذلك بقوله صلى الله عليه وسلم « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين » (٦) .

والصحيح شمول مدلول العلم لكل علم نافع مفيد للامة فى شئون الدين والدنيا لما سيأتى معنا فى بيان تقسيم العلم الى ما هو فرض عين وفرض كفاية ، أما الحديث المذكور فتخصيصه بعلم الفقه خطأ ، اذ المراد بالفقه الوارد فيه « يفقهه » هو الفهم والمعرفة بالدين ، لأن إطلاق «الفقه» على أحكام الحلال والحرام فقط اصلاح متأخر عن عصر التشريع وبذلك كان الصحيح فى فهم الحديث ما فهمه المحققون من العلماء من أنه يشمل كل ما جاءت به الشريعة من مبادئ وعقائد ، وأحكام وآداب ، وترغيب وترهيب ، وغيرها .

وهذا لا يمنع أن يكون العلم بالحلال والحرام اشرف العلوم التى رغبت فيها الشريعة لاتصاله بتصحيح العبادات والمعاملات . مما يؤدى الى الاستقامة فى الحياة الدنيا ، والنجاة فى الآخرة ، وهذا مالا نزاع فيه .

(٢) الاسراء : ٨٥

(٤) يوسف ٧٦

(٦) رواه البخارى ومسلم .

(١) المجادلة : ٧

(٣) طه : ١١٤

(٥) ابن عابدين : ٣١-١

## عاشرا : أقسام العلم :

يجمع علماء الشريعة على أن العلم المطلوب في الشرع هو نوعان .

### ١ - ما هو فرض عين :

أى ما يطلب تعلمه وجوبا من كل فرد مكلف ولا يعذر أحد في الجهل به ، وهو ما يحتاج اليه الانسان في إقامة دينه وقبول عمله عند الله تعالى ، واستقامة معاملته ومعاشرته للناس ، يدخل تحت ذلك كله تعلم أحكام العبادات ، وتعلم أحكام المعاملات لمن يمارسها ، وكذا أهل الحرف ( المهن ) وقالوا : أن كل من اشتغل بشئ يفرض عليه علمه وحكمه ليمتنع عن الحرام فيه (١) .

### ٢ - ما هو فرض كفاية :

وهو كل ما يحتاج المجتمع اليه من غير نظر الى شخص بذاته ، كتعلم الصناعات التى يحتاج اليها الناس ، وتعلم المهن التى لابد للناس منها من خياطة وحياكة وغيرهما على قدر ما يحتاجون اليه فان لم يكن فيهم من يتعلم كانوا آثمين جميعا .

قال ابن أمير الحاج في شرح التحرير في تعريف فرض الكفاية : هو المتحتم المقصود حصوله من غير نظر بالذات الى فاعله فيتناول ما هو دينى كصلاة الجنازة ، ودنيوى كالصنائع المحتاج اليها (٢) .

وقال الغزالي : أما فرض الكفاية فهو كل علم لا يستغنى عنه في قوام أمور الدنيا كالطب اذا هو ضرورى في حاجة بقاء الأبدان ، وكالحساب فانه ضرورى في المعاملات وقسمة الوصايا والموارث وغيرها ، وهذه هى العلوم التى لو خلا البلد عنهم يقوم بها ، خرج (أثم) أهل البلد ، وإذا قام بها واحد كفى ، وسقط الفرض عن الآخرين فلا يتعجب من قولنا أن الطب والحساب من فروض الكفايات ، فان أصول الصناعات أيضا من فروض الكفايات كالزراعة والحياكة والسياسة ، بل والحجامة والخياطة (٣) .

وقال ابن عابدين : وأما فرض الكفاية من العلم فهو كل علم لا يستغنى عنه في قوام أمور الدنيا كالطب والحساب واللغة . وأصول الصناعات كالزراعة والحياكة « النسيج » والسياسة والحجامة (١) .

ويلاحظ من هذه النصوص التى نقلناها أن القاعدة في العلوم التى هى فرض كفاية هى كل ما يحتاج اليه في شئون المجتمع من تجارة وطب واقتصاد وهندسة وكيمياء وفيزياء وكهرباء ، وكذا صناعة الأسلحة والدخائر وجميع أنواع الصناعات ، وما اقتصروا عليه من ذكر الحياكة والطب والزراعة والحساب ، فانما هو التمثيل بالنسبة لما كانوا يحتاجون اليه في عصورهم ، وقد وجدت حاجات لعلوم كثيرة في عصرنا هذا فتعتبر من فروض الكفاية . وكذا كل ما يجد في المستقبل من الحاجة

(١) ابن عابدين : ٢٩-١

(٢) التقرير شرح التحرير : ١٣٥-٢

(٣) الاحياء : ١ - ١٩

(٤) رد المحتار : ١٩٠-١ والمراد بالحجامة عندهم قديما ما يقابل الطب الجراحي في عصرنا



الى علوم اخرى فانها تعتبر من فروض الكفاية بحيث يجب على الامة ان يكون فيها من العلماء بتلك العلوم ما يكفي لحصول الامة على ثمار تلك العلوم . فلو كانت تحتاج في علم من العلوم الى مائة عالم مثلا ، ولم يكن فيها الا خمسون عالما ، تكون الامة ائمة حتى يوجد العدد الباقي للالزام من العلماء .

### العلم المندوب والمباح . .

وما عدا هذين النوعين من العلم فهو مندوب أو مباح كتعلم ما زاد عن الفرض العين من شئون الدين ، أو تعلم ما قام به غيره من فروع الكفاية ، فان ذلك مندوب ، وكالتوسع في الثقافة في مختلف العلوم فانه مباح ، واذا اقترنت به نية التقرب الى الله أو خدمة المجتمع فهو مندوب .

### أيهما أفضل ؟

وقد اختلف العلماء في أيهما أفضل ؟ تعلم فرض العين ؟ أم تعلم فرض الكفاية ؟ والجمهور على أن تعلم ما هو فرض عين أفضل ، لأن فيه القيام بفرض متحتم عليه لا يجزىء ان يقوم به غيره عنه .

وقال بعض المحققين : ان تعلم ما هو فرض كفاية أفضل ، لأنه يكون سببا في اسقاط الاثم عن جميع الناس ، ومن تعلم ما هو فرض عين فقد سقط عنه الاثم وحده (٢) .

### النتيجة :

من هذه المقدمات التي ذكرناها يتبين لنا أن العلم في اشتراكية الاسلام هو شرف وواجب وحق :

### العلم شرف :

أما أنه شرف فلما ذكرناه من النصوص التي تشيد بفضل العلم وترفع من مكانة العلماء ، والشرف كل الشرف هو ما جعله الله شرفا ونوه بقلبه في كتابه ، وجعله رسول الله صلى الله عليه وسلم فضلا يحث عليه في سنته .

وقد فرع الفقهاء على هذا فروعا كثيرة نذكر منها :

- ١ - قولهم في بحث الكفاءة بين الزوجين : ان العلم والقضاء أرفع الحرف (١) .
- ٢ - وقول من اشترط الكفاءة في النسب بين الزوجين : ان شرف العلم فوق شرف النسب فالعالم كفؤ لمن هو أعلى منه نسبا (٢) .

(١) جمع الجوامع : ١ - ١٨٥

مجموع الفتاوى : ١٨٥ (١) على المنهاج : ٣ - ٢٣٦ (٢) ابن عابدين : ٢ - ٢٢٣

٣- وقول من اشترط الكفاءة في المال بين الزوجين : أن العالم الفقير كفؤ لبنت الفنى أو الفنية (١) .

٤ - وقول من اشترط الكفاءة في الحرفة بين الزوجين : ان شرف العلم يجبر نقص الحرفة بل يفوق سائر الحرف ، فالتاجر الفنى ليس كفؤاً لبنت العالم أو القاضى (٢) .

٥ - قولهم بأن القرشى الجاهل لايجوز أن يتقدم على العالم « غير القرشى » لان كتب العلماء طافحة بتقدم العالم على القرشى ولم يفرق سبحانه بين القرشى وغيره في قوله : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون (٣) » .

٦ - قولهم ان من تعلم الصلاة ليعلم الناس أحكامها أفضل ممن تعلمها ليعمل بها (٤) .

٧ - قولهم أن طلب العلم والفقه اذا صحت النية أفضل من جميع أعمال البر (٥) .

٨ - قولهم ان تعلم العلم المفروض أولى من تعلم آى القرآن (٦) .

### العالم واجب :

وأما أنه واجب فقد ذكرنا أن من العلم ماهو فرض عين « وهذا واجب على كل مكلف ومنه ماهو فرض كفاية وهو واجب على جميع المكلفين لافردا بذاته » فكل مكلف لا يخلو من أن يجب عليه أن يعلم أشياء من الدين أو الدنيا . أو أن يجب عليه - بوصفه عضواً في المجتمع - أن يتعلم ما يحتاج اليه المجتمع بحيث يتمكن من القيام بما فرض على المجتمع تعلمه .

### المسلم حق :-

إذا كان الاسلام يفرض على العالم أن يعلم ، وعلى الجاهل أن يتعلم - كما قدمنا آنفاً - كان من الواجب على الانسان أن يسعى لتحصيل العلم وعلى الدولة والمجتمع أن ييسرا له الوصول الى هذا الحق ، وبهذا يكون «حق العلم» من الحقوق الطبيعية في اشتراكية الاسلام .

ونحن نجد في الفقه الاسلامى كثيراً من الأحكام التى تنبنى على هذا الحق ، نذكر امثلة لها فيما يلى :

(١) ابن عابدين : ٢ - ٢٢٣

(٢) المصدر السابق نقلا عن الفتاوى

(٣) المصدر السابق نقلا عن الفتاوى

(٤) ابن عابدين : ٥ - ٢٦١

(٥) المصدر السابق

(٦) الغزالي فى الاحياء

٩ - للابن ان يخرج لطلب العلم المفروض ولو من غير اذن والديه كما يخرج للجهاد المفروض من غير اذنهما كذلك ، بشرط الا يتعرضا للفاقة أو الضياع بخروجه .

١٠ - وللزوجة ان تخرج بغير اذن زوجها اذا ابى زوجها ان يعلمها ما افترض الشارع عليها من علم .

١١ - وللرقيق ان يفعل مثل ذلك بدون اذن السيد في مثل تلك الحالة .

١٢ - ونفقة طالب العلم واجبة على أبيه المؤسر - ولو كان الطالب قادرا على الكسب - كنفقة اللباس والطعام والسكنى وغير ذلك بالنسبة للأولاد الصغار .

١٣ - وكتب العلم لأصحابها من طلاب وعلماء هي من الحوائج الضرورية كالدار والطعام واللباس وأثاث البيت وآلة العمل ، فلا تدخل قيمتها في نصاب الزكاة الواجبة .

١٤ - وكذلك لا تعتبر قيمتها - ولو بلغت الآلاف - بحيث يعتبر صاحبها ممن يجوز له أخذ الزكاة .

١٥ - ولا تلزمه صدقة الفطر اذا كان لا يملك غير كتبه مهما بلغت قيمتها .

١٦ - ولا يلزمه بيعها لاداء فريضة الحج اذا كان لا يملك من المال ما يكفي لنفقات الحج .

١٧ - واذا لزمه الدين وحكم بافلاسه ، تترك للعالم كتب العلم . (١).

قال العزالي رحمة الله في حكم كتب العلم : وحكم الكتاب حكم الثوب وأثاث البيت فإنه يحتاج اليه ، ثم فصل القول في ذلك فقرر أن الكتاب الذي يلزم العالم للتدريس سواء للاكتساب أو لتعليم ماهو فرض كفاية فهو من الحوائج الاصلية التي لا يستغنى عنها (٢) .

وقال ابن عابدين رحمه الله في بيان أن كتب العلم للعالم من الحوائج الاصلية : لان الجهل عندهم - أي العلماء - كالهلاك (٣) .

### العلم حق للجميع

وغنى عن البيان أن الاسلام يجعل حق العلم ثابتا للجميع بلا استثناء بين الرجل والمرأة ، أو بين الغنى والفقر ، أو بين ابن الأمير وابن العامل أو بين ابن المدينة وابن القرية فالكل يشتركون في هذا الحق .

(١) الاشياء والنظائر للسيوطي ٢٧٥ وفي هذا الفرع الاتير خلاف للاجهاد الجنفى .

(٢) رد المحتار : ٦٢

(٣) انظر الاحياء : ١-٢٢١

## أثر هذا الحق في البيئة الإسلامية :

وقد كان لتقرير الاسلام في هذا الحق الثابت لجميع الناس آثار بعيدة في المجتمع الاسلامي ، نذكر منها :

١ - ان العلم كان يشمل جميع الفئات ، حيث كان يبدأ من الفرد ثم يعم الأسرة ، فقد جاء في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم « كنكم راع وكلكم مسئول عن رعيته . . والرجل راع في أهله وهو مسئول عن رعيته (١) » الخ .

ومسئولية الرجل عن أهله تشمل تأديب أولاده وتعليم زوجته ، وهدايتهم الى سبل الخير والصلاح .  
قال علي رضي الله عنه في تفسير قوله تعالى « قوا أنفسكم وأهليكم نارا » علموا أهليكم الخير (٢) .

٢ - ان العلم كان مشاعا في المجتمع ميسرا لكل انسان : في المسجد وفي المدرسة ، وفي الحلقات العلمية ، وفي المكتبات العامة ، فلم يعرف المجتمع الاسلامي « ارسطراطية » العلم ، أو انحصاره في فئة معينة ، كما كان محصورا في رجال الدين عند أكثر الأمم القديمة وخاصة عند الغربيين حتى عصر النهضة .

٣ - وبذلك سارت الحضارة والعلم مع الدين جنباً الى جنب في تاريخ الحضارة الاسلامية ، حتى اعترف بعض مؤرخي الغرب بأن مديونة قرطبة في ابان ازدهارها كانت تحتوى على مليونى نسمة ليس فيهم امي واحد (٣) .

٤ - وبعد أفول شمس الحضارة الاسلامية ، لم تقف حركة العلم ، بل استمرت - ولو في نطاق ضيق - حتى عصر نهضتنا الحاضرة ، ونعني بذلك استمرار اقبال الناس على العلوم الشرعية خاصة من تفسير وحديث وفقه وأصول عقيدة وغيرها ، وعلى العلوم الادبية كاللغة والأدب والتاريخ وسواها ، وبعض العلوم الرياضية كالحساب والفلك والهندسة .

لقد استمرت المساجد والمدارس والمكتبات تؤدي رسالتها في نشر هذه العلوم . ونشير هنا بصورة خاصة الى علم الفقه . فالحقل الاسلامي رغم ركوده بعد عصور الحضارة الاسلامية الزاهرة لم ينقطع عن التفكير في التشريع ، في ائنة بيئة اسلامية كانت ، سواء في العواصم أو القرى ، وسواء في مراكز الحضارة أو الاماكن النائية ، كاليمن أو نجد أو حضرموت أو أواسط افريقيا ، لم تنقطع أبدا حركة التأليف في الفقه على مختلف المذاهب ، وبذلك أصبح الفقه الاسلامي ثروة نامية لامثيل لها في أمة من أمم العالم .

ومن هنا نلمس مكانة العلم في اشتراكية الاسلام وضرورته واثره في تحقيقها حتى في عصور التخلف والانحطاط .

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما . (٢) رواه الحاكم .

(٣) انظر ذلك موسعا في كتابنا « من دوائج حضارتنا » .

## حق الكرامة

يقول الله تعالى : « ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا (١) » .

هذه الآية نص صريح في أن الإنسان أكرم من كل شيء على ظهر الأرض ؛ وأن الكرامة حق لكل إنسان ، وأن كرامته ملازمة لأنسانيته فإذا حرم هذه الكرامة لم يكن المجتمع الذي يعيش فيه مجتمعا متماسكا سعيدا .

وللكرامة مظاهر متعددة ، تتحقق بمجموعها الكرامة الكاملة ، وإذا فقد مظهر منها كانت كرامة الإنسان مثلومة ، وكانت سعادته مشوهة بتراءء

ونذكر فيما يلي أهم مظاهر الكرامة :

### ١ - كرامة الإخاء الإنساني

« الإنسان أخ للإنسان » هذا أول مظهر من مظاهر الكرامة ، وذلك واضح من نص الآية التي صدرنا بها هذا البحث ، فإن الكرامة فيها تثبت « لبني آدم » أي بقطع النظر عن ألوانهم وأصولهم ولغاتهم وأديانهم » .

قال الألوسي رحمه الله في تفسير هذه الآية : « أي جعلناهم قاطبة برهم وفاجرهم ذوي كرم أي شرف ومحاسن (٢) ونرى أن لفظ «كرّمنا» من الكرامة لا من الكرم » .

وانك لتري هذا المعنى يتكرر كثيرا في القرآن الكريم ، إذ جاء الخطاب فيه للناس مصدرا بقوله : « يا بني آدم » « يا أيها الناس » مما يشعر بتساوي الناس جميعا في هذه الأخوة (الإنسانية) .

ويقول تعالى « يا أيها الناس أنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » (٣) .

ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام في خطبته الخالدة في حجة الوداع : « يا أيها الناس أن ربكم واحد ، وأن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب » (٤) .

فليس في الإسلام إنسان أبيض أكرم من إنسان أسود ، ولا فيه إنسان من قبيلة أكرم من إنسان من قبيلة أخرى ، ولا فيه إنسان غربي أكرم من إنسان شرقي ، كما تنادى بذلك الحضارة الغربية في أعمال دولها الاستعمارية .

(٢) روح المعاني : ١٥-١١٧

(٤) رواه البزار

(١) الإسراء : ٧٠

(٣) الحجرات : ١٣



بهذا ضمن الإسلام تعاون المجتمع مع تعدد فئاته ، وتفاوت أحوال أبنائه ، وتساوهم جميعاً في الواجبات الاجتماعية والكرامة الإنسانية ، فليس في الإسلام رجال دين لا يخضعون للقانون ، وليس فيه أشرف لا يؤدون عملاً ، وليس فيه أمراء لا تطولهم سلطة الدولة ، وليس فيه أغنياء لا يدفعون ضريبة ولا يبذلون جهداً ، وليس فيه أذكىاء يدعون لهم حقاً في استغلال « البلاداء » ! بل الكل شعب واحد وقانون واحد رئيس يخدم الشعب ، وشعب يؤازر رئيسه ويطيعه ، وشعار الحكم فيه ما أعلنه أبو بكر رضي الله عنه يوم ولي الخلافة « أنى وليت عليكم ولست بخيركم ، القوى فيكم ضعيف عندي حتى آخذ منه الحق ، والضعيف فيكم قوى عندي حتى آخذ له الحق » .

### ج - كرامة العدالة القضائية :

ان النص على كرامة المساواة الحقوقية لا يحقق للإنسان تمتعه بتلك الكرامة حتى يضمن له القضاء تنفيذها ، وهنا يأتي دور القضاء بعد دور التشريع ، ولا يتمكن القضاء من القيام بواجبه هذا حتى يحقق العدالة لكل مواطن في الأمور التالية :

أولاً - أن يستمع إلى شكوى المواطنين من عدم تحقق كرامة المساواة في الحقوق بينهم وبين ذوى الجاه والنفوذ من أغنياء وأقوياء ، فيستمع إلى الشكوى ويطلب إلى هؤلاء حضورهم إلى مجلس القضاء ، فإن لم يستمع إلى الشكوى رغبة أو رهبة . غدت كرامة المساواة التي أقرها القانون مهزلة من عوامل اضطراب المجتمع .

ثانياً - أن يتمتع المواطن بالعدالة في الإجراءات القضائية ، فيسوى بينه وبين خصمه في طريقة استدعاء الطرفين والاستماع إليهما ، وتمكينهما من ابداء الرأي بحرية تامة من غير تمييز بين الفقير والغنى ، أو بين الضعيف والقوى ، أو بين المغمور وذى الجاه والنفوذ .

ثالثاً - أن يحكم بما نص عليه القانون من كرامة المساواة الحقوقية بكل جراءة وعدالة ، فلا يفرق القاضى بين بعيد عنه وبين قريب منه ، ولا بين حاكم يخشى غضبه وبين رجل من عامة الناس .

بهذه الأمور الثلاثة تتحقق عدالة القضاء ، فتتحقق كرامة المساواة وبذلك يسعد المجتمع وتقوم فيه الاشتراكية التي ينادى بها الإسلام .

وقد جاءت نصوص الشريعة واضحة صريحة في ضرورة تحقيق هذه الأمور :

قال الله تعالى : « ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل (١) » .  
وقال : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين (٢) » .

(٢) النساء : ١٣٥

(١) النساء : ٥٨

وقال : « ولايجرمكم شتان ( عداء ) قوم إلا تعدلوا ، اعدلوا هو اقرب للتقوى » (١) .

وقال : « فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب » (٢) .

وقال صلى الله عليه وسلم « أيها الناس ! انما اهلك الذين من قبلكم انهم كانوا اذا سرق فيهم الشريف تركوه ، واذا سرق فيهم الضعيف اقاموا عليه الحد وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » (٣) .

وقال أيضا «القضاة ثلاثة : واحد في الجنة واثنان في النار ، فأما الذي في الجنة فرجل عرف الحق فقضى به ، ورجل عرف الحق فجار في الحكم فهو في النار ، ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار » (٤) .

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول «ما من أمير أمر أميرا أو استقضى قاضيا محاباة الا كان عليه نصف ما اكتسب من الاثم » (٥)

وجاء في كتابه الى أبى موسى - وهو الكتاب المشهور بين العلماء والذي وضع فيه عمر رضى الله عنه أسس القضاء في الاسلام - قوله :

فافهم اذا أدلى اليك فانه لاينفع تكلم بحق لانفاذ له - وهذا تحريض منه على العلم بالحق والقوة على تنفيذه .

اعدل بين الناس في مجلسك وفي وجهك وقضائك ، حتى لايطمع شريف في حيفك ، ولا يياس ضعيف من عدلك .

واياك والغضب والقلق والضجر والتأذى بالناس والتنكر عند الخصومة (٦) .

قال ابن القيم رحمه الله في شرح هذا الموضع من الكتاب :

« اذا عدل الحاكم في هذا بين الخصمين فهو عنوان عدله في الحكم فمتى خص أحد الخصمين بالدخول عليه أو القيام له أو بصدر المجلس والاقبال عليه والبشاشة له والنظر اليه كان عنوان حيفه وظلمه . وفي تخصيص أحد الخصمين بمجلس أو اقبال أو اكرام مفسدتان : احدهما طمعه في أن تكون الحكومة له فيقوى قلبه وجنانه ، والثانية ان الآخر يياس من عدله ويضعف قلبه وتنكر حجته (٧) » وأية كرامة لياأس ضعيف لا يستطيع الابانة عن حقه ؟

(١) المائدة : ٨

(٢) سورة ص : ٢٦

(٣) رواه البخارى ومسلم وأصحاب السنن الاربعة .

(٤) رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه .

(٥) تاريخ القضاء والقضاة في الاسلام للشيخ محمود عروس .

(٦) انظره كاملا في اعلام الموقعين : ١-٦١

(٦) المصدر السابق : ٨٠-٦٥



وهكذا تحرص اشتراكية الاسلام على تحقيق الكرامة في ميدان القضاء بتحقيق العدالة في القضاء ومراحلها .

وفي تاريخ القضاء في الاسلام صفحات مشرقة في تحقيق العدالة بين المتخاصمين ، وخاصة اذا كان المدعى عليه أمراؤ المؤمنين أو وزيراً خطيراً أو منفذاً شريفاً ، مما تميز به القضاء الاسلامي عن تاريخ القضاء في جميع الأمم قديماً وحديثاً .

#### د - كرامة العدالة الاجتماعية :

لاكرامة للجائع ولا للمريض ولا للفقير في مجتمع تطفئ فيه القسوة والاثرة والاهمال على الرحمة والايثار والعناية بأولئك البؤساء من أبناء المجتمع .

ومن هنا يأتي دور التكافل الاجتماعي في تحقيق العدالة الاجتماعية للفئات التي تجعلها ظروف الحياة في أوضاع تعجز فيها عن العيش بمظهر كريم يحفظ لها انسانيته الكريمة بلا مهانة ولا تعاسة ولا شقاء . وقد أهتم الاسلام بتحقيق هذا المظهر من مظاهر الكرامة بما سنذكره في الأبحاث التالية من مبادئ التملك وقوانين التكافل الاجتماعي في اشتراكية الاسلام .

#### هـ - كرامة المنزل الاجتماعية :

وهذه من مظاهر الكرامة الانسانية الحقيقية ، وهي أن يعيش الانسان في مجتمعه موفور الحزمة ، مصون المنزلة ، ولهذه الكرامة مظهران ايجابي وسلبي .

أما المظهر الايجابي ففي مشاركته في أفراحه وأتراحه : ومعاونته في مشاكله الخاصة ، واحترامه في جواره وصداقته ، وحفظه في حضوره وغيبته ، ومن ذلك : السلام عليه عند اللقاء ، وعيادته عند المرض ، ومواساته في حزنه على فقد قريب أو صديق ، وأبرار قسمه اذا أقسم واجابته اذا دعا ، ونصحه اذا زل أو أخطأ ، والاشارة عليه بالخير اذا استشعر ، ونصرته اذا ظلم أو اعتدى عليه .

وأما المظهر السلبي ففي البعد عن ايدائه بالقول والخطاب واليد والمعاملة ، وفي اجتناب التحدث عنه بما يكره في غيابه ، والسعي بينه وبين الناس بالنميمة والكذب ، وعدم الازدراء به واحتقاره وانتقاصه حقه من التقدير والاحترام .

وقد حرص الاسلام على توفير هذه الكرامة في نصوص كثيرة جدامن القرآن والسنة لم تترك خلقاً جميلاً مما تتحقق به كرامة الفرد في المجتمع الا حثت عليه ، وكررت النهي عن الاساءة اليه بمختلف مظاهر الاساءة .

ونكتفي هنا بإيراد النص الذي يضع المبدأ العام في كرامة المنزل الاجتماعية بمظهرها الايجابي .

قال صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لاختيه ما يجب لنفسه ( ١ ) » .

(١) رواه اصحاب الكتب الستة والامام احمد

وبنصين آخرين يحتويان على النهى عما يهدر كرامة المنزل الاجتماعية من الجانب السلبي .

قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم ينب فأولئك هم الظالمون ، يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن أن بعض الظن اثم ولا تجسسوا . ولا يفتب بعضكم بعضا يجب أحذكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله أن الله تواب رحيم . يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا أن أكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليم خبير ( ١ ) » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « ألا أخبركم بالمؤمن ؟ المؤمن من آمنه الناس على أموالهم وأنفسهم ، والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ( ٢ ) » .

وليس لفظ « المسلمون » في هذا الحديث قيذا لباحة الاعتداء على غير المسلم ، بل هو خارج مخرج العادة في حديث النبي صلى الله عليه وسلم إلى صحابته ، بدليل الشطر الاول من الحديث من لفظ « الناس » ومن الجدير بالذكر أن اشتراكية الاسلام تثبت هذه الكرامة للانسان بعد موته كما تثبتها له حال حياته .

فقد اتفق الفقهاء على حرمة اغتيااب الميت بقصد الاساءة . عملا بقوله صلى الله عليه وسلم « اذكروا محاسن موتاكم وكفوا عن مساويهم ( ٣ ) » .

وانفقوا على حرمة نبش قبره أو التمثيل به أو قطع جزء من أعضائه ، مع أنه فارق الحياة فلا يشعر بالألم وما ذلك الا للقاعدة الشرعية « حرمة الانسان ميتا كحرمة حيا » .

وغسل الميت وتكفينه والصلاة عليه ودفنه في قبره ، كل ذلك من مظاهر التكريم للانسان بعد وفاته كما لا يخفى .

## ( و ) كرامة السمعة العائلية :

وهذه من أبرز مظاهر الكرامة في جميع الشرائع والعادات ، وتتجلى هذه الكرامة في مظهرين :

١ - في سمعة الانسان في أسرته . وذلك بتحريم الزنى تحريما شديدا وعقوبته البالغة في العذاب والنكال .

٢ - في سمعة الانسان نفسه ، وذلك بتحريم اتهام انسان بالزنى سواء كان رجلا أو امرأة وقد وضع الشارع لذلك عقوبة الجلد حتى

(١) المجرات : ١١-١٣

(٢) أخرجه الطبراني والحاكم وابن ماجه

(٣) رواه ابو داود والترمذي والحاكم

وعندهم .

يأتى القاذف بأربعة شهداء يشهدون بارتكابه تلك الجريمة ، وهيئات  
وفى ذلك جاء القرآن الكريم : « والذين يرمون المحصنات ثم لم  
يأتوا بأربعة شهداء فأجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا  
وأولئك هم الفاسقون الا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فان الله  
غفور رحيم ( ١ ) » .

« ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب اليم  
فى الدنيا والاخرة والله يعلم ولأنتم لا تعلمون ( ٢ ) » .

« ان الذين يرمون المحصنات الفافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا  
والاخرة ولهم عذاب عظيم ( ٣ ) » .

---

(٢) أيضا : ١٩

(١) سورة النور : ٥٤

(٣) أيضا : ٣٣

## حق التملك

حين يقرر الاسلام لكل انسان حق الحياة وحق الحرية وحق العلم وحق الكرامة ، وحين يقرر مع هذا أن ما في الكون مسخر للناس جميعا « الله سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ، وسخر لكم ما في السموات وما في الارض جميعا منه ( ١ ) » حين يقرر الاسلام هذا كله انما يقرر حقا خامسا لكل انسان وهو حق التملك ، ففي جو الحياة الحرة العالة الكريمة يندفع الناس الى العمل ليكسبوا ما به قوام حياتهم ومعيشتهم ، لا يوصد باب العمل دون واحد منهم . ولا تستأثر بخيرات الدنيا فئة منهم ، لكل انسان من الدنيا بحسب طاقته وجهده ، وكفاءته « وان ليس للانسان الا ما سعى (٢) » فاذا حاز شيئا منها كانت هذه الحيازة حقا لا ينازع فيه ولا يقبل عليه .

### القوانين المنظمة لهذه الحقوق :

وحين تقرر اشتراكية الاسلام هذه الحقوق الطبيعية الخمسة لكل انسان ، تشرع له القوانين التي تنظم كل حق من هذه الحقوق وتضمن تأمينها لكل انسان على أكمل وجه وأتمه ، ومن هنا جاء في الاسلام القانون الجنائي والقانون الصحي لتنظيم حق الحياة ، وقوانين الحكم والتوجيه الاجتماعي والقانون الدولي لتنظيم حق الحرية ، وقوانين التعليم والتربية لتنظيم حق العلم ، وقوانين متعددة لتنظيم حق الكرامة وقوانين المعاملات من بيع ورهن وإيجار وغير ذلك لتنظيم حق التملك ، كما شرعت العقوبات المتنوعة لكل من يعتدى على حق من هذه الحقوق ، والمراد بالقانون مجموعة الاحكام المتعلقة بموضوع واحد (٣) .

وكان من المناسب أن أعرض في هذا البحث قوانين التملك ، الا أن عرض هذه القوانين يحتاج الى مجلدات ضخمة لانها تشمل كل أحكام المعاملات في الفقه الاسلامي ، وهذه الاحكام تكاد تبلغ تسعة أعشار الفقه ، ولعل بعض فقهاء الشريعة ممن تمكنهم حالتهم الصحية ويمد الله في حياتهم أن ينهضوا بعبء أخراج هذه القوانين بأسلوب سهل يفهمه جمهور المثقفين ، تتم بها سلسلة قوانين الاشتراكية الاسلامية وسأكتفى الآن بالإشارة الى المبادئ التي تقوم عليها قوانين التملك في اشتراكية الاسلام لان ذلك أمس بالموضوع الذي نتحدث عنه .

(٢) النجم : ٣٩

(١) الجانية : ١٢-١٣

(٣) استعمله فقهاؤنا الاقدمون بهذا المعنى، فابن جزى الف كتابا في الاحكام الفقهية على مذهب مالك باسم « الوائين الفقهية » وكذلك استعمله القاضي أبو يعلى في كتابه « الاحكام السلطانية » انظر ص : ٢١ ، ٣٢ ، وكذلك استعمله الغزالي في احياء علوم الدين

مبادىء التحليڪ



## ١ - الكون كله لله :

قال تعالى : « الله ملك السموات والارض (١) » « الله مافى السموات ومافى الارض (٢) » وهكذا تتوارد نفسوس القرآن على أن كل مافى الكون من اموال ومنافع وارض وبحار وشموس وأفمار ملك لله لاينازعه فيه احد ، وليست لهذه الملكية نتائج حقوقيه ، وانما هى لتحقيق شروضين ضروريين فى هذا الصدد :

أولهما : نفى الفرور عن قلوب الناس حين يحوزن الاموال ويسمعون وراء الشروة ، والفرور مبدأ شرور الحياة فى المجتمع ، فاذا تذكر المؤمن دائما أن مالك الملك هو الله وحده تطامنت نفسه وقل غروره .  
ثانيهما : أن يلزم الناس بالتقيد بقوانين الشريعة فى النملك طبقا لما يريد صاحب الملك وهو الله عز وجل .

## ٢ - الكون مسخر للانسان :

قال تعالى : « وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره ، وسخر لكم الانهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار (٣) » « سخر لكم ما فى الارض (٤) » « وسخر لكم ما فى السموات (٥) » قال علماء اللغة : « السخرة ماسخرت من خادما اودابة بلا أجر ولا ثمن ، وسخرته فى العمل استعملته مجانا ، وسخر الله الابل ذلها وسهلها » .

هذا المبدأ - مبدأ تسخير الكون للناس - يؤدى غرضين مهمين أيضا :

أولهما : أنه ليس فى الكون شىء لا يصعب على الانسان تناوله ، اذا عمل عقله وعلمه . ووجه لذلك همه وارادته ، فما على الانسان بعد أن ذل الله له الكون الا أن يجتهد فى الانتفاع منه واستثمار خيراته .

ثانيهما : أن الناس متساوون جميعا فى الاستفادة من خيرات الارض والسماء ، مادام الخطاب للناس جميعا ، والله قد بذلها لهم من غير ثمن وذللها لهم من غير تمييز بين فئة وفئة أو أمة وأمة .

## ٣ - المال وسيلة للخير :

ليس المال غاية فى ذاته ، وانما هو وسيلة من وسائل تبادل المنافع وقضاء الحوائج . فمن استعمله فى هذا السبيل كان المال فى يده خيرا له وللمجتمع ، ومن استعمله على أنه غاية والمدة ، انقلب الى شهوة تورث صاحبه المهالك ، وتفتح على الناس أبوابا من الفساد .

(٢) البقرة : ٢٨٤

(٤) الحج : ٦٥

(١) الشورى : ٤٩

(٣) ابراهيم : ٣٢ ، ٣٣

(٥) الجاثية : ١٣

وللاشارة الى هذا المبدأ الخطير من مبادئ التملك ، عبر القرآن عن المسال بالخير في مثل قوله تعالى . « تب عليكم - اذا حصر احدكم الموت - ان ترك خيرا الوصيه للوالدين والاقرين بالمعروف » (١) قال المعسرون المراد بالخير هنا المال ، وهذا بلا شك تنبيه الى وجوب الحصول على المال من طريق الخير ، واستعماله في طريق الخير ، وبوصفه خيرا رغب الاسلام في تملكه « نعم المال الصالح للرجل الصالح (٢) » والمال الصالح هو الذى لم يجمع من طريق فيه ظلم ولا خداع ، والرجل الصالح هو الذى ينفق ماله في سبيل الخير والصالح

ويشير القرآن الى ان الناس - في الاكثر الاغلب - ينظرون الى المال على انه شهوة « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطر المقنطرة من الذهب والفضة » (٣) وبهذا الوصف يكرهه الاسلام وهو بهذا سبب شقاء الامم والشعوب .

#### ٤ - الفقر مرض اجتماعي :

اذا كانت خيرات الارض في متناول الناس جميعا ، وكان كل انسان قد قدر الله له من خيرات الكون رزقا ونصيبا « وما من دابة في الارض الا على الله رزقها » (٤) وكان المال وسيلة الى الخير وتيسيرا لمنافع الناس ، كان من واجب الانسان ان يسعى ليكتسب ويحصل على المال ولا عذر لاحد في ترك العمل بحجة ان الله قد كتب عليه الفقر او انه غير محظوظ او ان ظروف الحياة اقسائية تقف عقبة كاداء في وجهه دون السعى والعمل . فالفقر في الاصل مرض اجتماعي وليس قدرا مقدورا لا حيلة في دفعه بسعى او كسب . لقد امر القرآن بالسعى في الارض « هو الذى جعل لكم الارض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه » (٥) فلا يكون الفقر بعد ذلك الا لاحد امرين . اما كسل وخمول ، وهذا لا يقره الاسلام . واما لعجز عن العمل . ومثل هذا الفقر هو الذى لا حيلة للانسان في دفعه وهو الذى وضع له الاسلام من قوانين التكافل الاجتماعى ما يدفع بؤسه ، ويحفظ للفقر كرامته .

ومما يدل على نفرة الشريعة من الفقر ، قوله عليه الصلاة والسلام : « كاد الفقر ان يكون كفرا » (٦) وكان من دعائه عليه السلام . « اللهم انى اعوذ بك من العجز والكسل والجبن والبخل واعوذ بك من الفقر والكفر والفسوق ، واعوذ بك من الصمم والبكم والجنون وسوء الاسقام » (٧) وفي دعاء آخر للرسول عليه السلام : « اللهم انى اسالك الهدى والتقى والعفاف والفنى » (٨) وهذا انتقال من موقف السلبية تجاه الفقر الى الايجابية من عكسه وهو الفنى . وان في طلب الرسول للفنى وهو قدوة الزهاد في الدنيا ، لدلالة بعيدة الاثر في هذا المقام .

(٢) رواه البخارى في الادب المفرد : ٨٤

(٤) هود : ٦

(٦) رواه ابو نعيم في الحلية

(٨) رواه مسلم والنرمذى وابن ماجه

(١) البقرة : ٢٨٠

(٣) آل عمران : ١٤

(٥) الملك : ١٥

(٦) رواه الحاكم والبيهقى



## ٥ - العمل أهم وسائل التملك :

لتملك المال وسائل من أهمها في نظر الاسلام العمل « أطيب الكسب عمل الرجل بيده (١) » ولا يجوز لاحد ان يسأل الناس وهو قادر على الكسب . وبذلك كان العمل في الاسلام شرفا وواجبا .

## ٦ - تأميم المواد الضرورية :

ثبت في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « الناس شركاء في ثلاث : الماء ، والكلا ، والنار » (٢) وفي حديث آخر « والملح » ويلاحظ أن هذه الاشياء مواد ضرورية لحياة الناس وخاصة سكان الصحراء في تلك العهود ، وليس النص على هذه الاشياء للحصر ، بل قواعد الشريعة تقضي بان كل ماكان مثل هذه المواد ضروريا للمجتمع لا يصح أن يترك تملكه لفرد أو افراد اذا كان ينشأ عن احتكارهم له استغلال حاجة الجمهور اليه ، بل يجب أن تشرف الدولة على استثماره وتوزيعه على الجمهور .

## ٧ - طرق التملك :

يسمح الاسلام بالتملك عن طريقين رئيسيين :

( أ ) عن طريق الهبة والوصية والارث مما لاسمى للانسان فيه وهو طريق مشروع للتملك في جميع الشرائع والمذاهب الاقتصادية ماعدا الشيوعية التي كانت تنكر التملك عن طريق الارث ثم عادت فسمحت به (٣)

(ب) عن طريق السعى والاكتساب ، والاسلام يسمح بكل طريق يسلكه الانسان للتملك الا ماكان عن الطرق التالية :

١ - الظلم ، ولذلك حرم الاسلام الربا والقمار والاحتكار والفصب والسرقة وما أشبه ذلك .

٢ - الغش ، ولذلك حرم الاسلام التفرير عند البيع ، كما حرم اخفاء العيب في السلعة والكذب في رأس المال ، وغير ذلك من البيوع والعقود المحرمة التي يقع فيها الغش والخداع .

٣ - الاضرار ، سواء كان اضرارا بالفرد ، أو اضرارا بالمجتمع ، أو اضرارا بكيان الدولة العام ، ولذلك حرم الاسلام أجر البغي ، والانجاس بالخمر ، والاتجار مع العدو ، وهكذا .

## ٨ - التحذير على الاستغناء :

يحتم الاسلام أن ينفق الانسان من ماله على نفسه في حدود الاعتدال لا سرف ولا تقتير « وكلاوا واشربوا ولا تسرفوا (٤) » فان بذر وأخذ

(٢) رواه احمد وابو داود

(١) رواه احمد والحاكم

(٣) نافقنا الشيوعية في انكارها لمشروعية الارث في مقدمة الجزء الثاني من كتابنا شرح

(٤) الاعراف : ٣٦

تانون الاحوال الشخصية .

في تبديد ثروته على أهوائه وملذاته بما ينكره الشرع والعقل وحبس الحجر عليه لأنه سفيه ، والحجر هو منع الدولة لهذا السفيه أن يتصرف في ماله كالغفلاء الراشدين : وإقامة قيم عليه يمنعه من التصرف حتى يفىء الى رشده (١) وأصل هذا قوله تعالى : « ولا توثقوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً (٢) ويلاحظ في هذه الآية إضافة أموال السفهاء الى المجتمع ( أموالكم ) ثم وصفها بأن المجتمع قيم عليها ( التي جعل الله لكم قياماً ) وهذا دليل واضح على ما نقرره في المبدأ التالي من أن التملك وظيفة اجتماعية .

## ٩ - التملك وظيفة اجتماعية :

كما يفرض الاسلام رعاية مصلحة المجتمع عند تملك المال ، يعرض رعاية مصلحة المجتمع أيضاً بعد التملك ، لان المال لله ، والانسان مؤتمن عليه « وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » (٣) فيد المالك يد استخلاف ، والله جعل المال وسيلة للخير . فلا يصح أن يستعمل الا في الخير أى مصلحة المجتمع ، وبذلك تكون الملكية الشخصية - في نظر الاسلام - وظيفة اجتماعية .

## ١٠ - كراهية تكديس الثروات :

يكره الاسلام تكديس الثروات في أيدي قليلة في المجتمع لما يؤدي اليه ذلك من ترف وفساد واستغلال ، يقول الله تعالى في وجوب اعطاء الفقراء نصيباً من الغنائم « كيلا يكون دولة بين الاغنياء منكم » (٤) .

ولما جرى الخلاف بين الصحابة في تقسيم أراض العراق والشام على الفاتحين في عهد عمر . كان رأيه عدم تقسيمها . وابقاها في أيدي المغلوبين على أن يكون عليهم خراجها . ووافق على ذلك بعض الصحابة ومنهم معاذ بن جبل الذي قال لعمر « انك ان قسمتها صار السريع العظيم في أيدي هؤلاء القوم ، ثم يبيدون فيصير ذلك الى الرجل الواحد او المرأة (٥) » أى وبذلك يقع ماكرهه الاسلام من تكديس الثروات في أيدي قليلة كما تدل عليه الآية المذكورة .

## ١١ - الملكية المشروعة مصونة :

فإذا جمع المال من الطريق المشروع ، وأنفق منه صاحبه بالاعتدال كان مابقى منه في يد صاحبه مصوناً تحميه الدولة وقوانينها . وعلى المجتمع أن يحترم ملكيته لذلك المال « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل »

(١) أما التعريف الاصطلاحي للحجر فهو « منح شخص مخصوص عن تصرفه القولى » (المادة ٩٤١ من المجلة ) والذين يحجر عليهم بالاتفاق هم الصغير والمجنون والمعتوه والسفيه وجاء تعريف السفيه في المجلة ( مادة ٩٤٦ ) : هو الذى يصرف ماله فى غير موضعه ويسلته فى مصارفه ويضيع أمواله ويتلفها بالاسراف الخ . . .

(٢) النساء : • (٣) الحديد : ٧

(٤) الحشر : ٧ (٥) الاموال لالى عبيد . ص ٥٩

(٦) البقرة : ١٧٨

ولا تمسه الدولة الا لحق الشعب وضرورات المجتمع كما سيأتى .

## ١٢ - وجانب التكافل الاجتماعى

ومع احترام الاسلام للملكية الشخصية . فقد جعل فى الثروات الخاصة حقوقا للشعب تأخذها الدولة من تلك الثروات . لتحقيق التكافل الاجتماعى وغيره مما تحتاجه الدولة . ولذلك جاءت فريضة الزكاة وغيرها مما سنظمه بعد عند بحث قوانين التكافل الاجتماعى .

## ١٣ - مشروعية الارث

اذا بقى لدى صاحب المال شئ فائض عن حاجة صاحبه وحاجة المجتمع . ثم أدركه الموت فقد انتقلت ملكية ذلك المال الى ورثته . وهنا يجىء قانون الارث مبينا كيفية تقسيم هذا المال بين الورثة . ويلاحظ على قانون الارث فى الاسلام انه يشرك عددا كبيرا من اقرباء الميت فى التركة . ولا يحصره فى طبقة معينة منها كما هو شأن أنظمة الارث فى أكثر شرائع العالم . وهذا مما يؤدى حتما الى تفتيت الثروات مهما كانت كبيرة وتقسيمها الى ملكيات صغيرة (١) .

## ١٤ - حق الخزانة العامة

واذا مات المالك عن غير وارث انتقلت ملكية المال الى الدولة وكان من موارد بيت المال التى تنفق لتحقيق التكافل الاجتماعى . هذه هى مبادئ التملك فى اشتراكية الاسلام . ولا يخرج نوع من أنواع التملك المشروع عن هذه المبادئ .

ولما كانت هنالك أبحاث خاصة ببعض وسائل التملك التى لها علاقة باشتراكية الاسلام فقد أفردنا لها الأبحاث التالية :

(١) بينا خصائص الارث الإسلامى فى كتاب « مشروعية الارث واحكامه فى الاسلام » .



- ٣ -

## أبحاث حول حق التملك

- ١ - احياء الموات
- ٢ - الاقطاع
- ٣ - حقوق العمال
- ٤ - التأمين
- ٥ - تحديد الملكية

## أحياء الموات

يفهم الفقهاء الأرض من حيث الملكية والانتفاع بها إلى أربعة أقسام رئيسية (١) .

الأول : أرض مملوكة عامرة : ويعنون بالأرض العامرة هي التي ينتفع بها من سكنى أو زراعة أو غيرها . وحكم هذا النوع من الأرض أنه ملك لصاحبه لا يجوز لأحد أن ينتفع منه بشيء إلا بإذنه ، ولا يؤخذ منه إلا برضاه ، فيما عدا الحالات التي تقتضيها مصلحة الدولة والمجتمع وسندكر ذلك في التحديد والتأميم .

الثاني : أرض مملوكة غير عامرة : ويعنون بها الأرض الخراب التي انقطع مأواها أو لم تستغل بسكنى أو استثمار أو غير ذلك .

وحكم هذه أنها تبقى على ملك صاحبها كالسابق ، وتورث وتباع بقية الأراضي العامرة .

الثالث : أرض من المرافق العامة للناس ، كالأرض التي تكون لاهل القرية مرعى لدوابهم ، ومحتطبا لهم أو مقبرة لموتاهم . وهذه لا يملكها أحد بل تكون منفعتها للجميع .

الرابع : أرض خراب لا يملكها أحد ولا ينتفع بها أحد وهذه هي التي تسمى « الموات » .

### تعريف الموات :

وعلى ذلك فيكون تعريف « الموات » كما ذكره الفقهاء :

هو أرض خارج البلد لم تكن ملكا لأحد ولا حقا له خاصا .

فلا يكون من أرض الموات :

١ - الأرض التي تكون داخل البلد ولو كانت خربة .

٢ - والأرض التي تكون خارج البلد ولكنها من المرافق العامة لاهل المنطقة المجاورة لها .

٣ - والارض التى تكون فيها المعادن . وفد مثل الفقهاء الاقدمون لذلك بالملح والقار والنفط وما أشبهه مما لا يستغنى عنه الناس .

**هل يشترط أن تكون بعيدا عن العمران ؟**

فى ظاهر مذهب الحنيفة : أنه لا يشترط .

وقال الطحاوى : هو شرط وما قرب من العامر فليس بموات .

وقال الشافعى : الموات كل ما لم يكن عامرا ولا حريما لعامر (١) .

**ما هو احياء الموات ؟**

احياء الارض الموات يكون بحلب الماء لها ان كانت خالية من الماء او بتجفيفها ان كانت مغمورة بالماء او بزراعتها او بالبناء فيها او بكل شئ يجعلها صالحة للاستثمار بعد أن كانت معطلة .

قال الماوردى : وصفة الاحياء معتبرة بالعرف فيما يراد له الاحياء لان رسول الله صلى الله عليه وسلم اطلق ذكره احالة على العرف الممهور فيه ، فان اراد احياء الموات للسكنى كان احياءه بالبناء والتسقيف ، لانه اول كمال العمارة التى يمكن سكنها ، وان اراد آجاءه للزراع والغرس اعتبر فيه ثلاثة شروط .

احدهما : جمع التراب المحيط بالارض حتى يصير حاجزا بينها وبين غيرها .

والثانى : سوق الماء اليها ان كانت يسا وحسه عنها ان كانت بطائح (٢) ، لان احياء اليبس بسوق الماء اليه . واحياء البطائح بحبس الماء عنها حتى يتمكن زرعها وغرسها فى الحالين

والثالث : حرثها : والحرث يجمع اثاره المعتدل وكسح المستعلى وطم المنخفض (٣) .

**حكم احياء الموات :**

من احيأ أرضا مواتا كان مالكا لها ، وقد وردت فى ذلك أحاديث وآثار :

(١) الاحكام السلطانية للمساوردى : ١٥٨ والمراد بالحريم هنا هو ما كان من المرافق الخاصة بحريم النهر وحريم الطرقات وغيرها

(٢) جمع ابطح وهو مسيل واسع فيه دقاق الحصى .

(٣) الاحكام السلطانية .

فقد صح عنه صلى الله عليه وسلم : « أنه قال من أحيأ أرضا ميتة فهي له ، وما أكلت العافية منها فهي له صدقة (١) » .

وفي رواية أخرى عنه : « من عمر أرضا ليست لأحد فهو أحق بها (٢) » .

وعن أسمر بن مزهر : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فبايعته فقال : من سبق الى ما لم يسبق اليه مسلم فهو له ، قال فخرج الناس يتعادون « أى يسرعون » يتخاطون « أى يضعون على الأرض علامات بالخطوط » (٣) .

وخطب عمر رضى الله عنه على المنبر مرة فقال : « يا أيها الناس من أحيأ أرضا فهي له » (٤) .

### هل يشترط اذن الدولة ؟

الجمهور على أنه لا يشترط لصحة التملك في احياء الارض الموات أن يكون ذلك باذن من الامام . بل كل من سبق الى أرض ميتة فأحيأها واستثمرها كانت ملكا له .

وقال أبو حنيفة : لا بد من اذن الامام في ذلك لان الناس يتقاتلون على احياء الاراضى فتقع بينهم الخصومة والعداوة فلا بد من اذن الامام « أرايت رجلين أراد كل واحد منهما أن يختار موصلا واحدا وكل واحد منهما منع صاحبه أيهما أحق به ؟ أرايت أن أراد رجل أن يحيى أرضا ميتة بفناء رجل وهو مقر أن لا حق له فيها ، فقال لاحتحيها فانها بفنائى وذلك يضرنى . فانما جعل أبو حنيفة اذن الامام في ذلك هاهنا فصلا بين الناس . فاذا اذن الامام في ذلك لانسان كان له أن يحييها وكان ذلك الاذن جائزا مستقيما . واذا منع الامام أحدا كان ذلك المنع جائزا ، ولم يكن بين الناس التشاح في الموضوع الواحد ولا الضرر فيه مع اذن الامام ومنعه (٥) .

وقال بعض العلماء : ان كان الموضوع المراد احياءه مما لا يرغب الناس فيه فلا حاجة الى اذن الامام ، وان كان مما يقع التضاحم عليه فلا بد من اذن الامام .

ولا ريب عندنا في أن رأى أبى حنيفة يتفق مع مفهوم الدولة وسلطانها في العصر الحديث . فسواء كانت الارض مما يتنازع عليها

(١) رواه احمد والنسائي وابن حبان والمراد بالعافية من يمر بالارض فيأكل منها لحاجته سواء كان انسانا ام حيوانا

(٢) رواه البخارى واحمد . (٣) رواه ابو داود

(٤) أخرجه أبو عبيد فى كتاب الاموال: ٢٩٠ (٥) الخراج لأبى يوسف : ٦٤



الناس أم لا فهي ملك للدولة ، ولا يصح لاحد أن يبادر الى تملكها بدون ترخيص .

### شرط تملكها

أجمع الفقهاء على أن الأرض الميتة لا تملك بمجرد تحجيرها ، أي وضع علامة حولها تدل على أن واضع العلامة أراد احياء هذه الأرض ، بل لابد من احيائها فعلا بفعل ما يؤدي الى احيائها من بناء أو زرع أو حرث مما ذكرنا آنفا .

نعم ان المحتجر يكون أولى من غيره بتملكها اذا جاء غيره بعده ورغب في احيائها .

واتفق الفقهاء على أنه يترك له أجل ثلاث سنوات فاذا مضت ولم يقم باحيائها انتزعت منه وأعطيت لغيره . لان القصد من تملكه لأرض الموات أن ينتفع المجتمع والدولة بزيادة الثروة العامة وتوسيع رقعة الأرض الصالحة للزراعة والاستثمار .

والاصل في هذا ما ورد من أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « عادي الأرض لله وللرسول ثم لكم من بعد ، فمن أحيأ أرضاً ميتة فهي له ، وليس لمحتجر حق بعد ثلاث سنين » (١) .

وروى عن عمر أنه قال على المنبر : « من أحيأ أرضاً ميتة فهي له . وليس لمحتجر حق بعد ثلاث سنين » يقول راوى هذا الخبر : وذلك أن رجلاً كانوا يحتجرون من الأرض ولا يقومون باحيائها (٢) .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطى بلال بن الحارث المزني جميع أرض العقيق ، فلما كان زمن عمر قال بلال : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقطعك تحتجره عن الناس ، انما أقطعك لتعمل ، فخذ منها ما قدرت على عمارته ، ورد الباقي (٣) .

وقال عمر رضي الله عنه : « من عطل أرضاً ثلاث سنين لم يعمرها فجاء غيره فاعمرها فهي له (٤) » .

تلك هي أحكام احياء الموات في الشريعة ، ومنها يتبين أن اشتراكية الاسلام حين أعطت هذا الحق للناس انما تريد بذلك استغلال الثروات التي خلقها الله فيما يعود على المجتمع بالخير والفائدة .

(١) رواه ابو يوسف في الحراج . ٦٥

(٢) الاموال : ٢٩٠ والخراج ليحيى بن آدم : ٩٢

(٣) الاموال : ٢٩ (٤) الخراج ليحيى بن آدم ١١

## الاقطاع

نصريته

هو في الشريعة تمليك الامام أرضا لا مالك لها ، لانسان يقوم بعمارها واستغلالها . على أن يتم ذلك خلال مدة معينة - ذكرناها في بحث احياء الموات - فان انقضت ولم يفعل شيئا من ذلك استردها الامام منه وأعطاهما لغيره .

هذا هو الاقطاع الذي جرى في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين ومن بعدهم . ثم اطلق الاقطاع على منح الامام بعض الناس غلة أرض من أراضي الدولة لبلانهم في الجيش أو لعظيم فائدتهم للامة

واقطاع الاراضى لا يكون الا في الاراضى التى :

١ - ليست مملوكة لاحد ولو كانت خرابا .

٢ - ليست من المرافق العامة التى يحتاج اليها سكان المدن أو القرى أو الصحراء .

٣ - ليس فيها معدن من المعادن التى يحتاج اليها الناس .

وما عدا هذه الانواع الثلاثة من الاراضى فمن حق الامام أن يقطعها لمن يشاء ، ولا يجوز له أن يفعل ذلك محاباة ، بل عليه أن يبتغى في ذلك الانفع للامة والبلاد .

### وقائع الاقطاع في عهد الرسول والخلفاء

كانت بلاد العرب حين جاءها الاسلام ما بين ارض مملوكة لاصحابها وما بين ارض لا مالك لها ، ومنها ما كان مرعى للابل والانعام .

ولما بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد مقامه في المدينة ينظم شئون الدولة الاسلامية كان مما اتجهت اليه عنايته اصلاح الاراضى الميئة التى لا مالك لها ، فأعلن - كما قدما - أن من أحيأ أرضا ميئة فهي له ، وتقدم اليه بعض الناس يطلبون منه أن يمنحهم من تلك الاراضى ما يقومون بعمارها ، ففعل ، وسمى عمله هذا « اقطاعا » .

فقد اقطع الرسول صلى الله عليه وسلم : الزبير بن العوام ، وبلال ابن الحارث ، وعمر بن حريث ، ووائل بن حجر ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعمر بن الخطاب وغيرهم .

ولما بدأت المعارك بين الدولة الإسلامية ومملكتي الفرس والروم - عقب وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم - انتهت تلك المسارك باستيلاء الإسلام على أكثر أقطار تلك المملكتين ، ووجدت الدولة الإسلامية نفسها أمام أراض واسعة ليس لها مالكون . أما نتيجة لوفاة أصحابها المحاربين : أو لاستيلاء الدولة على أملاك كسرى وقيصر وأمراء البيت المال وقواد الدولتين في فارس والروم ، وأما لأنها في الأصل كانت أراضى خراباً .

وهنا قضت سياسة الدولة الانشائية بإحياء تلك الأراضى وأعمارها فأقطعها الخلفاء لمن يقوم عليها ويحسن استثمارها .

ذلك هو أصل أقطاع الأراضى في الدولة الإسلامية ، وهو كما ترى عمل عمرانى أدى أجل الخدمات المالية للدولة وثروتها الاقتصادية .

وفى أكثر الحالات لم يخرج الأقطاع عن حدوده الشرعية ، وهو أن تكون الأرض المقطعة أرضاً مواتاً أو من أراضى الدولة ، ويكون ذلك لمن يحسن عمارتها واستغلالها .

ونصوص الفقهاء كلها مجمعة على ذلك :

قال أبو يوسف فى كتابه الخراج :

فأما القطائع من أرض العراق فكل ما كان لكسرى ومرازبه . وأهل بيته مما لم يكن فى يد أحد . . وقد وجد فى الديوان أن عمر رضى الله عنه أصفى أموال كسرى وآل كسرى ، وكل من فر عن أرضه وقتل فى المعركة ، وكان مفيض ماء أو أجمة ، فكان عمر يقطع من هذه لمن أقطع ، وذلك بمنزلة المال الذى لم يكن فى يد أحد ولا فى يد وارث ، فللإمام العادل أن يجيز منه ويعطى من كان له غناء فى الإسلام « أى جهاد وخدمة لدولته » ويضع ذلك موضعه ولا يحابى به ، فذلك هذه الأرض « فهذا سبيل القطائع عندى فى أرض العراق . والذى فعل الحجاج ثم عمر بن عبد العزيز . فان عمر رضى الله عنه أخذ فى ذلك بالسنة .

ثم تكلم عن القطائع فى أرض الحجاز ومكة والمدينة وأرض العرب وأرض البصرة وخراسان وكيف كان الأقطاع فيها من عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن بعده . وقال : وكل أرض من أرض العراق والحجاز واليمن والطائف وأرض العرب وغيرها غامرة وليست لأحد ولا فى يد أحد ولا ملك أحد ولا وراثة ولا عليها أثر عمارة فأقطعها الإمام رجلاً فعمرها أن كانت فى أرض الخراج فعلى الذى أقطعها الخراج ، وإن كانت فى أرض العشر فعليه العشر .

ثم نصح الرشيد بقوله : ولا أرى أن يترك « الإمام » أرضاً لا ملك لأحد فيها ولا عمارة حتى يقطعها الإمام ، فان ذلك أمر للبلاذ

وانثر للخراج ، فهذا حد الاقطاع عندى على ما أخبرتك (١) .  
وقال ابو عبيد القاسم بن سلام بعد ان ذكر الاحاديث والآثار التى وردت عن اقطاع النبى صلى الله عليه وسلم وخلفائه للاراضى : ولهذه الاحاديث التى جاءت فى الاقطاع وجوه مختلفة ، الا ان حديث النبى صلى الله عليه وسلم الذى ذكرناه « وهو . عادى الارض لله ولرسوله ثم هى لكم اى : تقطعونها للناس » هو عندى مفسر لما يصلح فيه الاقطاع من الارضين ولما لا يصلح . واعادى كل ارض كان لها ساكن فى آباد الدهر . فانقضوا فلم يبق منهم انيس . فصار حكمها الى الامام . وكذلك كل ارض موات لم يحيها أحد ولم يملكها مسلم ولا معاهد . وايها اراد عمر بكتابه الى ابي موسى « ان لم تكن ارض جزية ولا ارضا يجرى اليها ماء جرية فأقطعها اياه » فقد بين أن الاقطاع ليس يكون الا فيما ليس له مالك . فاذا كانت الارض كذلك فأمرها الى الامام (٢) .

وقال القاضى ابو الحسن الماوردى : « واقطاع السلطان مختص بما جاز فيه تصرفه ، ونفذت فيه أوامره . ولا يصح فيما تعين فيه ملكه وتميز مستحقة (٣) » .

### افتراء جاهل :

واذا كان هذا هو حقيقة الاقطاع الذى ورد عن الرسول وخلفائه وعرف فى تاريخ الاسلام وحضارته ، كان من الجهل والتضليل ما زعمه بعض الحاقدين على الاسلام من أنه جاء بنظام الاقطاع الذى عرفته أوروبا فى القرون الوسطى .

ذلك أن الاقطاع الذى عرف عند الغربيين فى القرون الوسطى كان عبارة عن تملك السيد لاراض واسعة بمن عليها من الفلاحين وما عليها من الحيوان ، تملكها مطلقا يبيع له التصرف فيها وفيهم غير مقيد بقانون او خلق كريم ، واذا باعها ملكها لآخر انتقلت ملكيتها وفلاحوها وحيوانها الى الملك الجديد ! .

وهذا ما ياباه الاسلام فى تشريعه ، وخلت منه حضارته فى مختلف عصورها .

فانقلاص فى نظر الاسلام انسان حر له كرامته وله شخصيته واهليته الكاملة ، ولا ارتباط له بالارض التى يعمل فيها - ان لم يكن مالكا لها - الا ارتباط الحر بأى عمل يتعاقد عليه مع غيره

ولم يقع قط فى تاريخ الحضارة الاسلامية أن ارضا بيعت، فانتقل الى المالك الجديد ملكية فلاحها ! والذى كان يقع هو أن الفلاحين « المزارعين » كانوا يخبرون بين أن يستمروا فى زراعتهم للارض مع المالك الجديد ، وبين أن يعملوا فى ارض أخرى . وحققهم فى حرية الاختيار هذا حق ثابت لهم بموجب نظام العقود فى الشريعة الاسلامية .

(١) ص ٥٧ فما بعدما من كتاب « الخراج » (٢) الاموال : ٢٧٨

(٣) الاحكام السلطانية : ١٦٨

ولعل الامر الذى ورط ذلك الجاهل فى زعمه ذلك هو التسوافق بين لفظ « لاقطاع » الذى أطلقه المسلمون على ما ذكرناه ، وبين لفظ « الاقطاع » الذى أطلقه التراجمة العرب المحدثون على ما كان يقع عند الغربيين فى القرون الوسطى ، ولكن كل مطالع على حقيقة « الاقطاع » فى الاسلام وحقيقته عند الغربيين يجزم بأن الاسلام لا يعرف نظام الاقطاع الغربى ولا يقره ؛ ولم يقع فى حضارته مثل ذلك النظام .

فادعاء ان الاسلام اقر « الاقطاع » جهل يستحق الازدراء ، وتضليل يستوجب به مدعيه الخروج من زمرة التلاميذ ، بله أن يكون من زمرة المؤرخين أو العلماء الاجتماعيين !

## حقوق العمال

كان من الثورة الاجتماعية الكبرى التي أحدثها الإسلام في التاريخ رفعه من شأن العمل ، واحترامه العامل ، وضمانه لحياته حياة كريمة ول مستقبله عند الشيخوخة والعجز والمرض ، وضمان أسرته بعد وفاته ، فقد كان العمل في العالم كله قبل الإسلام وحتى عهد قريب يعتبر أمرا مهينا ، ويعتبر العمال طبقة دنيئة ليست لها أية حقوق . ولما اخترعت الآلة في العصر الحديث بدأت مشاكل العمال مع أرباب العمل ، وبدأ العمال يطالبون بحقوقهم ، ويتكتلون ضد أرباب العمل ، وتنبهت الدول أخيرا الى وجوب رفع مستواهم ، وضمان حقوقهم ، لا بدافع من العاطفة الانسانية ، بل خوفا من تفاقم مشكلتهم ، وانتشار الثورة في صفوفهم ومن هنا جاءت تشريعات العمال في الدول الحديثة . فما هو موقف الإسلام من هذه التشريعات والحقوق التي لم تكن معطاة لهم من قبل ؟

الواقع أن كل ما قدمناه من مبادئ اشتراكية الإسلام ، وهي الاعتراف بالحقوق الطبيعية الخمسة لكل مواطن ، ووجوب تحقيق التكافل الاجتماعي ، بحسب قوانينه التي سنتحدث عنها ، تشمل العامل وتضمن له حقه في التكافل الاجتماعي ، ومع ذلك فقد جاء في النصوص التشريعية ما هو خاص بالعمال ، وما هو شامل لهم ولغيرهم مما يمكن أن يستخرج منه مبادئ لسن تشريعات لحقوق العمال ترتفع عن مستوى التشريعات الحالية المعمول بها لدى الدول الحديثة وخاصة الاشتراكية الشيوعية منها .

وسترى فيما نذكره من المبادئ ما يكفل للعمال حياة كريمة مستقرة بحيث تستطيع الدولة أن تسن التشريعات اللازمة - على ضوءها - وفق ما يقتضيه التطور الصناعي والحضاري اللازمة .

ونحب أن نشير الى أن القرآن قد وردت فيه ٣٦ آية تتحدث عن العمل و ١٠٩ آيات عن « الفعل » وهي تتضمن أحكاما شاملة للعمل وتقديره ومسئولية العامل وعقوبته ومثوبته . ونكتفي بسرده بعض المبادئ التي ضمن بها الإسلام حقوق العمال ، ونترك تفصيل القول في العمل عموما الى البحث الشامل الذي نضعه لهذه النظرية .

## المبادئ العامة لصيانة حقوق العمال

### ١ - العمل شرف

يقول الله تعالى : « ومن أحسن قولاً ممن دعا الى الله وعمل صالحاً (١) » والعمل هنا وفي آيات كثيرة جاء شاملاً للعمل الدينى أى تنفيذ أحكام الشريعة ولغيره ، وهو فى عموميه يشمل العمل الصناعى كما يعرف ذلك من قواعد الاجتهاد فى الشريعة وغيره فان العبرة بشمول اللفظ وعمومه . وكذا ماذكره من الجزاء لطيب للعمل الحسن يشمل الجزاء المادى فى الحياة ، وان كان وارداً فى الجزاء الاخرى بل ربما كانت دلالة على الجزاء المادى فى الدنيا أقوى ، وكان وروده فى الجزاء الاخرى مقصوداً منه الاشارة الى الجزاء المادى فى الحياة الدنيا.

وقال عليه الصلاة والسلام : « ان أشرف الكسب كسب الرجل من يده (٢) » .

### ٢ - العمل نعمة :

يقول تعالى « لياكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون(٣) » والشكر على النعمة يقتضى حفظها والمداومة عليها .

### ٣ - العامل مسئول :

يقول تعالى : « ولتسئلن عما كنتم تعملون (٤) » ويقول عليه السلام « والخادم (العامل) راع فى مال سيده وهو مسئول عن رعيته (٥) » وعليه ان يتقن عمله « ان الله يحب من العامل اذا عمل ان يحسن (٦) » .

### ٤ - رب العمل مسئول :

يقول عليه السلام : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته (٧) » ويقول عليه السلام : « اخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم (٨) » .

(١) فصلت : ٣٣

(٢) يس : ٣٤

(٣) رواه البخارى ومسلم

يحب اذا عمل أحدكم عملاً ان يتقنه ( رواه البيهقى ) .

(٨) رواه البخارى ومسلم

(٤) رواه الامام احمد

(٥) النحل : ٩٣

(٦) رواه البيهقى ، وفى حديث اخر ان الله

## ٥ - لا عمل من غير أجر :

يقول تعالى : « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم اعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون (١) » .

## ٦ - الاجر على قدر العمل :

يقول تعالى : « ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم اعمالهم وهم لا يظلمون » (٢) ويقول : « ولا تبخسوا الناس اشيائهم (٣) » فاذا رضى العامل مضطرا بأجر دون ما يستحقه وجب أن يدفع له رب العمل ما يستحقه ولا عبرة برضاه في الأجر المخفض، كمن اضطر الى بيع سلعته بأقل من ثمنها الحقيقي ، فان الأيجار هو بيع المنافع .

## ٧ - الاجر حق لا منة فيه :

يقول تعالى : « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون (٤) » .

## ٨ - الاجر في حماية الدولة :

يقول تعالى : « انى لا اضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى (٥) » ويقول عليه السلام : « اعطوا الاجير أجره قبل أن يجف عرقه » (٦) ويقول « ثلاثة انا خصمهم يوم القيامة . . منهم . . ورجل استأجر أجيرا فلم يوفه أجره » ، وفي قصة الخضر في القرآن الكريم « اما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فاردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا » (٧) وهذا صريح في حماية العامل من العدوان عليه في ماله ، وأجره المستحق أصبح مالا له فتجب حمايته .

## ٩ - العمل على قدر الطاقة :

يقول عليه السلام « ولا تكلفوهم مالا يطيقون (٨) » ويقول تعالى « لا يكلف الله نفسا الا وسعها » (٩) فاذا قررت الدولة - بناء على

(٢) الاحقاف : ١٦ .  
(٤) فصلت : ٨  
(٦) رواه ابن ماجه  
(٨) رواه البخارى ومسلم

(١) هود : ١٥  
(٣) الاعراف : ٨٥  
(٥) آل عمران : ١٩٥  
(٧) الكيف : ٧٩  
(٩) البقرة : ٢٨٦



ما ثبت علميا - من أن العمل يجب أن يكون ثمانى ساعات فى اليوم أو أكثر من ذلك أو أقل ، وجب التقيد بذلك، فإذا أراد رب العمل تشغيل العامل أكثر من ذلك وجب إعطاؤه الأجر الإضافى عليه ، ويكون داخلا تحت قوله عليه السلام فى تنمة الحديث السابق : « فإذا كلفتموهم فأعينوهم » وإعطاء الأجر على العمل الإضافى إعانة بلا ريب .

## ١٠ - حق العامل فى تأمين نفقاته :

للعامل حق فى تأمين نفقاته العائلية لان ذلك من كرامته « ولقد كرّمنا بنى آدم (١) » وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطى أهل حظين ويعطى العزب حظا واحدا (٢) ، وهذا تقدير لحق الإنسان فى كفايته المعاشية ويقول عليه الصلاة والسلام « من ولى لنا عملا وليس له منزل فليتخذ منزلا ، أو ليس له زوجة فليتزوج أو ليس له دابة فليتخذ دابة (٣) » وهذا وإن كان واردا فى حق موظفى الدولة ، إلا أن العلة التى اقتضت حصول الموظف على ذلك وهى تحقيق كفايته للقيام بعمله بأمان واستقرار ، تقتضى شمول هذا الحكم للعامل ، وليس معنى ذلك أن رب العمل ملزم بإعطائه ما يحتاج اليه من نفقات ولو كان أكثر مما يستحقه من أجر عادل ، بل معنى ذلك أن على الدولة أن تضمن للعامل هذا الحق إذا كان أجره العادل لا يكفيه .

## ١١ - حق العامل فى الراحة :

يقول عليه السلام : « ان لنفسك عليك حقا ، وإن لجسدك عليك حقا ، وأن لزوجك عليك حقا ، وأن لعينك عليه حقا (٤) » وهذا يعطى العامل حقا فى الراحة وإداء العبادة والقيام بحق الزوجية والآبوة .

## ١٢ - للعامل حماية المجتمع :

لقد ضمنت قوانين التكافل الاجتماعى فى الاسلام حق المواطن فى تأمين معيشته وكرامته عند العجز والمرض والشيخوخة ، كما ضمنت له حق حماية أسرته بعد وفاته ان مات من غير ثروة : «من ترك مالا فلورثته ، ومن ترك ضياعا ( أى ورثة ) أو كلا (أى ذرية ضعفاء) فليأتنى فأننا مولاه (٥) » وفى رواية «فالى الله ورسوله» : قال أبو عبيد «الكل كل

(٢) رواه البخارى وغيره وذكره أبو عبيد

(٣) رواه الانبام احمد وابو داود

(٥) رواه البخارى

(١) الاسراء : ٧٠

فى الاموال ٧٤٢

(٤) رواه البخارى وغيره

عيل والذرية منهم ، فجعل صلى الله عليه وسلم للذرية في المال ( مال الدولة ) حقا ضمنه لهم ( ١ ) » •

هذه جملة من المبادئ ضمن بها الاسلام حقوق العمال وتوفير الحياة الكريمة لهم ولأسرهم في حياتهم وبعدها ، وبذلك نعلم أن أكثر ماتضمنته قوانين العمل في بلادنا مما يرفع الظلم عن العمال ويضمن لهم حقوقهم ، هي أحكام شرعية يجب التقيد بها وتنفيذها بحكم الشريعة عدا حكم القانون •

## التأميم

ما هو موقف الاسلام من التأميم ؟ تأميم الصناعات ؟ تأميم المرافق العامة ؟ تأميم الارض وما أشبهها ؟

سنستعرض بعض النصوص والمبادئ المقررة في الشريعة فيتضح موقف الاسلام من هذا الموضوع .

١ - لقد ذكرنا في مبادئ التملك قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « الناس شركاء في ثلاث : الماء والكلا والنار » وهذا يفيد أن كل انسان له حق الاستفادة من هذه المواد الطبيعية لحاجة الناس جميعا اليها ، وقد قرر الفقهاء انه لا يجوز أن يستأثر بها انسان دون بقية الناس الا بعد احرارها في الانية أو ما أشبهها، فإذا أدت الملكية الشخصية لهذه الاشياء الى أن تجس عن الناس أو يتحكم مالكها في ثمنها وتوزيعها بحيث يتضررون من ذلك وهم في حاجة اليها ، كان للدولة أن تحول دون هذا الاحتكار ، وجاز لها أن تتخذ الوسائل الكفيلة لاشراك الناس جميعا في الاستفادة منها تحقيقا لمعنى « الشركة » الواردة في الحديث، وذلك يعنى « التأميم » أو تدخل الدولة في « تحديد » الاسعار . . ولا شك في أن النص على تلك المواد الثلاث ليس للحصر ، بل يلحق بها كل ما كان مثلها في حاجة الناس جميعا اليه . بدليل اضافة ( الملح ) اليها في بعض الروايات ، وهذا يعنى أن كل ما كان ضروريا للناس من طعام أو غيره يأخذ ذلك الحكم : وهو « جواز التأميم » من الناحية التشريعية .

٢ - ومن المعلوم أن الوقف جائز في الاسلام ، بل هو مرغوب فيه للحاجات الاجتماعية التي تحدثنا عنها في قوانين التكافل الاجتماعى ، والوقف كما عرفه الفقهاء هو « اخراج العين الموقوفة من ملك صاحبها الى ملك الله أى أن تكون غير مملوكة لاحد بل تكون منفعتها مخصصة للموقوف عليهم » وهذا هو « التأميم » .

٣ - ومن المتفق عليه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حمى ارضا بالمدينة يقال لها « النقيع » لترعى فيها خيل المسلمين (١) ، وحمى عمر أيضا ارضا بالربذة وجعلها مرمى لجميع المسلمين ، فجاء أهلها

---

(١) رواه احمد والنرجه ابو عبيد فى الاموال ص ٢٩٨ انظر بحث الحمى فى الاحكام السلطانية للماوردى ص ١٦٤ وللقاضى أبى يعلى ص ٢٠٦

يقولون : يا أمير المؤمنين ! انها بلادنا قاتلنا عليها في الجاهلية وأسلمنا عليها في الاسلام ، علام تحميها ؟ فاطرق عمر ثم قال : المال مال الله ، والعباد عباد الله ، والله لولا ما أحمل عليه في سبيل الله ما حميت من الارض شبرا في شبر (١) .

وظاهر أن « الحمى » هو اقتطاع جزء من الارض لتكون مرعى عاما لا يملكه أحد ، بل ينتفع به سواد الشعب ، وقد أوضح ذلك عمر حين قال لهني لما استعمله على حمى الربرة : يا هني ! أضمم جناحك عن الناس ، واتق دعوة المظلوم فانها مجابة ، وادخل رب الصريمة والغنيمة - أى مكن صاحب الابل القليلة والغنم القليلة من رعيها في تلك الارض - ودعني من نعم بن عفان ونعم بن عوف - أى من أصحاب الاموال الكثيرة - فانهما ان هلكتا ماشيتهما رجعا الى نخل وزرع ، وان هذا المسكين - أى صاحب الابل او الغنم القليلة - ان هلكتا ماشيته جاءني ببنيه يصرخ : يا أمير المؤمنين ! - أى يطلب معونة الدولة لان له حقا في بيت المال حين يفتقر - أقتاركهم انا لاأبا لك ؟! فالكلأ أيسر على من الذهب والورق - الفضة - وانها لارضهم . قاتلوا عليها في الاسلام ، وانهم ليرون انى ظلمتهم ، ولولا النعم التى يحمل عليها في سبيل الله ما حميت على الناس شيئا من بلادهم (٢) .

وهذا صريح في « تأميم » الارض لضرورة الدولة والمجتمع ، وفيه من المبادئ أن أصحاب الحاجات تقضى لهم حوائجهم ولو كان في ذلك بعض الضرر لأصحاب الثروات الكبيرة ، وانه لو لم يفعل ذلك لهلكت رؤوس الاموال الصغيرة ، ولزم الدولة أن تكفيهم حاجتهم وان المصلحة التى تصيب هؤلاء وهم سواد الشعب ، تتحقق بتحمل ضرر بسيط يلحق أصحاب الحق في المال « المؤمم » وهو أفضل من تحمل ضرر أكبر بالزام خزانة الدولة اعالة تلك العائلات !.. وهذا تطبيق القاعدة « يتحمل الضرر الأدنى لدفع الضرر الأعلى » .

٤ - ومن المقرر في الفقه الاسلامى أيضا ان الاحتكار غير جائز وان المحتكر الذى يمتنع عن بيع الناس ما احتكره ، يجبره القاضى على بيع ما زاد عن قوته وقوت عياله ، وكذلك اذا أبى أن يبيعه للناس الا بسعر فاحش يشق عليهم ، يأمره القاضى ببيعه بسعر معتدل الربح وفق تقدير الخبراء ، فاذا أبى فى الحالين انتزع منه ماله ، وباعه عليه بسعر معتدل (٣) . فاذا اقتضت مصلحة المجتمع اليوم انتزاع ملكية الارض من أصحابها جاز ذلك كما جاز في الاحتكار .

(١) الاموال : ٢٩٩

(٢) رواه البخارى وذكره أبو عبيد في الاموال : ٢٩٩

(٣) انظر : الاختيار شرح المختار : ١١٥/٣ والحسبة لابن تيمية وابن عابدين : ٢٥٥/٥

٥ - كان لسمرة بن جندب نخل في حائط « بستان » رجل من الانصار ، فكان يدخل عليه هو وأهله فيؤذيه ، فشكا ذلك الانصارى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يلقاه من سمرة ، فقال الرسول لسمرة : بعه ، فأبى ، قال : فاقطعه ، فأبى ، قال : هبه ولك مثلها في الجنة فأبى - وكان يظن أن الرسول يقول له ذلك على سبيل النصيح لا على سبيل القضاء والالزام - فقال له رسول الله : أنت مضار . وقال للانصارى : اذهب فاقطع نخله (١) .

فهذا « انتزاع » للملك جبراً عن صاحبه . حين أدت ملكيته الى ضرر جاره . فكيف اذا أدت الى ضرر المجتمع ؟

٦ - وقد قاسم عمر ولاته نصف أموالهم وهم من كبار الصحابة كأبي هريرة وعمر بن العاص وابن عباس وسعد بن أبى وقاص . وهذا « انتزاع » للمال حين اقتضته المصلحة .

٧ - وسيأتى معنا في قوانين التكافل الاجتماعى : في قانون الاسعاف وقانون الطوارئ . وقانون الكفاية . انتزاع جزء من أموال الاغنياء لمصلحة المجتمع . وفي هذا ما يرشد الى جواز « انتزاع » الملكية بطريق « التأميم » لمصلحة المجتمع ايضا .

وتقدم لنا أن الشريعة تحارب الظلم وتسعى للعدل . وانها تراعى مصلحة المجتمع . فاذا كانت ملكية الافراد تؤدي الى ظلم الشعب او فئة منه . كان من المصلحة انتزاع هذه الملكية أو تحديدها ، وكان الاخذ بذلك « استصلاحا » تفعله الدولة من قبيل « السياسة الشرعية » وهى حق الدولة في فعل كل ما فيه مصلحة الناس .

وخلاصة القول أن « التأميم » وقع في الاسلام « تشريعا » كما في « الوقف » ووقع في تاريخ الاسلام « عملا » كما في « الحمى » وأن نزاع الملكية رغما عن صاحبها وقع من الرسول « قضاء » كما في قصة سمرة ابن جندب فاذا كانت المصلحة العامة تحتم « التأميم » وفيه دفع الظلم والضرر عن الناس أو عن فئة كبيرة منهم . كان التأميم « واجبا » في تلك الحالات .

ولما كان مبدأ « التأميم » كنظرية اقتصادية محل نقاش بين علماء الاقتصاد وخاصة غير الاشتراكيين منهم . فنحن نرى أن لا تلجأ الدولة الى تأميم صناعة أو مرفق من المرافق العامة الا بعد أخذ رأى الخبراء الاقتصاديين والاجتماعيين عملا بقوله تعالى : « فاسألوا أهل الذكر (٢) »

الا اننا نرى أن تأميم « الكهرباء » و « المياه » و « بعض المواد الغذائية » مما يحتمه الحديث « الناس شركاء في ثلاث : الماء والكلا

(١) رواه ابو داود وذكره القاضى ابو يعلى فى الاحكام السلطانية : ٢٨٥

(٢) الانبياء : ٧

والنار » و « الملح » والماء هو مصلحة المياه اليوم . والنار هي مؤسسة الكهرباء في عصرنا الحاضر . والكلا والملح أمثلة للمواد الضرورية التي لا يستغنى عنها انسان ما .

بقى ان يقال : ان نصوص الشريعة . قاضية باحترام الملكية الشخصية وانه لا يجوز اخذ المال الا برضى من صاحبه . والتأميم انتزاع للملكية بغير رضا صاحبها . وجوابنا على ذلك أن تلك النصوص ليست على إطلاقها بإجماع الفقهاء ، فما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم ثم عمر والخلفاء من بعده من « حمى » بعض الاراضى هو انتزاع للحق من أصحابه بغير رضاهم . وجواز أخذ الطعام عند الحاجة ممن ليس محتاجا اليه ، هو أخذ للمال من غير رضا صاحبه . واجبار الحاكم للمحتكر على بيع ما احتكره وبيعه عليه اذا أبى . هو انتزاع للمال من غير رضا صاحبه وبيع القاضى مال المدين سدادا لديون الغرماء - على رأى جمهور الفقهاء - هو انتزاع للمال من غير رضا صاحبه ، وأخذ الشريك ما باعه شريكه من عقار مشترك بينهما بحق الشفعة هو انتزاع للمال من غير رضا صاحبه ، والاستملاك للمنفعة العامة كما تفعل « البلديات » اليوم وهو جائز فى الشريعة انتزاع للمال من غير رضا صاحبه ، وأمثال هذا كثير فى الفقه الإسلامى .

نعم اذا لجأت الدولة الى التأميم « لضرورة اجتماعية » وجب عليها أن تعوض على من انتزعت منهم ملكيتهم تعويضا عادلا ، اذا كانت ملكيتهم لذلك المال عن طريق مشروع ، وخاصة اذا كان ما أمته ستبيعه للناس او تأخذ على انتفاعهم منه نصيبا مقدرًا ، وذلك قياسا على الاحتكار ، وعملا بالقاعدة « الضرورة تقدر بقدرها »

## تحديد الملكية

هل يجوز للدولة ان تحدد الملكية الزراعية بحد معين اذا حتمت مصلحة المجتمع هذا التحديد ؟ هذا ما سنبحثه الان .

لما فتحت العراق والشام والجزيرة على المسلمين في عهد عمر بن الخطاب ، اختلف الصحابة في الاراضي الزراعية في تلك البلاد : ايقسمونها على الفاتحين ، ام يتركونها بأيدي اصحابها ؟ واستقر الامر على الراي الثاني ، فبقيت الاراضي في ايدي الفلاحين ، ومسحت من جديد ، وقدرت عليها ضريبة الخراج ، وكان اساس التقدير ان تقدر غلتها المعتادة . ثم يترك للفلاحين ما يحتاجون اليه من نفقة لهم ولعيالهم ولن تلزمهم نفقتهم للسنة كلها ، مع زيادة يدخرونها للنوائب ، ثم تأخذ الدولة منهم ما بقي .

أخرج أبو يوسف وأبو عبيد القاسم بن سلام ، أن عمر بن الخطاب بعث حذيفة بن اليمان على ما وراء دجلة وبعث عثمان بن حنيف على مادونه ، فأتياه فسألهما : كيف وضعتما على الارض ؟ لعلكما كلفتما أهل عملكما « أي الفلاحين » ما لا يطيقون ؟ فقال حذيفة : لقد تركت فضلا ، وقال عثمان : لقد تركت الضعيف ولو شئت لاخذته ، فقال عمر : أما والله لئن بقيت لأرامل أهل العراق لأدعنهم لا يفتقرون لأمر بعدى (١)

وبذلك يكون عمر والصحابة قد اعتبروا أراضي العراق والشام والجزيرة « وكذلك أراضي مصر » رقبتهما للدولة ، وفلاجوها أجراء عليها ، يأخذون من غلتها ما يحتاجون اليه من نفقة للعام كله مع فضل في التقدير وما بقي فهو للدولة ، وقد قال بعض علماء القانون المشهورين في بلادنا ان عمر قد سبق بهذا العمل « ستوارت ميل » العالم الاجتماعي الانجليزي وغيره من القائلين بعدم جواز تملك الارض من قبل الافراد بل الاحتفاظ برقبتهما للدولة ، واستغلالها بأسلوب الضرائب أو ابدال الايجار وأخراج المقاسمة المفروض على حاصلاتها ضمن حدود الربيع ، وهو مازاد عن غلة الارض على اجرة العامل عليها (٢) .

وسار المسلمون في فتح الاندلس على سنة تختلف عن سنة عمر ، وهي تقسيم الاراضي الزراعية بين فلاحها الذين كانوا محرومين من تملك الارض في عهد « الفزيفوت » قال « دوزي » « المستشرق المعروف في كتابه « تاريخ الاندلس » ، « لقد أنقذ الاسلام الطبقات السديا من المسيحيين العبيد واقنان الارض من العبودية والظلم ، وحررهم من

(١) الخراج لأبي يوسف : ٣٧ والاموال لأبي عبيد : ٤٠

(٢) علم المالية للاستاذ فارس الخوري : ١٤٧-١٤٩ .

سلطة الاقطاعيين الاقوياء الذين كانوا يعتبرون الفلاحين لاعبيدا لهم فحسب بل عبيدا للارض ايضا ، لقد كان الفتح العربى حسنة بالنسبة لاسبانيا ، فقد حقق ثورة اجتماعية ذات أهمية بالغة ، وازال قسما كبيرا من الآلام التى كانت ترزح تحتها ألباد منذ قرون ، فان سلطة الطبقات ذات الامتيازات وسلطة الكنيسة والنبلاء زالت عن الطبقات الدنيا من المسيحيين وهم العبيد واقتنا الأراضى ، ووزعت الأراضى المصادرة بين عدد كبير من أفراد هذه الطبقات المستغلة المظلومة ، وكان تحقيق الملكية الصغيرة مصدرا للسعادة وسببا لازدهار الزراعة فى اسبانيا العربية . ثم يقول « لقد حكم المسلمون وفق الطريقة التالية : خفضت الضرائب تخفيضا عظيما بالنسبة لما كانت عليه أيام الحكم السابقين ، وصودرت الأراضى من أصحابها الاغنياء حيث كانت تشكل أقطاعات عظيمة جدا تزرع من قبل العبيد والاقتنا ، ووزعت بين هؤلاء الذين كانوا يعملون عليها وكان المالكون الجدد « العبيد » يعملون بحماس ، وينتجون أفضل المحصول » .

ويقول ليفى بروفانسال : « ان الازدهار الزراعى الذى اصاب اسبانيا بعد الفتح الاسلامى يعود ايضا الى التقسيم الكبير للملكية الارض » (١)

نستنتج من ذلك أن الدولة الاسلامية فى أوائل قيامها كانت سياستها بالنسبة الى تملك الارض المفتوحة تتخذ أحد طريقين :

١ - اما نقل ملكيتها الى الدولة على أن يكون عمالها الزراعيون اجراء عليها .

٢ - واما تقسيمها الى ملكيات صغيرة بين عمالها حتى يصبحون جميعا مالكين لها ، وتزول معالم الملكيات الكبيرة وآثارها المفجعة .

ولو استمر الاسلام فى سيره الطبيعى ولم ينحرف ولاة السوء عن هدفه الاشتراكى العظيم ، لظلت أراضى الشام ومصر والعراق كما كانت ملكا للدولة يشتغل الناس عليها بخراج المقاسمة ، وبذلك تكون بلادنا أول بلاد فى العالم طبقت مبدأ ملكية الدولة لرقبة الأراضى ، هذا المبدأ الذى نادى به كثير من العلماء الاجتماعيين فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وطبقته روسيا فى الربع الاول من هذا القرن .

واستمر الامر الى عهد عبد الملك بن مروان لا يجرى فى أراضى هذه البلاد بيع ولا شراء ، ثم أذن لهم عبد الملك والوليد وسليمان فى الشراء على أن يدفعوا ثمنها الى بيت المال ، وأراد عمر بن العزيز أن يرد الامر الى نصابه فيشتترع الأراضى من أيدي أصحابها الجدد ، ولكنه وجد من الصعوبة ما لم يجد معه حيلة ، فلقد تقسمت الأراضى فى المواريث ومهور النساء والديون والمعاملات وغيرها ، فأقر ما كان قبل عهده، ونهى

(١) اسبانيا المسلمة فى القرن العاشر ص : ١٦١ من ترجمة الدكتور عبد الرحمن الكواكبي

(١) انظر هذا البحث فى المبنى لاجب لإمامه : ٥٨٨-٨٥٤/٢



عن شراء الاراضى وبيعها بعد ذلك ، وكذلك حاول المنصور في العصر العباسى فلم يستطع ، وهكذا طغت الاهواء على استقامة هذا التشريع العظيم .

قال الاوزاعى : أجمع رأى عمر وأصحاب النبى صلى الله عليه وسلم لما ظهر على الشام « والعراق » على اقرار أهل القرى في قراهم على ما كان بأيديهم يعمرونها ويؤدون خراجها ، ويرون أنه لا يصح لأحد من المسلمين شراء هذه الاراضى طوعا ولا كرها ، لما كان من اتفاقهم على أنها لا تباع ولا تورث (١) .

من هذا نعلم حكم اراضى مصر والشام والعراق في العهود الاسلامية الاولى ، واذا أضفنا الى ذلك ، ما قدمناه من الأدلة على جواز التأميم ، تأكد لنا جواز « تحديد الملكية الزراعية » خاصة بعد ان رأينا بأعيننا الآثار الاجتماعية السيئة للملكيات الزراعية الكبيرة : من اهمالها وعدم استفادة الدولة من انتاجها كما ينبغي بالنسبة الى مساحتها الواسعة ، ومن انحطاط المستوى المعاشى للفلاحين الذين يعمرونها بجهودهم ، ومن استبداد المالكين الكبار بشؤون معيشتهم واهمالهم لصحتهم وازدراهم بكرامتهم كل ذلك يجعل تحديد الملكية الزراعية بحيث يملك الفلاحون ما يزرعونه من الارض منذ مئات السنين عملا أصلاحيا كبيرا ، وضرورة اجتماعية ملحة .

ومما يؤيد جواز التحديد اتفاق الفقهاء على مبدأ « سد الدرائع » وقولهم بوجوب تحديد ربح المحتكرين عندما يتأكد تحكيمهم في فرض الاسعار كما يريدون مع اضرار ذلك بالشعب ، وتحديد ملك الانسان للمال كتحديد ربحه في المال ، فاذا جاز هذا جاز ذلك ، ويؤيده أن ملك الانسان لقدر معين من الارض مباح ، فاذا رأى الامام انه لا يصح تملك اكثر من ذلك كان من الواجب اطاعته ، لان ذلك حق من حقوقه في السياسة الشرعية ، وقد نص فقهاء الملكية على أن للامام أن يمنع أو يحد من زراعة العنب في قرية اعتاد أهلها أن يزرعوا العنب ليتخذوا منه عصيرا للخمر ، وذلك من قبيل الاستصلاح . وقد حد عمر من حرية كبار الصحابة في الانتقال من المدينة الى غيرها من الأمصار ، مع أن الانتقال حق طبيعى للانسان ، فما الفرق بين « الحد » من حرية الانتقال و « الحد » من الربح و « الحد » من حرية الزراعة ، وبين « الحد » من التملك ؟

المهم عندنا أن « التحديد » اذا اقتضته مصلحة الامة كان جائزا بل واجبا وله شواهد في الفقه الاسلامى ، وسوابق تشبهه في تاريخ الحكم الاسلامى ، ومن اعترض على ذلك بطواهر نصوص الشريعة القاضية بأن للانسان أن يملك ما يشاء من الارض ، فجوابنا عليه ما قدمناه في بحث التأميم ، من أن هذا الحق ليس مطلقا ، بل هو مقيد بمصلحة الجماعة ، وليس في الاسلام « حق » لا يخضع لمصلحة الجماعة ، ومن أنكر هذا فقد أساء الفهم للاسلام ، وصد عنه من حيث لا يريد .

(١) انظر هذا البحث فى المغنر لابن لادامه ٥٨٤/٥٨٨

ولهذا كله نحن نرى أن تحديد الملكية الزراعية بقانون كقانون الإصلاح الزراعى الذى صدر فى مصر أولا ، ثم فى إقليمنا «الشمالى» ثانيا أمر تجيزه مبادئ التشريع فى الاسلام ، والواقع التاريخى للحكم الاسلامى ، بل أن واقعنا الحاضر ، ووجوب رفع الظلم ورد الكرامة الى الفلاحين فى اراضى الملكيات الكبيرة ، يجعل هذا التحديد واجبا من أهم واجبات الدولة ، أننا نقر المبدأ الذى قام عليه قانون الإصلاح الزراعى ونعتبره فاتحة خير فى نهضتنا العتيدة ، بقطع النظر عن تفاصيله وبعض أحكامه .

ولسنا نقول هذا القول « تحديد الملكية الزراعية » الان فى عام ١٩٥٩ فحسب ، بل قلناه من قبل ، منذ عام ١٩٤٩ حين كنا فى الجمعية التأسيسية « فى سوريا » أثناء وضع الدستور ، لقد كان الصراع عنيفا بيننا وبين المالكين الكبار ، اذ كنا ننادى بوجوب النص فى الدستور على مبدأ تحديد الملكية الزراعية ، على أن ينفذ هذا التحديد فور صدور الدستور لكل الملكيات الزراعية الموجودة ، وكانوا يعارضون فى ذلك معارضة شديدة ، وأخيرا تغلبنا عليهم فى اقرار الدستور الذى صدر عام ١٩٥٠ لمبدأ التحديد ، وتغلبوا علينا فى جعل التحديد يسرى على الملكيات الزراعية التى ستنشأ فى المستقبل ، دون أن يكون لذلك مفعول رجعى ، بحيث لا يمس الملكيات القائمة . . وهكذا كنا نحن الذين ننادى بتحديد الملكية الزراعية «رجعيين» وكان الاقطاعيون الكبار «تقدميين» .

ثم استمررنا بعد ذلك على المناداة بمبدأ تحديد الملكية الزراعية فى محاضراتنا العامة فى مدن لبنان - أثناء هجرتنا اليه بعد خروجنا من السجن فى عهد الشيشكللى - ثم فى مدن الاقليم الشمالى وقراه الى أن صدر قانون الإصلاح الزراعى .

# قوانين التكافل الاجتماعى



الناس في مجتمعهم الذي يعيشون فيه يحتاج بعضهم الى بعض في كل شئون الحياة ، وهم في مجموعهم يؤلفون قوة متماسكة لا تبدو في تمامها واكتمالها الا بقوة كل فرد من أفرادها وسعادته ، كالجيش لا تتم له قوته كاملة الا اذا كان كل فرد فيه قويا في جسمه ومعنوياته ، وبمقدار ما تتوفر هذه القوة للأفراد يعتبر المجتمع قويا ، وبمقدار ما تتوفر السعادة لكل فرد فيه يعتبر سعيدا .

وقد فطن العالم في عصره الحديث الى هذه الحقيقة ، وبدأ ينادى « بالتكافل الاجتماعي » بين أفراد المجتمع ، وقصر مفهوم التكافل الاجتماعي على تحقيق المطالب المعاشية للفئات المحرومة من الغذاء والكساء والسكن وما اشبهها .

بيد ان الاسلام قد فطن الى هذه الحقيقة منذ أربعة عشر قرنا ، فبعد ان قرر لكل مواطن تلك الحقوق الخمسة التي لاتتم كرامة الانسان وسعادته بفقدان واحد منها ، نظر الى الذين تحول ظروف الحياة بينهم وبين تمتعهم بها ، فاعتبر المجتمع هو المسؤول عن تحقيقها لهم ، ومن هنا انبثقت فكرة « التكافل الاجتماعي » في اشتراكية الاسلام .

والاسلام حين ينادى في اشتراكيته بفكرة « التكافل الاجتماعي » ليجعله قاصرا على المطالب الغذائية او السكنية او الكسائية وما اشبهها فحسب ، بل يجعله شاملا للحقوق الخمسة التي تحدثنا عنها ، وبذلك جاءت فكرته عن « التكافل الاجتماعي » شاملة لكل نواحي الحياة المادية والمعنوية .

### مبدأ التكافل الاجتماعي في الاسلام :

يتجلى اعلان الاسلام لمبدأ التكافل الاجتماعي في نصوص كثيرة من القرآن والسنة :

ونحن نحتزى الآن بنصين من كتاب الله تعالى ، وبثلاثة من حديث رسوله صلى الله عليه وسلم .

١ - فمن القرآن الكريم : « انما المؤمنون اخوة (١) » .

ان اعلان « الاخاء » بين افراد مجتمع ما ، يوجب التكافل بينهم لا في الطعام والشراب وحاجيات الجسم فحسب . بل في كل حاجة من حاجيات الحياة . اترى الأخ يحرض على طعام أخيه الجائع وكساء أخيه العريان . وسقاء أخيه العطشان فحسب ؟ أم هو يحرض على حياته وحرية وثقافته وكرامته ومكانته الاجتماعية أيضا ؟ ألا تراهُ يحزن لحزنه ولو كان هذا الاخ طاعما كاسيا ؟ ألا تراهُ يضطرب لمستقبله وحاضره ولو كان هذا الاخ مستقرا ثاويا ؟

ان تقرير « الاخاء » بين اثنين . هو تقرير للتكافل والتضامن

(١) الحجرات : ١٠

بينهما في المشاعر والاحاسيس . وفي المطالب والحاجيات . وفي المنازل والكرامات هذه هي حقيقة « التكافل الاجتماعى » في اشترائية الاسلام !..

٢ - وجاء في القرآن الكريم ايضا : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان (١) » .

والتعاون هو التكافل والتضامن في تحقيق امر ما . وهذه الآية توجب التكافل على البر والتقوى . فما هو البر ؟ وما هي التقوى في الاسلام ؟

اننا لا نريد ان نستنتج من نصوص القرآن مالا يفقهه ويصل الى حقيقة معناها الا العلماء الفاضلون على اسرار الشريعة ، المحيطون بأصولها ومبادئها .

ولكننا نريد ان نعرف معنى البر والتقوى من نصوص القرآن الصريحة . فما معناهما في القرآن ؟

### معنى البر في القرآن :

١ - جاء البر في القرآن بمعنى حسن المعاملة وطيب العشرة ومكارم الاخلاق . والبعد عن أعمال الشقاوة والظفیان :

وفيه ورد قوله تعالى « وبروا بالدين ولم يجعلنى جبارا شقيا(٢) »

٢ - وجاء بمعنى الانفاق والبدل في سبيل الله وهو كل طريق للحق والخير والنفع :

وفيه ورد قوله تعالى : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون(٣) »

٣ - وجاء بمعنى العبادة من صلاة وزكاة .

وفيه ورد قوله تعالى بعد امر بنى اسرائيل باقامة الصلاة وإيتاء الزكاة : « أأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون ؟ (٤) » .

٤ - وجاء بمعنى مجموعة من الفضائل النفسية والاعتقادية والخلقية . وفيه ورد قوله تعالى : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب . ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين . وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب . وأقام الصلاة وآتى الزكاة . والموفون بعهدهم إذا عاهدوا . والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » (٥) .

### معنى التقوى في القرآن :

أما تحديد معنى « التقوى » فقد جاء واضحا صريحا في العديد من آيات القرآن الكريم :

(٢) سورة مريم : ٣٢

(١) المائدة : ٢

(٤) سورة البقرة : ٤٤

(٣) سورة آل عمران : ٩٢

(٥) البقرة : ١٧٧

- ١ - فقد جاء بمعنى مجموعة من الفضائل الاعتقادية والنفسية والخلقية كما ذكرناه في الفقرة الرابعة من تحديد معنى البر ومثله قوله تعالى : « الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون (١) » .
- ٢ - وجاء بمعنى تعظيم أحكام الله وشرائعه : « ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب (٢) » .
- ٣ - وجاء بمعنى العفو والتسامح : « وان عفوا أقرب للتقوى (٣) »
- ٤ - وجاء بمعنى العدل ومجانبة الظلم : « اعدلوا هو أقرب للتقوى (٤) » .
- ٥ - وجاء بمعنى ما يقابل الاثم والفجور : « فالتقوى فحشورها وتقواها (٥) »
- ٦ - وجاء بمعنى الصدق والحق : « والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون (٦) » .
- ٧ - وجاء بمعنى الوفاء بالعهد : « فأتوا اليهم عهدهم الى مدتهم ان الله يحب المتقين (٧) » .
- ٨ - وجاء بمعنى الجهاد بالمال والنفس : « أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين (٨) » .
- ٩ - وجاء بمعنى عدم الطغيان والفساد في الارض : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الارض ولا فسادا والعاقبة للمتقين (٩) »
- ١٠ - وجاء بمعنى خشية الله وانابة القلب : « وانزلت الجنة للمتقين غير بعيد هذا ما توعدون لكل أبواب حفيظ من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب (١٠) » .
- ١١ - وجاء بمعنى القيام بشئون المحرومين والمحتاجين واستأنهم حقوقهم التي شرعها الله في دينه : « ان المتقين في جنات وعيون ، آخذين ما آتاهم ربهم انهم كانوا قبل ذلك محسنين . كانوا قليلا من الليل ما يهجعون وبالاسحار هم يستفرون ، وفي أموالهم حق للسائل والمحروم (١١) » .

---

(٢) الحج : ٣٢	(١) البقرة : ٣-١
(٤) المائدة : ٨	(٣) البقرة : ٢٣٧
(٥) الشمس : ٨	(٤) المائدة : ٨
(٧) التوبة : ٤	(٦) الزمر : ٣٣
(٩) القصص : ٨٣	(٨) التوبة : ٤٤
(١١) الداريات : ١٥:١٩	(١٠) سورة ق : ٣١

١٢ - وجاء بمعنى هجر الظالمين وعدم توليهم والركون اليهم : «وان الظالمين بعضهم اولياء بعض ، والله ولي المتقين(١)» .

٣ - وجاء في الحديث الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم : « ترى المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى (٢) »

وهذا نص في تكافل المجتمع ومسئولية أفراده عن آلام فرد واحد منه لا نرى معه حاجة الى زيادة في الشرح والايضاح .

٤ - وجاء في الحديث الصحيح عنه ايضا : «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا (٣) »

ثم شبك رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصابعه تأكيدا لمعنى « يشد بعضه بعضا » .

وهذا ايضا مما لا يحتاج الى شرح دلالاته على مبدأ التكافل الاجتماعى .

قال المناوى في شرح هذا الحديث : « وذلك لان اقواهم لهم ركن ، وضعيفهم مستند لذلك الركن القوى ، فاذا والاه قوى بما بباطنه » ثم نقل عن الراغب قوله : انه لما صعب على كل أحد أن يحصل لنفسه أدنى ما يحتاج اليه الا بمعاونة عدة له ، فلقمة طعام لو عددنا تعب تحصيلها من زرع وطحن وخبز وصناع آلاتها لصعب حصره ، فلذلك قيل ، الانسان مدنى بالطبع ، ولا يمكنه التفرد عن الجماعة بعيشه بل يفتقر بعضهم لبعض في مصالح الدارين وعلى ذلك نبه بهذا الحديث (٤).

٥ - ولعل ما جاء في الحديث من وضع قواعد التكافل الاجتماعى قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لاخيه ما يحب لنفسه (٥) »

أترى الانسان يحب لنفسه الخبز واللحم والثوب والحناء فحسب أم هو يحب لنفسه قبل ذلك كله ، الحياة والكرامة والحرية والعلم وكل ما تتحقق به سعادة الحياة ؟

### أنواع التكافل الاجتماعى فى الاسلام

يتضح مما ذكرناه من الآيات ان الله أمر بالتعاون والتكافل على جميع معانى البر والتقوى ، ومما ذكرناه من الاحاديث أن الرسول صلى الله عليه وسلم نص بكل صراحة على قيام التكافل الاجتماعى بمعناه

(٢) رواه البخارى فى الادب المفرد ورواه

(١) الجانية : ١٩

مسلم واحمد .

(٣) رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى (٤) قبض القدير : ٢٥٢/٦

(٥) ذواو البخارى ومسلم واحمد والترمذى وغيرهم .



الشامل، الواسع . وبذلك تكون له في اشتراكية الاسلام مظاهر متنوعة ، ونحن نذكر منها بإيجاز أهمها وأزعمها لسعادة المجتمع :

### أولاً - التكافل الأدبي :

وذلك ان يسعر كل واحد نحو الآخرين بسعور الحب والعطف وحسن المعاملة والتعاون في سراء الحياة وضرائها ، وقد دل عليه قوله صلى الله عليه وسلم : « احب للناس ما تحب لنفسك (١) » .

### ثانياً - التكافل العلمي :

وقد قدمنا في حق العلم ان الرسول صلى الله عليه وسلم أوجب على العالم ان يعلم الجاهل ، وعلى الجاهل ان يتعلم من العالم . ويدخل في ذلك ان لا يضمن العالم بعلمه على الناس ، وأن لا يكتف ما أدركه من أسرار الشريعة أو الكون ، لكي ينفرد بالرئاسة العلمية أو التميز العلمي ، وقد جاء في ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « من كنتم علما لجمة الله بلجام من نار يوم القيامة (٢) » .

### ثالثاً - التكافل السياسي :

وقد قرر الاسلام أن كل مواطن له حقه السياسي ، وله حقه في المراقبة والنصح لأولياء الامور لانه مسئول عن مستقبل الامة ، وما كان كذلك فالمجتمع كله متكافل في تأييد السياسة الرشيدة ، وانكار الفساد والانحراف فيها ويدخل ذلك تحت عموم قوله صلى الله عليه وسلم : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته (٣) » .

ويؤكد قوله صلى الله عليه وسلم : « المسلمون متكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم (٤) » .

ومن هنا أجمع الفقهاء على انه اذا أجاز مسلم ، رجلا حربيا وأعطاه الأمان ، فقد أصبح هذا الأمان محترما تلزم به الدولة مهما كان المجر عالما أو جاهلا ، قويا أم ضعيفا رجلا أم امرأة الا اذا اقتضت مصلحة الدولة خلاف ذلك .

ويؤيد هذا أن أم هانئ قد أجازت رجلا مشركا في فتح مكة والواد بعض المسلمين أخذه وقتله لانه محارب ، فترافعوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال الرسول مخاطبا أم هانئ : « قد أجرنا من الجرت يا أم هانئ » وكف المسلمون عنه .

(١) رواه الحاكم والطبراني وابن سعد وغيرهم ، ويؤيده الحديث المتقدم « لا يؤمن

أحدكم حتى يحب لآخيه ما يحب لنفسه » .

(٢) رواه ابو داود والترمذي والحاكم وغيرهم بالفاظ متقاربة .

(٣) رواه البخاري ومسلم وغيرهما .

(٤) رواه ابو داود وغيره .

## رابعاً - التكافل الدفاعي :

وذلك ان كل مسلم في الدولة عليه أن يتكافل مع بقية مواطنيه بالدفاع عن سلامة البلاد ، وعليه النفر اذا أغار عدو مغير على ناحية منها بحيث أصبحت الأمة في حالة استنفار ، وفي ذلك نزل قوله تعالى : « انفروا خفافا وثقالا (١) » ولا يعفيه من هذا الواجب مقام ولا منزلة الا ان يكون به مرض أو عجز أو عرج أو عذر من الأعذار .

ويقرر الفقهاء أن الأعداء اذا أسروا واحدا منا في المغرب وجب على آخر رجل بالمنرق ان يهب مع اخوانه لاستنقاذه وتخليصه من أيدي الأعداء .

والواقعة التاريخية التي أستغانت فيها امرأة مسلمة أسرها الروم فقالت : « وا مخلصناه ! » فهب المعتصم من بغداد بجيش قوى وخاض المعارك حتى خالصها من الأسر ، أن هذه الواقعة التاريخية وامثالها مشهورة في التاريخ الاسلامي ، فما أبعد واقعنا في الجزائر وعمان وفلسطين وغيرها عن التكافل الدفاعي في الاسلام وعن واقعنا بالأمس .

## خامساً - التكافل الجنائي :

وذلك انه اذا جنى جان على انسان ما ولم يعرف قاتله، الزم الشارع أن ينظر الى المكان الذي وجد فيه القتل فيختار أولياء الدم خمسين رجلاً من ذلك المكان يقسمون أنهم لا يعرفون القاتل ولا يؤوونه عندهم ، فاذا أقسموا حكم الشارع بدية القتل تعطى لأوليائه ، فان عجز المحكوم عليهم بالدية عن دفعها دفعها بيت المال . وكذلك الحكم في كل من وجبت عليه دية قتل وعجز هو وعائلته عن دفع الدية ، لزم آل الدية بيت المال .

وفي نظام القسامة الذي ذكرناه آنفاً ، الزام بيت المال بالدية عند العجز معنى واضح من معاني التكافل في تحمل آثار الجرائم ، لأن بيت المال هو خزانة الشعب ففي الزامه بدفع الدية تحميل لكل فرد في الأمة آثار تلك الجناية . .

ومن هنا جاء المبدأ الرائع في أحكام الجنائيات : « لا يطل دم في الاسلام » ومعناه لا تقع جريمة قتل في المجتمع الاسلامي دون أن يقتص من فاعلها ، فاذا لم يعرف القاتل استحق أهل القتل دية قتلهم أما من بيت المال وأما من أهل القسامة .

## سادساً - التكافل الأخلاقي :

يعتبر الاسلام المجتمع مسئولاً عن صيانة الاخلاق العامة لأن بها حفظة من الفوضى والفساد والانحلال ، وبذلك وجب أن ينكر المجتمع على مرتكب المنكرات الخليقة وغيرها ، ولا يعتبر الاسلام هذا تدخلاً منه في الحريات الشخصية لأن الفساد والمنكر يأتي على بنيان الأمة من القواعد، ولم يفهم أحد في الشرق والغرب حتى الآن أن من معنى الحرية أن تسمح لكل انسان في أن يهدم بيتك الذي تسكنه !

وقد ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلاً للذين في الاخلاق في الامة ، ذلك التكافل الذي يأخذ على ايدي العابثين والمخربين بقوله : « مثل القائم على حدود الله والواقع فيها ، مثل قوم استنبروا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين في أسفلها إذا استقروا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا في أنفسنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا ، وإن أخذوا على أيديهم ( من خرق السفينة ) نجوا ونجوا جميعا (١) » .

ولهذا التكافل الاخلاقي جاء الشارح صلى الله عليه وسلم يقول : « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه . وإن لم يستطع فبقبليه ، وذلك إضعاف الايمان (٢) » .

### سابعاً - التكافل الاقتصادي :

يولى الاسلام عنايته الكبرى باقتصاد الامة ، فيعمل على حفظ ثروات الافراد من الضياع والتبذير ، ويمنع سوء استعمال الاقتصاد الوطني بالاحتكار والتلاعب بالاسعار والفسخ في المعاملات وغير ذلك .

ولهذا اوجب على الدولة أن تحول دون الاحتكار والتلاعب والفسخ وأن تضرب على أيدي المحتكرين بيد من حديد ، بل وأن تصدر بضائهم المحتكرة وتوزعها على الشعب بأسعار معتدلة وربح معقول .

وأوجب على الدولة أيضا منع المجانين والمستوهين والسفهاء المبذرين من التصرف في أموالهم حتى يعقلوا أو يثوبوا الى الرشيد ، وفي ذلك جاء ما قدمناه من قوله تعالى : « ولا تؤثثوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما » وقد قدمنا ما تدل عليه هذه الآية من معان تتعلق بأحكام الحجر .

### ثامناً - التكافل العبادي :

هناك في الاسلام شعائر وطاعات يجب أن يقوم بها المجتمع ويحافظ عليها بمجموعه ، وتسمى بفروض الكفاية في العبادات ، كصلاة الجماعة ، فإن الميت اذا مات وجب على المجتمع تكفينه والصلاة عليه ودفنه ، فإن لم يقيم بذلك أحد أئمة المجتمع كله .

ومثل ذلك الاذان لاداء الصلاة ، واقامة صلاة الجماعة في الاوقات الخمسة واقامة الجمعة وغير ذلك ، والمجتمع متكافل في اقامة ذلك كله كعمل من أعمال الحياة الروحية والاجتماعية التي يسعد بها المجتمع .

### تاسعاً - التكافل الحضاري :

كل ما يفيد الجماعة من عمل دنيوي أو ديني ، سياسي أو اقتصادي،

(١) رواه البخاري والترمذي .

(٢) مسلم والترمذي والنسائي وغيرهم .

زراعى أو تجارى ، علمى أو أدبى ، هو من البر الذى يحبه الله لعباده .  
ويرغب لهم أن يتعاونوا عليه .

قال صلى الله عليه وسلم : « الخلق كلهم عيال الله وأحبهم اليه  
أنفعهم لعياله (١) » .

فالعمل النافع للمجتمع الانسانى كله محبوب عند الله ، وهو من  
البر الذى أمرنا أن نتعاون ونتضامن فى تحقيقه « وتعاونوا على البر  
والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان (٢) » .

### عاشرا - التكافل المعاشى :

ونعنى به ماخصص اليوم باسم « التكافل الاجتماعى » من الزام  
المجتمع برعاية أحوال الفقراء والمعدمين والمرضى وذوى الحاجات ،  
وسنذكر ما جاء فى اشتراكية الاسلام من أحكامه وقوانينه عقب الانتهاء  
من هذا البحث مباشرة .

وقد فضلنا تسمية هذا النوع من التكافل بالتكافل المعاشى أو  
الحاجى لانه يتعلق بكفالة المجتمع لمعيشة هؤلاء معيشة كريمة تليق  
بكرامة الانسان .

وتخصيصه باسم « التكافل الاجتماعى » خطأ ناشئ من أخذنا هذه  
التسمية عن الغربيين ، فان الغربيين لا يلزمون أنفسهم الآن بتكافل  
المجتمع مع الافراد الا فى شئون المعيشة المادية فحسب من طعام ولباس  
وسكن أما ما عدا ذلك من نواحي التكافل الاجتماعى فلا يعرفونه ولا  
يؤمنون به فى هذه الحضارة .

وكيف يؤمنون بالتكافل الادبى ، أو الدفاعى ، أو الاخلاقى ، أو  
الجنائى ، أو غير ذلك مما ذكرناه ، وحضارتهم قائمة على الحرية  
الاخلاقية والانانية الفردية ، والنظرة المادية ، والعزلة الروحية ، والفقرة  
الروحية ، مما تحدثنا عنه فى كتابنا « من روائع حضارتنا » .

ان اشتراكية الاسلام تعتبر تكافل المجتمع كله فى رد الحرية الى  
أسير مغلوب على أمره ، أو رد العقل والاتزان الى ماجن خليع مغلوب على  
أرادته ، هو من حقيقة التكافل الاجتماعى كما يكون تكافل المجتمع فى  
إطعام جائع ، وأسعاف مكروب .

ولهذا كان « التكافل الاجتماعى » فى اشتراكية الاسلام مما  
تميزت به هذه الاشتراكية الانسانية الاخلاقية عن كل اشتراكية معروفة  
اليوم ولو طبقت فى مجتمعنا لكان مجتمعنا مثاليا لا يذانيه فى رقية مجتمع آخر

(١) رواه البزار .

(٢) المائدة : ٢

## قوانين التكافل المعاشي

تنقسم القوانين التي جاءت في اشتراكية الاسلام لتحقيق المعيشة الكريمة للفئات المحرومة<sup>١</sup> والضعيفة الى قسمين رئيسيين .

١ - القوانين التي نصت على الفئات التي تستحق التكافل وعلى أحكامها .

ب - القوانين التي عينت الموارد المالية التي تعين على تحقيق التكافل لتلك الفئات وسنتكلم عن كل منها كلاما موجزا من غير اسهاب.

### ١ - الفئات التي تستحق التكافل

هي فئات يتميز أكثرها بالعجز والفاقة : وقد وضعت لها القوانين<sup>٢</sup> التي تعين أحكامها وهي :

١ - قانون الفقراء والمساكين .

٢ - قانون المرضى .

٣ - قانون العميان .

٤ - قانون المقعدين .

٥ - قانون الشيوخ .

٦ - قانون المشردين .

٧ - قانون الملقطاء .

٨ - قانون اليتامى .

٩ - قانون الاسرى .

وهناك فئات قد لا تتصف بالفقر ولا بالعجز ولكنها تحتاج الى المساعدات المالية وغيرها ، ونذكر من قوانينها :

---

(٢) قد مشينا في الطبعة الاولى على تسمية هذه القوانين بقوانين التكافل الاجتماعي تمشيا مع الاصلاح الشائع . وقد تبين مما ذكرناه في هذه الطبعة عن حقيقة التكافل الاجتماعي في اشتراكية الاسلام انه أوسع دائرة وشمولا من معناه المصطلح عليه عند الغربيين .

## ١٠ - قانون المساعدة :

وهو يشمل :

١ - المدين اذا لزمته الديون بسبب التجارة ، أو بسبب بعض الاعمال الاجتماعية ، كما اذا تحمل زعيم في منطقة ما ، ديات القتلى من المتخاصمين لصيانة الدماء واحلال الوثام محل النزاع ، أو تحمل الاموال لعمل المبرات والخيرات الاجتماعية ، فان ديونه تسدد من بيت المال وهو داخل في قوله تعالى « والفارمين » .

٢ - القاتل اذا قتل خطأ ، فان دية القتل لا يتحملها وحده ، بل تتحملها عاقلته وهم عصبتة من اقربائه أو اهل ديوانه أو اهل نقابته ، على تفصيل يعرف في موضعه من كتب الفقه .

٣ - المنقطع في بلد غير بلده ، ويسمى « ابن السبيل » فيعان حتى يصل الى بلده ولو كان فيها غنيا .

## ١١ - قانون الضيافة :

وحكم الضيافة في الاسلام انها واجبة - عند بعض العلماء - أو سنة عند أكثرهم ، لليلة واحدة باكرام زائد ، ثم لثلاثة أيام بالحالة المعتادة ، وما زاد على ذلك فهو متوقفة على ارادة من ينزل عليه الضيف ، وأصل ذلك قوله عليه السلام : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، جائزته يوم وليلة ، والضيافة ثلاثة أيام وما بعد ذلك فهو صدقة ولا يحل له أن يشوى عنده ( يقيم ) حتى يخرجه (١) » قال مالك في قوله عليه السلام : « جائزته يوم وليلة » يتحفه ويكرمه ويخصه يوما وليلة ، وثلاثة أيام ضيافة .

وقال ابن حزم : الضيافة فرض على البدوى والحضرى يوم وليلة ، مبرة واتحاف ثم ثلاثة أيام ضيافة (٢) .

وقد كانت الضيافة في العصور الماضية ضرورة من الضروريات الاجتماعية وخاصة في القرى والصحارى تأمينا لهذا الحق الاجتماعى وهو الاكل والمبيت للمسافرين ، وقد كانت تفرض في معاهدات الصلح ولهذا دلالتها الكبيرة .

ولا تزال كذلك في عصرنا الحاضر في بعض الحالات كالقرى النائية أو الصغيرة التى ليس فيها فنادق أو مطاعم ينام فيها المسافرون ويأكلون

## ١٢ - قانون المشاركة :

وذلك حين يحين وقت المواسم الزراعية وخاصة الثمار والفواكه ،

(١) رواه البخارى ومسلم وغيرهما

(٢) المحلى : ١٧٤/٩

فان من حق المواطنين الذين لا يجنون ما ينسبون به السمار ايان يطعموا لغلاء ثمنها ان ياكلوا منها من غير ثمن . واصيل ذلك ماخوذ من ثوبه تعالى : «كلوا من ثمره اذا امروا به يوم حصاده» وهذا عمل القرطبي عن بعض الصحابة والتابعين المول بذلك . ورواه ابو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال مجاهد : اذ حصدت نخيل المسلمين فاطرح لهم من السنبل واذا جدت فالف لهم من النسمار . واذا درسته وذريته فاطرح لهم منه (١) وكان الصحابة في عيد الرسول صلى الله عليه وسلم ياتي كل واحد من اصحاب النخيل يتنو (المدق) ناله من العنب عند جذاده ثم يعلقه على باب المسجد ياكل منه من يشاء (٢) .

وكذلك حين تقسم التركة بين الوارثين ويحضرها من لا يرث و كان غير قريب اذا كان فقيرا . فيجب على الوارثين ان يطعوا هؤلاء منها شيئا ، عملا بقوله تعالى : « واذا حضر القسمة اولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا » قال القرطبي : بين الله تعالى في هذه الآية - ان من لم يستحق ارثا وحضر القسمة ، وكان من الاقارب او اليتامى والفقراء الذين لا يرثون ان يكرموا ولا يحرموا ان كان المال كثيرا ، والاعتدار اليهم ان كان عقارا او قليلا لا يقبل الرضخ (المطاء) وان كان عطاء من القليل ففيه اجر عظيم ، وقد نزل عدد من الصحابة والتابعين والفقهاء القول بهذا ، قال ابن عباس : امر الله المؤمنين عند قسمة موارثهم ان يصلوا ارحامهم ويتأمنهم ومساكينهم من الوصية ، فان لم تكن وصية وصل لهم من المراث ثم ذكر الخلاف في ان ذلك واجب او مندوب (٣) .

### ١٣ - قانون الماعون :

يقول الله تعالى : « فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون ، الذين هم يراءون ويمنعون الماعون (٤) » الماعون كل ما ينتفع به من شئون البيت وغيره ويستعيره الناس فيما بينهم كالفأس والقدر والدلو وأمثاله (٥) قال ابن كثير في تفسير هذه الآية : اى لا أحسنوا عبادتهم ولا أحسنوا الى خلقه حتى ولا باعارة ما ينتفع ويستعان به مع بقاء عينه ورجوعه اليهم وعن مجاهد قال : على الماعون الزكاة وكذا روى على وابن عمر وبه يقول كثير من التابعين ، وبعد ان ذكر ما جاء من اقوال كثيرة في تفسير الماعون قال : وقال عكرمة رأس الماعون زكاة المال وأدناه المنخل والدلو والابرة وهذا الذى قاله عكرمة حسن فانه يشمل الاقوال كلها وترجع كلها الى شىء واحد وهو اى - منع الماعون - ترك المعاونة بمال ومنفعة (٦) .

- 
- (١) انظر تفسير القرطبي : ٩٩/٧ (٢) معالم السنن : ٧٥/٢  
(٣) انظر تفسير القرطبي : ٤٨/٥ ، ٤٩ والآية في سورة النساء : ٨  
(٤) سورة الماعون : ٧/٥ (٥) تفسير ابن كثير : ٥٥٥/٤  
(٦) المرجع السابق : ٥٥٦/٤

وقال الخطابي : يقال في تفسير الماعون أنه الشيء الذي لا يجوز منعه من الأرفاق ( المنافع ) التي للناس فيها متاع . ثم ذكر حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم « وما من صاحب إبل ولا غنم لا يؤدي حقها الخ » فسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : فما حق الإبل ؟ قال : تعطى الكريمة ، وتمنح الغزيرة ، وتفقر الظهر ، وتطرق الفحل ، وتسقى اللبن (١) .

وروى أبو عبيد القاسم بن سلام عن سعيد بن المسيب والحسن وقتادة وغيرهم من فقهاء التابعين أن زكاة الحلي أمارته (٢) .

#### ١٤ - قانون الإعفاف :

يقول تعالى : « وانكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وأمائكم (٣) » وقد قرر الفقهاء أن الزواج واجب على من كان في حاجة إليه ويخاف على نفسه الوقوع في الحرام ، ثم أن كان فقيراً لا يجد نفقات الزواج وجب على قريبه المؤسر تزويجه كما تجب عليه نفقة طعامه ولباسه وسكنه - وهذا هو رأي جمهور العلماء - حتى لو كان له رقيق وجب عليه تزويجهم رجالاً كانوا أم نساء ، إذا طلبوا ذلك لأحاجتهم إلى الزواج ، أما الأب فعلى الابن تزويجه إذا احتاج إلى ذلك ، وعلى الابن نفقة زوجته أيضاً ، وأما الابن فعلى الأب تزويجه في رأي جمهور الفقهاء وسيأتي معنا في فصل الواقع التاريخي بيان ما كان يوقف خاصة لتزويج الفتيان والفتيات الفقراء .

وهناك قوانين للتكافل الاجتماعي في الحالات النادرة والطارئة ، ولنتكلم عنها بكلمة موجزة .

#### ١٥ - قانون الإسعاف :

إذا جاع إنسان أو عطش أو مرض بحيث أشرف على الهلاك وجب على من يعلم بحاله أن يبادر إلى إنقاذه ، فإن كان عنده فضل من طعام أو شراب أو دواء أو مال يشتري به ما يدفع الهلاك عن ذلك الإنسان وجب أن يدفعه إليه ، فإن امتنع كان لذلك المضطر أن يأخذه منه عنوة ويقاقله عليه . فإن قتل كان على المانع القصاص ، وأن قتل المانع لم يكن على قاتله المضطر شيء . . . وعلى هذا اتفاق العلماء ، قال ابن حزم : « من عطش فخاف الموت فرض عليه أن يأخذ الماء حيث وجدته وأن يقاقل عليه ، ولا يحل لمسلم أضطر أن يأكل ميتة أو لحم خنزير وهو يجد طعاماً فيه فضل عن صاحبه ، لأن فرضاً على صاحب الطعام إطعام الجائع . فإذا كان ذلك كذلك فليس بمضطر إلى الميتة ولا إلى لحم الخنزير ، وله أن

(١) معالم السنن شرح أبي داود ٧٥/٢ ، والغزيرة الكثيرة اللبن ، والمنيحة الشاة اللبن أو الناقة ذات الدرتمار لدرها فإذا حلبت ودت إلى ربها ، وافقار الظهر أمارته الركوب حتى يبلغ الراكب حاجته ، وأطراق الفحل أمارته للضراب لا يمنعه إذا طلبه ولا يأخذ عليه عسياً

(٢) الاموال : ٤٣٣



يقاتل عن ذلك ، فان قتل ( الجائع ) فعلى قاتله القود ( القصاص ) وان قتل المانع فالى لعنة الله ، لانه منع حقاً وهى طائفة باغية • قال تعالى : « فان بغت احسدهما على الاخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تنفى الى امر الله ( ١ ) » « ومانع الحق باغ على اخيه الذى له الحق ( ٢ ) » •

وهذا انما يتصور فى مكان كالصحراء أو حيث لا يجد طعاما ، أو حيث لا يقوم بيت المال بواجبه فى التكافل الاجتماعى ، أو يتخلى المجتمع عن القيام بهذا الواجب • • وهذا حق لا مرأى فيه •

ومما يؤيده - عدا النصوص والقواعد العامة فى الشريعة - ما حدث فى عهد عمر بن الخطاب اذ ورد جماعة على ماء وكانوا فى حالة من العطش أشرفوا فيها على الهلاك هم ودوابهم ، فأبى أصحاب الماء أن يسمحوا لهم بالشرب منه « فلما وفدوا على عمر أخبروه بالامر • فقال لهم : « هلا وضعتهم فيهم السلاح ؟ ( ٣ ) » •

« ومن اشتد جوعه حتى عجز عن طلب القوت ففرض على كل من علم به أن يطعمه أو يدل عليه من يطعمه ، فإن امتنعوا من ذلك حتى ماتوا اشتروا فى الاثم قال عليه الصلاة والسلام « ما آمن بى من بات شبعا وجاره الى جانبه طاو » ( جائع ) وقال : « أى رجل مات ضياعا بين أغنياء فقد برئت منهم ذمة الله ورسوله » وكذا اذا رأى لقيطا أشرف على الهلاك أو أعمى كاد أن يتردى فى بئر ، وصار هذا كإنقاذ الفريق ( ٤ ) •

## ١٦ - قانون الطوارئ :

اذا أصبح العدو يهدد سلامة البلاد ، ولم يكن فى خزينية الدولة ما يكفى للانفاق على الجيش وتجهيز المقاتلين وشراء السلاح ، وجب أن تأخذ الدولة من أموال الناس بقدر ما يندفع به الخطر ، وتأمين الأمة على أرواحها وأموالها واستقلالها ، لأن الجهاد - فى تلك الحالة - واجب بالمال والنفس على كل مستطيع ، وحق الانسان فى استبقاء ماله بيده ، دون حق المجتمع فى الحفاظ على حريته واستقلاله ، وفى دفع المواطن قسما من ماله للجهاد استبقاء ماله كله من أن يأخذه الاعداء اذا تغلبوا ، ومن قواعد الشريعة « يجب دفع الضرر الاعلى بتحمل الادنى » •

وهذا حكم متفق عليه ، قال الغزالي :

« اذا خلت الأيدي ( أيدي الجنود ) من الاموال ، ولم يكن من مال المصالح ( أى خزينية الدولة ) ما يفي بخراجات العسكر ( أى نفقات الجيش ) وخيف من ذلك دخول العدو بلاد الاسلام أو ثوران الفتنة من قبل أهل الشر ( أى حدوث الفتن الداخلية ) جاز للامام أن يوظف على الاغنياء ( أى يفرض ) مقدار كفاية الجند ، لانا نعلم انه اذا تعارض شران أو ضرران .

(٢) المحلى : ١٥٦/٦

(١) الحجرات : ٦

(٤) الاختيار شرح المختار : ٩٢٩/٣

(٣) الخراج الابى يوسف ص : ٩٧

تقصّد الشرع دفع أُنشد الضررين وأعظم الضررين ، وما يؤدّيه كل واحد منهم ( الاغنياء ) قليل بالإضافة الى ما يخاطر به من نفسه وماله لو خلت خطة الاسلام ( أى البلاد ) من ذى شوكة ( أى الجيش ) يحفظ نظام المرور ويقطع مادة الشرور ، ومما يشهد لهذا أن لولى انطلق عمارة القنوات ( قنوات الارض الخاصة بالطفل ) واخراج أجرة الطبيب وثمان الادوية ( أى العائدة للطفل ) وكل ذلك تنجيز خسران لتسوقع ما هو أكثر منه (١) » .

### وقال الشاطبي :

« أنا اذا قررنا اماما مطاعا مفتقرا الى تكثير الجنود لسد حاجة الشفور وحماية الملك المتسع الاقطار ، وخلا بيت المال وارتفعت حاجة الجند ( أى نفقات الجيش ) الى ما لا يكفيهم ، فللامام اذا كان عدلا أن يوظف على الاغنياء ما يراه كافيا لهم ( الجيش ) فى الحال ، الى أن يظهر ( يوجد ) مال بيت المال ثم اليه النظر فى توظيف ذلك على الغلات والثمار وغير ذلك ، وانما لم ينقل مثل هذا عن الاولين ( فى العصور الاسلامية الاولى ) لاتساع بيت المال فى زمانهم بخلاف زماننا فان القضية فيه أخرى ووجه المصلحة هنا ظاهر . فانه لو لم يفعل الامام ذلك بطلت شوكة الامام وصارت ديارنا عرضة لاستيلاء الكفار . وانما نظام ذلك كله شوكة الامام فانذين يحذرون من الدواهي لو تنقطع عنهم الشوكة ( أى لو يضعف الجيش عن الدفاع ) يستحقرون بالإضافة اليها أموالهم كلها فضلا عن اليسير منها فاذا عورض هذا الضرر العظيم بالضرر اللاحق بهم بأخذ البعض من أموالهم ف لا يتمارى فى ترجيح الثانى عن الاول ، وهو مما يعلم من مقصود الشرع قبل النظر من الشواهد الخ . (٢) » .

### وقال القرطبي :

واتفق العلماء انه اذا نزلت بالمسلمين حاجة بعد اداء الزكاة فانه يجب صرف المال اليها . قال مالك رحمه الله : يجب على الناس فداء أسراهم وان استغرق ذلك أموالهم وهذا اجماع أيضا (٣) .

وقد وقع فى التاريخ الاسلامى تنفيذ هذا القانون أكثر من مرة ، ففى غزو التتار لبلاد الشام ، تآهب الظاهر بيبرس لقتالهم ، لكنه كان محتاجا الى الاموال لتجهيز الجيش والانفاق على المقاتلين ، ولم يكن فى بيت المال ما يقوم بذلك ، فاستفتى علماء الشام فى جواز أخذ شيء من أموال الشعب لتسديد نفقات الجيش فأفتوه جميعا بذلك ، وكان الامام النووى غائبا فأرسلت اليه الفتوى ليوقعها فوافق على فتوى العلماء

(٢) الاعتصام : ١٠٤/٢

(١) المستقصى : ٣٠٣/١ ، ٣٠٤

(٣) جامع احكام القرآن ٢٢٣/٢

بشرط أن يرد السلطان بيمبرس كل ما عند جواريه وأعوانه من جن وأموال الى بيت المال (١) .

وكذلك أراد ملك مصر ( قطز ) التجهيز لفتح التتار استجابة لعالم الملك الناصر صلاح الدين الايوبى صاحب حلب والتمام يومئذ « فجمع القضاة والفقهاء والاعيان لمساورتهم فيما يعتمد عليه فى امر التتار وأن يؤخذ من الناس ما يستعان به على جهادهم ، فحضرُوا وحضر المسلميخ عز الدين بن عبد السلام والقاضى بدر السنجارى قاضى قضاة الديار المصرية وغيرهما من العلماء ، وتناقضوا فى الامر فكان الاعتماد على ما يقوله ابن عبد السلام ، وخلاصة ما قاله : انه اذا طرق العدو بلاد الاسلام وجب على العالم ( أى جميع أبناء الشعب ) قتالهم ، وجاز لكم ( الخطاب للملك قطز ) أن تأخذوا من الرعية ما تستعينون به على جهادكم بشرط أن لا يبقى فى بيت المال شيء ، وتبيعوا مالكم من الحواصص (٢) المذهبة والآلات النفيسة ، ويقتصر كل الجند على مركوبه وسلاحه ويتساووا هم العامة (٣) » .

وفى أيام أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ( فى الاندلس ) احتاج الى مال لتجهيز الجيوش والوقوف فى وجه الاعداء ، ولم يكن عنده فى بيت المال ما يسد تلك النفقات فجمع العلماء والقضاة ، منهم القضاة أبو الوليد الباجى ، وسألهم فى ذلك فأفتوه بالإجماع بأن له أن يأخذ من المسلمين ما يفي بتلك الحاجات ، فأرسل الى المدن بهذه الفتوى ليطلب من المسلمين أموالا لاعانته على ما هو فيه من الجهاد . ووصل الكتاب الى أهل ( المرية ) وكان قاضيا يومئذ أبا عبد الله بن الفراء ، وهو من الدين والورع على ما ينبغى فكتب الى أمير المسلمين ابن تاشفين يقول :

« ما ذكره أمير المسلمين فى كتابه من أن أبا الوليد الباجى وجميع القضاة والفقهاء بالعدوة والاندلس أفتوا بأن عمر بن الخطاب رضى الله عنه اقتضاها ، وكان صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وضجيعة فى قبره ، ولا يشك فى عدله فليس أمير المؤمنين ( أى يوسف بن تاشفين ) بصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا بضجيعة فى قبره ، ولا من لا يشك فى عدله ، فان كان الفقهاء والقضاة أنزلوك بمنزلته فى العدل . فالله سائلهم عن تقلدهم فيك ، وما اقتضاها عمر حتى دخل المسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وحلف أن ليس عنده درهم واحد فى بيت المال للمسلمين ينفقه عليهم . فلتدخل المسجد الجامع هناك بحضرة أهل

(١) من اخلاق العلماء : ١٧٩

(٢) جمع حياصه وهى كساء موسى بالذهب يخله السلطان على امرائه وأعوانه فى مناسبات خاصة ( انظر اصبح الاعشى : ٥٥/٤ )

(٣) النجوم الزاهرة : ٧٢/٧

« العلم وتحلف أن ليس عندك درهم واحد » ولا فى بيت مال المسلمين .  
 وحينئذ تستوجب ذلك (١) » .

وكذلك الحكم فى الكوارث العامة كالفيضانات والزلازل والمجاعة  
 وأمثالها ، فإن من واجب الدولة أن تسعف المنكوبين « لا بالخيام  
 والدقيق فحسب » بل بتمكينهم من الحياة الكريمة التى يحياها سائر  
 الناس ، ولما كانت خزينة الدولة تعجز فى الغالب عن القيام بهذا  
 الواجب الاجتماعى نحو المنكوبين ، فإنها تستطيع أن تفرض ضرائب  
 خاصة لهذه النكبات تستوفىها من الأغنياء كل على حسب ثروته ، وهذا  
 واجب التعاون على البر والتقوى الذى أمته به القرآن ، وهو من مستلزمات  
 الأخوة والتماسك الذى يفرضه الاسلام شعارا للمجتمع ، وتؤيده قواعد  
 الشريعة ونصوصها التشريعية التى سنذكر بعضها فيما يلى :

صح فى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه مدح  
 الاشعرين « ان الاشعرين اذا أرموا فى الغزو وفنى زادهم ، أو قل طعام  
 عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم فى ثوب واحد ثم اقتسموه بينهم  
 فى اناء واحد بالسوية فهم منى وأنا منهم (٢) » والاشعريون قبيلة من  
 العرب ينسب اليهم أبو موسى الاشعري .

وفى الحديث الصحيح : « من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث ،  
 ومن كان عنده طعام أربعة فليذهب بخامس أو سادس » (٣) .  
 وقد حدث فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم أن كان أبو عبيدة  
 عامر بن الجراح يجاهد مع ثلاثمائة من أصحاب الرسول صلى الله عليه  
 وسلم ففنى زادهم فأمرهم أن يجمعوا أزوادهم فى مزودين وجعل يقوتهم  
 اياها على السواء (٤) .

ولما كان عام المجاعة فى عهد عمر أرسل الى ولاية الامصار ليمدوه  
 بالطعام والاموال ، فأرسل له كل وال ما استطاع إرساله ، وكان يوزع  
 الطعام على الناس بالسواء ، ومما أثر عنه فى تلك المحنة قوله : لو  
 امتدت المجاعة لوزعت كل جائع على بيت من بيوت المسلمين فان الناس  
 لا يهلكون على أنصاف بطونهم ، ولكن الله كشف المحنة وعاد الرخاء بعد  
 ذلك الى البلاد .

هذا وأمثاله هو السند التشريعى لقانون الطوارئ وأحكامه .  
 ومن قوانين التكافل الاجتماعى القانون التالى :

## ١٧ - قانون التعويض العائلى :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أتاه فىء قسمه من يومه ،  
 فأعطى الأهل حظين ، وأعطى العزب حظا واحدا (٥) . فهذا هو مبدأ  
 التعويض للزوجة .

(٢) رواه البخارى ومسلم .

(٤) المحلى : ١٥٨/١

(١) بوفيات الاعيان : ١١٨/٦

(٣) رواه البخارى

(٥) الاموال لابى يعقوب : ٢٢٢

وكان الرجل اذا اراد أن يزوج وليس عنده ما يدفعه مهرا جاء الى الرسول صلى الله عليه وسلم يطلب منه المهر الذي يدفعه لزوجته .  
« جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله اني تزوجت امرأة من الانصار ، فقال عليه الصلاة والسلام : على كم تزوجتها ؟ قال على أربع أواق ! فقال النبي عليه السلام : على أربع أواق ! كأنما تنحتون الفضة من عرض هذا الجبل ! ما عندنا ما نعطيك ولكن عسى أن نبعثك بعثا تصيب منه (١) » .

وروى أبو عبيد أن عمر زوج ابنه عاصما وأنفق عليه شهرا من مال الله (٢) .

وكان عمر يفرض لكل مولود عطاء يزاد الى عطاء أبيه (مائة درهم) كلما نما الولد زاد العطاء ، وقد جرى عليه من بعد ، عثمان وعلى والخلفاء من بعدهم (٣) . فهذا هو التعويض للأولاد .

هذا عدا ما هو مقرر في الفقه الاسلامي من أن نصيب الفارس المجاهد في غنائم الحرب سهم وللفرس سهمان وبعض المذاهب تعطى الرجل سهمما ولل فارس سهمين ، وبعضها تعطيه - ثلاثة أسهم ، وما ذلك الا لما يتحمله الفارس من نفقات الفرس ، ولما دون عمر الدواوين كان يعطى الرجل على قدر حاجته كما كان يعطيه على قدر بلائه وخدمته للأسلام .

ومن ذلك يتقرر مبدأ التعويض العائلي على قدر حاجة الرجل وما يلزمه من نفقات .

(٢) و (٣) الاموال لابي بصير : ٢٣٧

(١) رواه مسلم

## ب - موارد نفقات التكافل

تلك القوانين التي وضعها الاسلام لتحقيق التكافل الاجتماعى بين المواطنين جميعا ، لا بد لها من موارد مالية لضمان تنفيذها والا ظلت نظرية بحتة ، وهذا ما عنى به الاسلام اتم عناية ، ولذلك جاءت القوانين المالية التالية جزءا من قوانين التكافل الاجتماعى :

### ١ - قانون الزكاة :

الزكاة هى الركن الثالث للاسلام وقد جاء الامر بها مقرونة بالصلاة فى نحو من ثلاثين موضعا ، وتجب فى الاموال النقدية وفى عروض التجارة بنسبة ٢.٥٪ وفى المواشى بنسبة كتلك : لنسبة تقريبا وفى ازروع والثمار بنسبة العشر فى الاراضى المروية من غير كلفة كالتى تروى بمياه الامطار والينابيع ، ونصف العشر فى الاراضى التى تروى بآلة ونحوها ، وهى تؤخذ من كل مال بلغ النصاب الشرعى لوجوبها وهو ٢٠ مثقالا من الذهب ( ما يعادل ١٢٥ ليرة ذهبية عثمانية ) أو ٢٠٠ درهم من الفضة ( تعادل ٧٠ ليرة سورية ) على أن يكون ذلك قد حال عليه الحول وهو زائد عن حاجات الانسان الأصلية التى يحتاج اليها لمعيشته ، فلا يدخل فى نصاب الزكاة دار السكن ، والثياب الخاصة للاستعمال والقوت المدخر لطعام العائلة ، والسلاح الخاص ، ودابة الركوب وكتب العلم - غير المتخذ للتجارة - وآلة العمل اليدوية التى يحتاج اليها المكتسب بيده كالمنشار والقدم ومقاييس الدراع والمتر وأمثال ذلك .

ويلاحظ فى الزكاة ما يلى :

١ - أن الزكاة يجب أن تصرف لفئات معينة نص عليها القرآن الكريم فى قوله تعالى : « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والفارمين وفى سبيل الله وابن السبيل (١) »  
٢ - انها ليست احسانا ولا منة ، بل هى حق اجتماعى تشرف الدولة على استيفائها وتوزيعها كضرائب التى تأخذها الدولة من المواطنين ، وفى ذلك يقول القرآن الكريم : « فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم (٢) »

ونص الشافعى على أن للفقير احقية استحقاق المال حتى صار بمنزلة المشترك بين صاحبه وبين الفقير ، ويجوز للفقير أن يأخذ مقدار الزكاة اذا ظفر به وكان صاحبه قد امتنع عن أدائه ، وفى هذا اخراج الزكاة عن أن تكون مظنة للذلة والمهانة للفقير كما يتوهم بعض الناس .

(٢) المعارج : ٢٤ و ٢٥

(١) التوبة : ٦٠ -

٣ - أن نصاب الزكاة هو من القلة بحيث يشترك جمهور الشعب في الاسهام بنفقات التكافل الاجتماعى . ولم تحصر بالاغنياء ذوى الثروات الكبيرة . وفى ذلك فوائد عظيمة . أهمها أن تكثير حصيلة الزكاة عن هذا الطريق يؤدى الى توسيع فى تمويل مشاريع التكافل الاجتماعى ومنها أن اشتراك جمهرة الشعب فى تمويل مشاريع التكافل الاجتماعى يبعث فى كل من اشتراك بذلك اعتزازا باسهامه فى هذا العمل الاجتماعى . وشعورا بالمسئولية وبأنه عضو عامل فى المجتمع يقوم بواجبه نحو اخوانه العجزة والفقراء .

٤ - أن نسبة الزكاة من المال - وهى اثنان ونصف بالمائة - نسبة مقبولة تسخو بها النفس طوعية واختيارا ، وهى مع ذلك تجمع حصيلة كبيرة جدا لانها نسبة من رأس المال والربح الناشئ عنه خلال السنة كلها .

٥ - أن الزكاة عامل من أهم عوامل توزيع الثروة وانتقالها بين أيدي الشعب خلال سنوات محدودة ، بحيث يكون ما يملكه الانسان بعدها ثروة جديدة أنشأها بجهده وعمله .

٦ - أن الزكاة عامل كبير من عوامل نشر الالفة والمحبة بين الناس وهو ما يحرص عليه الاسلام الذى يقيم وزنا للقيم الاخلاقية الانسانية .

٧ - أن زكاة كل بلد توزع فيها نفسها ، فاذا فاضت عن حاجة أهلها أرسل الفائض الى بيت المال المركزى لينفق على من يستحقونه فى البلاد الاخرى ، وهذا عامل رفع مستوى الشعب وتحقيق التكافل الاجتماعى فى جميع مناطق الدولة فى وقت واحد .

٨ - أن للزكاة ميزانية خاصة فى بيت المال بحيث لا تطفى على التكافل الاجتماعى النفقات الاخرى للدولة كما يقع الآن فى ميزانية الدولة فى عصرنا الحاضر :

## ٢ - قانون النفقات :

وهو يشمل نفقات

١ - الابوين وأصولهما :

٢ - الابناء وفروعهم .

٣ - الاخوة وفروعهم .

٤ - الاعمام والاهمات وفروعهم .

٥ - الاخوال والخالات وفروعهم

وفى بعض هؤلاء خلاف فى بعض المذاهب الاجتهادية .

٦ - الزوجات والمطلقات في العدة

٧ - الرقيق بحق مالكة

٨ - الحيوان بالنسبة للمالكة .

### والنفقة تشمل :

١ - الطعام والغذاء

٢ - اللباس والكساء .

٣ - السكن والمأوى

٤ - الاخدام للعاجز منهم والمريض

٥ - التعليم لمن كان بحاجة اليه

٦ - التزويج لمن كان بحاجة اليه .

٧ - الحاجات الاجتماعية المتعارف عليها (١)

### ٣ - قانون الوقف :

الوقف نوعان : ذرى « أهلى » وخيرى ، أما الذرى فالمقصود منه تأمين التكافل الاجتماعى لأقرباء الواقف وذريته ، ويجب أن يكون آخره الى جهة خير لا تنقطع كالفقراء والمؤسسات الاجتماعية ، وأما الخيرى فهو لتمويل التكافل الاجتماعى لجميع الجهات التى ذكرناها فى بحث التكافل . وقد كان للوقف - خلال العصور الماضية - دور رئيسى فى قيام المؤسسات الاجتماعية فى الوطن الإسلامى كما ستطلع عليه عند الكلام على الواقع التاريخى لاشتراكية الإسلام . ومن الواجب أن يستفاد من الوقف الآن فى تنفيذ قوانين التكافل الاجتماعى على وجه يضمن تحقيق العدالة الاجتماعية فى بلادنا لمختلف الفئات .

### ٤ - قانون الوصية

أجاز الإسلام أن يوصى الإنسان بثلث ماله لجهات البر والخير ، ويجوز أن يوصى بأكثر من ذلك اذا أجازت الورثة ، وفى بعض المذاهب الاجتهادية أن الوصية للأقرباء غير الواثرين واجبة بمقدار الثلث ، ومنه استمد قانون الأحوال الشخصية المعمول به فى سوريا ، وقانون الوصية المعمول به فى الجمهورية العربية المتحدة ، مبدأ الوصية الواجبة للحفدة المحرومين من الارث وهم الذين مات أبوهم فى حياة جدهم (٢)

### ٥ - قانون الفنائم

قال تعالى : « واعملوا انما غنمتم من شئ فان الله خمسة وللرسول ولدى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل (٣) » وقال تعالى : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولدى القربى

(١) انظر فى ذلك إبحث النفقات من كتابنا (شرح قانون الأحوال الشخصية) الجزء الاول

(٢) تنظر احكام الوصية ومنها الواجبة فى كتابنا (شرح قانون الأحوال الشخصية) ٥

(٣) لانفال : ٤١



واليتامى والمساكين (١) « وللعلماء آراء في التفريق بين الغنيمة والفىء وفى المراد ، من « الله وللرسول » ، وإيا ما كان فان الاسلام قد جعل من الفنائم الحربية التى يفنمها الجيش فى معاركه مع الاعداء نصيبا معيناً للتكافل الاجتماعى ، وهذا لا نعلم له مثيلا عند الأمم الأخرى فى القديم والحديث .

## ٦ - قانون الركاك :

ما يوجد فى بطن الأرض من معادن ونقود قد جعل الاسلام فيه نصيبا معيناً ينفق منه على التكافل الاجتماعى ، وللعلماء آراء واجتهادات حول التفريق بين الكنز والركاك وحكم ما يستخرج من باطن الأرض أو من أعماق البحار من معادن وغيرها يعرف من المراجع الفقهية (٢) .

## ٧ - قانون الندور :

قال تعالى : « وليوفوا نذورهم (٣) » فاذا نذر الانسان نذراً أن يتبرع لله بمبلغ وجب عليه الوفاء بنذره وكان سبيله الفئات المحتاجة للتكافل الاجتماعى . وأحكام الندور تعرف فى كتب الفقه .

## ٨ - قانون الكفارات :

قال تعالى : « لا يؤاخذكم الله باللغو فى إيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الإيمان فكفارتها أطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة (٤) »

وقال تعالى : يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا أنفسكم وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمداً فجزاء ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هدياً بالغ الكعبة ١ وكفارة طعام مساكين (٥) .

ويقول تعالى فى الصيام : « وعلى الذين يطبقونه فدية طعام مسكين (٦) » .

وقال تعالى فى الإحرام بالحج : « ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدى محله فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك (٧) » .

وقال تعالى فى كفارة الظهار : « فمن لم يستطع فاطعام ستين مسكينا (٨) » .

وفى الحديث الصحيح فى افطار رمضان عمداً بالجماع فى النهار ،

(٢) انظر مثلاً : البدائع ٥/٢

(١) الحشر . ٧

(٤) المائدة : ٨٩

(٣) الحج : ١٩

(٦) البقرة : ١٠٤

(٥) المائدة : ٩٥

(٨) المجادلة : ٤

(٧) البقرة : ١٩٦

التكفير عن ذلك بصيام شهرين متتابعين فاذا لم يستطع فاطعام  
ستين مسكينا ، وكذلك لحكم عند فقهاء الحنفية فيمن أفطر بالاكل من  
غير عذر .

وهكذا جعل الاسلام كفارة كثير من الذنوب اطعام الفقراء والمساكين  
أو كسوتهم . وهذا مورد كبير لتمويل مشاريع التكافل الاجتماعى

## ٩ - قانون الاضاحى :

قال تعالى : « فصل لربك وانحر (١) » نزلت في صلاة عيد الاضحى  
ونحر الاضاحى في العيد .

وفي الحديث : « يا ايها الناس على كل اهل بيت في كل عام ضحية » (٢).  
وللعلماء آراء في كونها واجبة أو سنة مؤكدة .

## ١٠ - قانون صدقات الفطر :

وفي الحديث الصحيح : « فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم  
زكاة الفطر من رمضان صاعا من تمر أو صاعا من شعير على العبد والحر  
والذكر والانثى والصغير والكبير من المسلمين (٣) » .

والاجماع على وجوبها ، والجمهور على وجوبها على الرجل وكل من  
تلزمه نفقته من زوجة وولد وخادم . كما أن الجمهور على جواز اخراج  
قيمة الصاع من التمر أو الشعير نقدا وهذا هو الراجح في البلاد التى  
لا تنتج تلك المزروعات ، وهو الانفع للفقراء ولزكاة الفطر احكام مفصلة  
في كتب الفقه .

## ١١ - قانون الخزينة العامة :

كانت واردات بيت المال في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم  
قاصرة على اموال الزكاة والعشور ( زكاة الزروع ) والفنائم ، وكانت  
تنفق كلها على المستحقين في قوانين التكافل الاجتماعى ، فلما اتسعت  
الدولة واتسع دخلها المالى في عهد عمر ، دون الدواوين فقيدت كل  
واردات الدولة كما سجل كل ذوى الاعمال وأصحاب الاعطيات  
والمستحقين وقال عمر قوله المشهورة « ما من أحد من المسلمين الا وله  
حق في هذا المال » ثم نظم الديوان بعد ذلك تنظيما أدق ، ورتبت أبواب  
ميزانية الدولة بحسب وارداتها ، وقسم بيت المال الى أقسام لكل نوع  
من الواردات بيت مال خاص به ينفق منه على فئات معينة ، ونذكر  
لك هذه الاقسام كما ذكرها الكسانى من علماء القرن السادس الهجرى .

ما يوضع في بيت المال من الاموال اربعة انواع :

(١) الكوثر : ٢

(٢) رواه احمد وابو داود والنسائى

(٣) رواه البخارى ومسلم وغيرهما

الاول : الزكاة بمختلف أنواعها وتصرف في الوجوه التي نص عليها القرآن الكريم في قوله تعالى « انما الصدقات للفقراء » الخ .

الثاني : خمس الفنائم والمعادن والركاز ويصرف الى الفقراء والمساكين واليتامى ومن كان في معانهم .  
الثالث : خراج الاراضى وجزية الرؤوس وما كان بمعناها وهذه تصرف الى عمادة الدين والمصالح العامة ومنها رواتب الولاة والقضاة واهل الفتوى من العلماء والجيش واصلاح الطرق وعمارة المساجد والرباطات ( للجهاد ) والقناطر والجسور وسد الثغور واصلاح الانهار العامة .

الرابع : ما أخذ من تركة الميت الذي مات ولم يترك وارثا أصلا أو ترك زوجا أو زوجة فقط « ويلحق به الضوائع التي لم يعرف أصحابها » وتصرف هذه الاموال الى دواء الفقراء المرضى وعلاجهم واكفان الموتى الذين لا مال لهم والى اللقيط وعقل الجناية والى نفقة من هو عاجز عن الكسب وليس له من تجب عليه نفقته ونحو ذلك ( ١ ) .

ومن ذلك يتبين أن تمويل مشاريع التكافل الاجتماعى ليست قاصرة على القوانين العشرة السابقة ، بل ان مهمة بيت المال الاساسية هى تحقيق التكافل الاجتماعى ، ولكن تلك القوانين لا تعطى حقا فى المال المجموع بحسب احكامها لغير المحتاجين للتكافل الاجتماعى ، بينما موارد بيت المال الاخرى تتسع لرواتب الموظفين ونفقات الدفاع والمشاريع العمرانية والمواصلات وغيرها . ويؤكد هذا ما ذكرناه من قول عمر رضى الله عنه « ما من أحد من المسلمين الا وله حق فى هذا المال » .

## ١٢ - قانون الكفاية :

يقول الله تعالى : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت ايمانكم ( ٢ ) » فهذه الآية دلت على وجوب الاحسان الى هذه الفئات .

وقال تعالى : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة . . » الخ الآية ( ٣ ) . وهذه الآية دلت على أن لهذه الفئات حقا فى المال سوى الزكاة بدليل أن الزكاة عطف عليها ، والعطف يقتضى المفارقة .

وروى عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق أن أصحاب الصفة كانوا أناسا فقراء وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من كان عنده طعام اثنى فليذهب بثالث ، ومن كان عنده طعام أربعة فليذهب بخامس

(١) البدائع : ٦٨/٢ ، ١٢٤/٧ مع تلخيص وبرنيب

(٢) النساء : ٣٦

(٣) البقرة : ١٧٧

أو سادس (١) « وهذا يقتضى وجوب اطعام الفقير على من كان يستطيع اطعامه ولا يجوز تركه عرضة للجوع .

وروى أبو سعيد الخدرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان له فضل من زاد فليعد به على من لا زاد له ، قال أبو سعيد : فذكر رسول الله من أصناف المال ما ذكر ، حتى رأينا أنه لا حق لاحد منا في فضل (٢) » :

وعن عمر بن الخطاب : لو استقبلت من أمرى ما أسئدتبرت لآخذت فضول أموال الأغنياء فقسمتها على فقراء المهاجرين (٣) « وعن على رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان الله فرض على أغنياء المسلمين فى أموالهم بقدر الذى يسع فقراءهم ( أى ما يحتاج اليه الفقراء ) ومن يجهد الفقراء آذا جاعوا وعروا الا بما يصنع أغنيائهم ، الا وان الله يحاسبهم حسابا شديداً ويعذبهم عذابا اليما »

من هذا كله يتبين لنا انه اذا لم تكف الزكاة والقوانين المالية الاخرى لسد حاجات التكافل الاجتماعى ، ولم يكن فى بيت المال ما يقوم بتلك الحاجات فقد انتقل واجب القيام بها الى أموال الناس بحيث يؤخذ منها ما يسد تلك الحاجة مهما استنفدت من تلك الثروات .

قال ابن حزم : وفرض على الأغنياء من أهل كل بلد أن يقوموا بفقرائهم ، ويجبرهم السلطان على ذلك ان لم تقم الزكوات بهم ، ولا سائر أموال المسلمين ، فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذى لا بد منه ، ومن اللباس للشتاء والصيف بمثل ذلك وبمسكن يكنهم من المطر والشمس وعبون المارة ، ثم استدل لذلك بما ذكرنا من الآيات والآثار وغيرها من أعمال وأقوال الصحابة والتابعين ، وادعى اجماع الصحابة على ذلك بما ذكرناه فى قانون الاسعاف من صنيع أبى عبيدة حين نفذ زاد أكثر من معه من الصحابة وكانوا ثلثمائة ، فخلط أزوادهم بعضها ببعض وقاتهم اياها على السواء (٤) .

وهذا الذى ذكره ابن حزم هو ما تؤيده قواعد المذاهب الاجتهادية، وقواعد الشريعة العامة ، ومبادئ الحقوق الخمسة التى ذكرناها .

وبعد فهذه هى تسعة وعشرون قانونا لتحقيق التكافل المعاشى لم تترك انسانا فى المجتمع دون أن يتمتع بحق التكافل المعاشى ودون أن ينال من عناية المجتمع ما يطمئن به الى حاضره ومستقبله ومستقبل عائلته وأولاده ، وقد رأينا أنه وضع من هذه القوانين اثنا عشر قانونا لتمويل التكافل المعاشى بحيث تضمن تنفيذ قوانينه تنفيذا دقيقا شاملا لا نعهد له مثيلا فى الشرائع والقوانين لدى أمة من أمم الأرض قاطبة . وقبل أن نختم هذا البحث نحب أن نذكر بعض المقارنات المتعلقة بالتكافل الاجتماعى .

(١) رواه البخارى

(٢) رواه مسلم .

(٣) رواه ابن حزم وقال : هذا اسناد فى غاية الصحة والجلالة

(٤) انظر المحلى : ١٥٦/٦

## حقائق عن التكافل الاجتماعي

### عندنا وعند الفريين

نرى من المناسب هنا أن نذكر بعض الحقائق عن تشريعات التكافل الاجتماعي عندنا وعند الفريين ليتبين مدى فضل اشتراكية الاسلام في سبقها الى تقرير مبدأ التكافل الاجتماعي وتشريع الاحكام اللازمة له عندنا :

- ١ - ولد الرسول عليه السلام عام ٥٧١ م
- ب - بدأت الرسالة ونزول القرآن عام ٦١٠ م
- ج - في آخر العهد المكي فرضت الزكاة وأعلن القرآن الكريم أنها حق الفقراء وذلك حوالي عام ٦٢٠ م
- د - وقعت الهجرة عام ٦٢٢ واستقر الرسول في المدينة وتأسست الدولة الاسلامية الاولى بقيادة الرسول في تلك السنة .
- ز - وفي «٦٢٢» بدأ تنفيذ نظام الزكاة والتكافل الاجتماعي .
- هـ - توفي الرسول عليه السلام ٦٣٢ بعد أن أصبحت الجزيرة العربية كلها تخضع للإسلام وأحكامه
- و - بعد وفاة الرسول قامت حروب الردة داخل الجزيرة وخاضت الدولة الاسلامية المعارك ضد مانعي الزكاة وأصرت على تنفيذها لتحقيق نظم التكافل الاجتماعي .

### عند الفريين :

- ١ - كان العالم كله وخاصة في الغرب يعتبر اسعاف الفقير مقتصرًا على الاحسان الاختياري الذي يترك لارحية الاغنياء ، وكانت مهمة رجال الدين والمصلحين الاجتماعيين أن يثيروا شفقة الاغنياء ليرحموا الفقراء ، واستمر هذا حتى القرن السابع عشر .
- ٢ - في القرن السابع عشر - أي بعد نزول القرآن بعشرة قرون - بدأ الغرب يفكر في أن للفقراء « حق » على المجتمع .
- ٣ - كانوا يرون أن هذا الحق من وظائف الجمعيات والهيئات المحلية التي كانت تقوم باطعام الفقراء واستمر هذا حتى أواخر القرن التاسع عشر .
- ٤ - ثم تنبهوا الى أن عمل الجمعيات والهيئات لا يفي بالحاجة ولا يتسع لكل الفقراء ، ولا يسعف الفقراء بكل ما يحتاجون ، فبدأوا يفكرون في أنه يجب أن يكون من وظائف الدولة . وكانت أول دولة في الغرب بدأت تعنى بتنظيم الضمان الاجتماعي هي ألمانيا اذ أصدرت أول قانون لذلك عام ١٨٨٣ أي بعد قيام الدولة الاسلامية الاولى بهذا الواجب بألف ومائتي ستة واحدى وستين سنة !

٥ - ومع ذلك فالذى حصل أن الدولة الألمانية لم تنظم اعانة جميع الفئات المحرومة من الضمان الاجتماعى مرة واحدة ، بل تم ذلك على مراحل ، فأول قانون أصدرته عام ١٨٨٣ كان ضد الاضرار التى تطرأ للعمال الصناعيين اثناء العمل ، ثم أصدرت عام ١٨٨٩ قانون التأمين ضد المرض والشيخوخة لعمال الصناعة والتجارة والزراعة ، وفى عام ١٩١١ أصدرت قانونا لتأمين المستخدمين ضد العجز والشيخوخة والوفاة وفى عام ١٩٢٣ أصدرت قانونا لتأمين عمال المناجم ضد العجز والشيخوخة .

واقترنت هنا على تاريخ تطور التأمين الاجتماعى فى ألمانيا وحدها ، لأنها كانت أسبق دول الغرب تليقيا بهذا العمل ، ثم تبعها بعض الدول السكندنافية بينما عارضت الدول اللاتينية وبريطانيا فى بادىء الامر معارضة شديدة فكرة الضمان الاجبارى ، ثم اقتنعت به منذ عام ١٩٠٨ كثير من دول أوروبا وأمريكا .

٦ - لم يصبح مبدأ التكافل الاجتماعى حقا لجميع فئات الشعب الا فى هذا القرن حيث بلغ فى عام ١٩٣٣ عدد الدول التى اعتنقت هذا المبدأ اثنين وستين دولة ، أى أن هذا المبدأ أصبح مسلما به لدى أكثر دول العالم بعد وفاة مؤسس الدولة الاسلامية رسول الله صلى الله عليه وسلم بألف وثلاثمائة سنة ، وسنة ! (١) .

٧ - ونحب أن نشير أيضا الى أن أكثر الدول التى تعتنق مبدأ التكافل الاجتماعى تشترط اشتراك الذين تشملهم قوانين التكافل بجزء معين من دخلهم الشهرى أو الاسبوعى قبل أن يستحقوا فوائد التكافل الاجتماعى . بينما الامر فى الاسلام وكما طبقته الدول الاسلامية فى مختلف العصور لا يطلب من الفقير أو العاجز دفع مبلغ ما ، بل الدولة تقوم بهذا العمل دون مقابل ، وهذا أمر له دلالة فى هذا المقام ٨ - ونختم هذه الملاحظات بأن تفكير الدول الغربية بالتكافل الاجتماعى ثم تفكير الشيوعية بعد ذلك بحل المشكلة من أساسها انما كان تحت ضغط التطور الصناعى وانتشار موجات السخط فى أوساط العمل وأفراد الشعب ، أن أوروبا لم تفكر فى تأمين العمال ضد البطالة الا بعد الازمة الاقتصادية التى عانتها أوروبا منذ عام ١٩٢٩

بينما أعلن الاسلام نظامه الكامل الشامل للتكافل الاجتماعى قبل ثلاثة عشر قرنا دون أن تكون هنالك فى البيئة العربية - التى ظهر فيها الاسلام - عوامل اقتصادية اضطرت الاسلام لاعلان هذا النظام ودون أن يصدر ذلك عن حقد من فئة نحو فئة أو رغبة فى انتزاع المال والسيطرة عليه انتقاما من الاغنياء والاثرياء ، بل هى نزعة انسانية عميقة قبل أن ينتبه لها ضمير العالم ، وتنظيم دقيق شامل قبل أن يهتدى الى قريب منه عباقرة العالم بثلاثة عشر قرنا ، ولعل فى هذا مايقنع الذين لا يريدون أن يعترفوا بأن محمدا رسول الله وأن الاسلام دين الله !

(١) رجعنا فى هذا البحث الى نشره جامعة الدول العربية عام ١٩٥٢ عن وسائل تنظيم التكافل الاجتماعى فى الدورة الثالثة لعلقة الدراسات الاجتماعية للدول العربية والى بحث السيد دانييل س . جريج من منظمة العمل الدولية الذى القاه فى تلك الدورة والى مراجع اخرى .

المؤيدات





لم يكتف لاسلام بما شرعه من المبادئ العامة الاستراتيجية وتقريره الحقوق الطبيعية وتنظيمه للتكافل الاجتماعى بمعناه الواسع وما اتى به من القوانين لتنظيم التكافل الاجتماعى فى معناه الواسع . عن طريق القوانين التى ذكرناها ، ولكنه دعم ذلك كله بمبادئ ومرغبات وزواج تحمل الناس على تنفيذ تلك المبادئ والقوانين ، وهنا يأتى بحث « المؤيدات » فى هذه النظرية ، وقد كان فقهاؤنا الاقدمون يتحدثون عنها باسم « الزواجر » أحيانا ، وباسم « الترغيب والترهيب » أحيانا .

ويطول بنا البحث لو تكلمنا عن « المؤيدات » التى وضعها الاسلام لدعم نظريته الاشتراكية فى جميع أحكامها وقوانينها ، ولكننا نجتزئ هنا « بالمؤيدات » المتعلقة بنظم التكافل الاجتماعى وخاصة « التكافل المعاشى » .

تنقسم المؤيدات فى هذه الناحية الى أربعة أنواع :

- ١ - اعتقادية أى هى جزء من عقيدة المسلم لا يتم اسلام المسلم الا بها .
- ٢ - واخلاقية أى هى جزء من النظام الاخلاقى فى الاسلام فلا يكمل خلق المسلم الا بها .
- ٣ - ومادية أى منع الناس من مخالفة تلك الاحكام والقوانين أما بالعقوبة الزاجرة ، وأما بالسلاح والحرب .
- ٤ - وتشريعية أى وضع مبادئ عامة لسن القوانين التى يحتاج اليها المجتمع فى مختلف العصور تحقيقا للتكافل الاجتماعى بحسب تطور الأوضاع والظروف الاجتماعية ، ولنتحدث عن كل نوع من هذه الانواع حديثا موجزا تبينا للفكرة وضربا للامثال .

### ١ - المؤيدات الاعتقادية :

١ - يقرر الاسلام أن الله خالق الكون ومدبر الامر ، وهو الرقيب على أعمال الانسان ، العليم بسلوكه ونيته ، وسيرجع اليه ليحاسبه على ما فعل من خير أو شر « ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الارض ، وما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم ، ولا خمسة الا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر الا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة (١) » ، « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره (٢) » .

ومن الخير تطبيق هذا النظام ، ومن الشر اهماله او الاعراض عنه ، فإين يذهب المؤمن اذا أراد أن يفر منه أو يتلاعب بأحكامه ؟  
٢ - ويقرر أن الله عادل لا يظلم المحسن ولا يثيب المسيء « ولا يظلم ربك أحدا (٣) » ، « أن الله لا يضيع أجر المحسنين (٤) » « أن الله لا يصلح عمل المفسدين (٥) » .

(٢) الزلزلة : ٧ ، ٨

(٤) التوبة : ١٢٠

(١) المجادلة : ٧

(٣) الكهف : ٩٩

(٥) يونس : ٨١

ومن عدالته أن الأمم التي تتمسك بشرعه فتتراحم فيما بينها ويعطف بعضها على بعض ، يحييها حياة طيبة ، والأمم التي تنحرف فيظلم بعضها بعضا ويأكل بعضها حق بعض ، يتليها بالخوف والجوع ونقص من الأموال والنفوس والثمرات .

« وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون (١) » ، « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا (٢) » « ولو أن أهل القرى آمنوا وانفقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض (٣) » .

٣ - أن الرزق بيد الله قد قسمه بين عباده منذ الأزل وكتب لكل إنسان نصيبه منه ، وهولا ينال إلا بسعي وعمل ، فلا يقعد الإنسان عن طلبه ، ولا يسلك السبل الظالة للاستكثار منه « نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا (٤) » .

« أن نفسا لن تموت حتى تستكمل أجلها وتستوفى رزقها فاتقوا الله واجملوا في الطلب (٥) » وهذا من أبلغ ما يحمل المؤمن المتدين على تنفيذ نظام الشريعة في التملك والانفاق وتأدية ما أمر الله أن يؤدي من المال لحق المجتمع والدولة .

٤ - أن الله يحق المال المجموع من الظلم والفسق ، والمال الذي يمنع منه حق الفقراء والمساكين ، ويبارك في المال الذي يجمع من الحلال وينفق في وجوه الخير .

« وما آتيتكم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله ، وما آتيتكم من زكاة تريدون بها وجه الله فأولئك هم المضعفون (٦) » « بمحق الله الربا ويربي الصدقات (٧) »

فما أروع هذه المقارنة في آية واحدة !

٥ - ليس للإنسان من ماله إلا ما استفاد لنفسه في حياته الدنيا ، أو أنفق منه في الخير فثوابه له في الآخرة ، وما عدا ذلك فليس في الحقيقة مالكا له ، إنما هو حارس يحرس لورثته ، يحاسب عليه ويجنى غيره فائدته « يقول العبد مالى مالى ، وإنما له ماله ما أكل فأفنى أو لبس فأبلى أو أعطى فأفنى وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس (٨) » .

## ب - المؤيدات الاخلاقية

١ - رغب في العدل والاحسان وحذر من الظلم والبغى والفحشاء  
« أن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن

(٢) الاسراء : ١٦

(٤) الزخرف : ٣٢

(٦) الروم : ٣٩

(٨) رواء مسلم

(١) هود : ١١٧

(٣) الاعراف : ٦٩

(٥) رواء الحاكم والطبراني

(٧) البقرة : ٢٧٦

## الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون (١) « •

٢ - حث على الانفاق والسخاء ومدح الكرم والكرماء ، ونفسر من الشح وذم البخلاء « السخى قريب من الله قريب من الناس والبخيل بعيد من الله بعيد من الناس » (٢) •

## « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون (٣) »

واليك هذا النموذج الرائع من الترغيب في الانفاق يسلك فيه القرآن كل سبيل الى النفس الانسانية ليحملها على الانفاق ويبعدها عن البخل ، ويحلل البخل والكرم وعواملهما في النفس الانسانية وآثارهما تحليلًا رائعًا في آيات قليلة متتاليات ، تملك على المؤمن لبه وقلبه فلا ينتهى من قراءتها حتى تفتتح نفسه للجد بكل ما يملك ابتغاء مرضاة الله وطمعا في جنته وثوابه :

١ - يبدأ القرآن بالحث على الانفاق في سبيل الخير بتشويق النفس الانسانية الى الربح الذي تناله من جراء انفاقها المال في سبيل الله ، وهو ربح يفوق ما اعتاده الناس من الربح في معاملاتهم ، فان عادة التجار ان يفرحوا اذا ربحوا خمسة بالمائة أو عشرة مثلا ، ولكن الربح المعنوى في الانفاق يبلغ عند الله أضعاف ذلك عشرات المرات فيقول :

« مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل ، في كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم (٤) » •

فهذا أجمل مدخل الى النفس الانسانية التى تغلب عليها طبيعة التجار : دفع القليل ، واخذ الكثير !

٢ - ثم يبين بعد ذلك أن هذا الانفاق الرابع لا يكون الا لمن خلصت نيته ، وسمت نفسه عن المن بما أنفق ، والإيداء لمن أنفق عليه ، كما يقع من أكثر «المحسنين المرائين» ، فان مثل هذا الانفاق يؤدي كرامة المجتمع وكرامة النفس الانسانية ، ويؤدي الى العداوة والبغضاء ، أما الذين ينفقون لوجه الله ثم لا يؤذون ولا يمتنون فهؤلاء هم الذين ضمن الله لهم ذلك الاجر وشملهم برحمته وعنايته ، فلا يخافون ولا يحزنون ، وفي ذلك يقول :

« الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منها ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون (٥) » •

٣ - ثم يتعرض لهؤلاء الذين يتبعون انفاقهم بالمن والاذى ، بأنذره هذا الانفاق لآخر فيه ، وأن خيرا منه قول جميل ، ومفخرة لاساءة المسيء.

(٢) رواه الترمذى

(٤) البقرة : ٢٦١

(١) النحل : ٩٠

(٣) الحشر : ٩٠

(٥) البقرة : ٢٦٢

شان الله الغنى عن عباده ، يعطيهم ولا يسئ اليهم في عطائه بل يحسن على المسئ منهم تفضلا وكرما ، واذا كان هذا شأن الاله الفنى عن عباده ، فما بالك بالعبء الذى لا يستغنى عن الناس ولا يستطيع العيش معهم بالاذى فى القول والشعور ، وفى هذا يقول الله تعالى :

« قول معروف ومفخرة خير من صدقة يتبعها اذى والله غنى حليم (١) » .

٤ - تم زاد على ذلك بتقرير حقيقة أخرى ضرب لها الامثال : وهى ان الانفاق الذى يخالطه الاستكبار على الناس ، وايداؤهم بالن عليهم ، هو باطل الاجر عديم الفائدة ، شأنه فى ذلك شأن الذى ينفق المال ليتحدث الناس عنه فى المجمع ، ويسبغوا عليه من المديح والثناء عليه ، بالاحسان والفضل والكرم ما تتطلع اليه النفوس الصغيرة التى فقدت ايمانها بالله ، والرغبة فى ثوابه فى الدار الآخرة ، ان المنفق المنان والمنفق المرائى كلاهما ليس لهما اجر على انفاقهما ، هذا ابطال عمله بريائه ، وذلك ابطله بايذائه ، وما مثلهما الا كمثل صخرة ملساء غشيتها طبقة خفيفة من التراب ، فيظنها الرانى ارضا منيته طيبة ولكنها فى حقيقتها صخر لاينبت ، وسرعان ما يكشف عنه المطر الوابل تلك الطبقة الخفيفة من التراب ، فيبدو للانظار على حقيقتها ، وهكذا نفس المرائى أو المنان نفس ليس فيها للخير جدور مثبتة وسرعان ما تبدو مقاتلتها للناس عند أول شدة فاذا هى صماء لا تنبت برا ، ولا تبذل خيرا .. والى هذه المعانى كلها تشير الآية الكريمة التالية :

« يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمال والاذى كالذى ينفق ماله رياء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ، فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صادداً ، لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين » (٢)

٥ - أما النفس التى تبذل الخير لوجه الله ، ورجاء أجره وثوابه ، بدلا منبثقا عن انسانية كريمة برة رحيمة ، ولا تريد جزء ولا شكورا ، فهى فى تدفقها بالبذل تدفق ينبوع الذى لا ينضب ولا يفيض ، فوق ربوة عالية غنية بالطبقات الترايية المنبتة ، ان أصابها مطر شديد آتت أكلها ضعفين ، وان أصابها المطر الخفيف أو أطلها الندى ، آتت أكلها فيه غناء وفائدة .. هكذا النفس المؤمنة المحتسبة أجر الله وجنته : نفس غنية بدوافع الخير وبدوره ، لاتنقطع عنه فى يسر أو عسر ، ان كثر ما فى أيديها من المال أشاعت الرغد والرفاهية فيمن حولها ، وان قل مالها لم تبخل ولم تنقبض ، بل بذلت ما فى وسعها لاسعاف المحتاجين وانقاذ البائسين ، ثم هى لا تبالى ببناء الناس ولا بدمهم ، تبر الانسانية المفجوعة ولو لم تلق كفاء برها من ثناء وتأيد ، أو اقيت منهم ما لقيت من ذم وجحود .

هذا هو المعنى الذى جاءت الآية التالية تشير اليه :

« ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم  
كمثل جنة بربوة أصابها وابل فأتت أكلها ضعفين ، فإن لم يصبها وابل  
فطل والله بما تعملون بصير(١) » .

مثلان رائعان فيهما تحليل نفسى رائع لكل من النفس المرائية فى  
انفاقها ، والنفس المخلصة التى تبتغى وجه ربها ، قد عبر عنهما بأسلوب  
بليغ معجز ، فتبارك منزل هذا الكلام على النبى الأسمى الأمين .

٦ - وليس آلم للنفس ولا أدعى الى اندعر من أن يعمل الانسان  
عملا ثم يفقده أحوج ما يكون اليه . . وليس هو الا المرائى والمنان  
حتى اذا جاءه يتفقده فى قلوب الناس وجد الأذى والمن قد أفسده ومحا ،  
واذا جاءه يتفقده عند الله وجد الرياء أطاح به كما تطيح الريح العاصفة  
بزرع يابس . . أفترى مثل هؤلاء لو أن أحدهم كانت له جنة فيها من  
الأشجار والثمار ماغلا وطاب وقد بذل فيها جهده من عمل وانفاق ورعاية  
وامتد به الكبر حتى أوفى على الموت . . وله أطفال صغار يحرص على أن  
يخلف لهم ما يكفيهم الحاجة والعوز والسؤال . . فما هى الا ربح عاصفة  
مسمومة فيها نار تجتاح الجنة وأشجارها فيفقدها أحوج ما يكون اليها فى  
نهاية عمره ، ويفقدها اولاده أحوج ما يكونون اليها فى مستقبل أيامهم  
. . وأى انسان يتمنى هذه النهاية لجهد الحياة وهو على آخر خطوة من  
الحياة ؟! . .

تلك هى نهاية الذين لا يجودون الا ليسمعوا الثناء يصم آذانهم ، ولا  
ينفقون الا ليؤذوا المجتمع باحسانهم منا واستكبارا واستعلاء . . انها  
النهاية التى تذهب بالمال والثناء والشواب معا ، فيالها من نهاية مفجعة  
يرجو السلامة منها كل عاقل ! واليها تشير الآية التالية :

« أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل واعناب تجرى من تحتها  
الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها  
أعصار فيه نار فاحترقت ، كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون(٢) »

٧ - حسب النفس المؤمنة هذا الترغيب والتوجيه وضرب الامثال . .  
وها هى تميل الان الى الانفاق . . فمن أى أنواع المال يجب أن تنفق ؟  
. . ان النفوس الخيرة لا تنفق الا من خير المال وأطيبه حتى يقع  
الانفاق موقعه فى المجتمع والافراد . . انها تأبى أن تنفق من خبيث المال  
أو الطعام ما لو عرض عليها لابت أخذه تأفقا وانتقاصا لقيمته . . والكريم  
من الناس من يعاملهم بما يجب أن يعاملوه به . . أفلا يرى المؤمن ان الله  
غنى تملأ رحمته الدنيا كلها ويهب الناس ما يحمدونه عليه ويشكرونه  
من أجله . . هذا مع استغنائه عن حمدهم وثنائهم . . ولكن الكامل من

أعطى ما يحمد عليه وبذل ما يقع فى القلوب موقعا جميلا ، وفى ذلك يقول الله تعالى بعد ذلك :

« يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بأخذيه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غنى حميد (١) » .

٨ - لم يبق لاندفاع المؤمن نحو بذل المال الطيب مخلصا لله وجهه إلا خاطرة قد تلم بالنفس الانسانية كلما همت بالانفاق . . تلك هى أن المال انما يجمعه الانسان بجهده وعمله . فكيف يعطيه من لم يتعب فيه ولم يشارك فى جمعه ؟ والانسان معرض فى الحياة للنكبات فلماذا لا يمسك عن البذل خشية الفقر والفاقة فى المستقبل ؟ وما الذى يربطه بهؤلاء الفقراء من روابط حتى يؤثرهم على نفسه وعلى أولاده فيعطيههم ما يحرم منه نفسه وأولاده ؟

أنها خواطر تلم بكل نفس انسانية حين يخطر لها خاطر الانفاق . . ولكنها خواطر سوء وفحشاء . . وأى سوء وفحشاء اكبر من أن لا يذكر الانسان فى الحياة الا نفسه وأولاده ؟ وأية فاحشة أشد من أن يقبض المال وهو فائض عن حاجته الضرورية وحاجة أهله ، عمن هو محتاج اليه ليقيم ضرورات الحياة وليدفع عن نفسه وأهله آلام الفقر والجوع والمرض والضعف ؟ . .

انها وسوسة الشيطان تخوف المنفق من الفقر وتأمره بالامساك . . والقسوة والاثرة . . وليس لهذا من أثر فى واقع الحياة وفى دنيا الخير والخلق الكريم فالثمة هو الرزاق المنعم يعطى خيره من يستحقه ومن لا يستحقه . أفينزل المنفقين الذين يرون الانسانية المعذبة ابتغاء وجه الله ومرضاته غرضة للآلام والفقر ونكد الحياة ؟ . ان عدالة الله تأبى ذلك . . وما المنفق الا مقرض لله ما ينفق والله يرد القرض بأحسن منه ففيم يخشى المؤمن الفقر وكيف يعيش فى جو من القسوة والبخل والانانية ؟ « الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم (٢) » .

٩ - أترى المؤمن حين تلم به خواطر السوء من بخل وامساك ؟ يستجيب لها وهى وسوسة الشيطان ووعده الكاذب ؟ أم يستجيب لآيمانه ولنداء ربه ولوعده الحق ؟ ان المؤمن من وثق بالحق وكذب بالباطل ، وأثر غيره على نفسه ولم يؤثر نفسه على غيره ، امتد بصره الى آفاق أوسع من نفسه وبيته وعائلته . آفاق العيش فى عالم سعيد تغمر السعادة أبناءه جميعا . . ذلك هو الايمان وتلك هى الحكمة من أوتيتها فقد أوتى خيرا كثيرا وما يؤتاها الا من علم الله منه سلامة الفطرة وصدق اليقين وبعد النظر .

« يُوْتَى الْحِكْمَةُ مِنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أُولَئِكَ الْآلِبَابُ (١) » •

١٠ - ١١ - الآن تهيات نفس المؤمن للبذل رغبة في ثواب الله معروضه عن دسائس الشيطان لا تخشى من البذل فقرا ولا اقلا - فكيف يكون انفاقها ؟ • اتعلمه فيكون في الاعلان تشجيع للخير وبث للامل والتفاؤل في نفوس البائسين ؟ • أم تخفيه عن أعين الناس ليكون أقرب الى الاخلاص وابتعد عن الرياء ! • كلا الامرين خير ولكن الاخفاء خير من الاعلان حتى يتمحض لله خالصا من كل شائبة تكدر صفوه وتجعل للنفس فيه حظا غير محمود ، والله لا تخفى عليه خافية من عمل العبد وانفاقه • ورضا الله وحده هو المقصود بعمل الخير والبر والرحمة فليترك ذلك لله وحده يطلع عليه فيثيبه ، ويأخذ ويخلف خيرا منه ، ويستقرضه فيرده أضعافا مضاعفة « وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه وما للظالمين من أنصار ، ان تبذلوا الصدقات فنعمنا هي وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير (٢) » •

١٢ - فاذا عزم على الانفاق مخلصا لله مبتغيا وجهه فلمن يكون الانفاق ؟ ان في المحتاجين البر والفاجر ، وفيهم القريب والبعيد ، وفيهم العامل المجاهد الذي وهب للخير نفسه فلم يسلك لجمع المال سبيلا ، وفيهم من أخذ يضرب في الارض ليكتسب لسدا ما يكفيه فلم يكن في كسبه ما يكفيه فلائى هؤلاء يعطى ؟

أما العدالة فهو أن يسوى بين المحتاجين برهم وفاجرهم عاملهم ومقصرهم • فليس مجال العقوبة على المعصية والتقصير أن يمنح حق الحياة في العيش الكريم ، وليس الناس هم الذين يزعمون لانفسهم حق العقوبة على المعصية والتقصير ، انما الله وحده هو الذى يملك هذا الحق وقد يكل الى المجتمع عقوبة التأديب والمؤاخذه الا أن ذلك لن يكون بالتضييق في العيش والحرمان من ضرورات الحياة • وفائدة الانفاق الخالص لوجه الله تعود على المنفق نفسه ويوفى اليه وحده الاجر ، فما يبالي أين يضع صدقته ما دام ذلك لله وفي عباد الله « ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء وما تنفقوا من خير فلانفسكم وما تنفقون الا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوف لكم وانتم لا تظلمون (٣) » •

١٣ - وأما ما فوق العدالة فهو أن يتوخى بالانفاق أكثر الطبقات المحتاجة نفعا للمجتمع واستمساكا بعري الفضل والحياء والكرامة فلا يسألون الناس مع حاجتهم ، كهؤلاء الذين يتفرغون للعمل العام ولخدمة المجتمع وللدفاع عن كرامته وسيادته ، ثم يلوذون بحمي مئيع من العفة والحياء •

« للفقراء الذين احصوا في سبيل الله لا يستطيعون ضربا في الارض

(٢) القرء ٢٧٠ ، ٢٧١

(١) البقرة : ٢٦٩

(٣) البقرة ٢٧٢

يحبسهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس  
احقادا وما تنفقوا من خير فان الله به عليم (١) » •

١٤ - الى هنا بلغ القرآن غايته في تشويق المؤمن للانفاق وحثه  
على السخاء وتخليص انفاقه من شوائب المن والاذى والرياء وعلمه كيف  
ينفق وكيف يضع النفقة في مواضعها ، ورضيه في ذلك ترغيبا يجعله يؤثر  
رضى الله ومغفرته وثوابه والبر باخوانه وأبناء قومه على كل ما فى الحياة  
من لذة ومال وشهوة • لا جرم بعد ذلك أن تصبح نفس المؤمن متفتحة  
للخير من جميع أبوابه ، مندفعة الى الايثار الى منتهى غاياته ، لا جرم أن  
تصبح نفسه مستعدة لان تتلقى بكل رضى وأطمئنان ومبادرة الى الطاعة  
والتنفيذ ، قول الله تعالى يطلب الانفاق فى كل حالة من حالات الانسان :  
ليله ونهاره سره وعلايته « الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا  
وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون (٢) » •

١٥ - وبعد أن أعطى القرآن الصورة الواضحة للانفاق الذى يحبه  
الله وينتفع به المجتمع ، ذكر صورة أخرى تقابل تلك الصورة كما هو  
شأن القرآن فى مثل هذه المناسبات - ليكمل الاقناع والحث على الانفاق  
والترغيب فيه •• تلك هى صورة المرابين الذين يأخذون من المجتمع  
ولا يعطونه ، يأخذون من الفقير الذى يحتاج للاخذ ، ومن المضطر الذى  
يحتاج للعون •• صورة كريهة بغيضة ، صورة « الذى يتخبطه الشيطان  
من المس (٣) » •

صورة يقترن بها الوعيد والتهديد كما اقترن بالانفاق الترغيب  
والتشويق ، تهديد من الله ورسوله بحرب المرابى الى أن يرد الى الناس  
كل ما أخذ منهم •

هذا مثل من أمثلة المؤيدات الاخلاقية يدلنا على أسلوب القرآن البالغ  
الذى يؤدي من غير شك الى بذل المال للفئات التى تحتاج اليه •

٣ - وقد سلك القرآن مسلكا آخر يؤدي الى تلك الغاية ذاتها ، ذلك  
هو مسلك القصص الذى استعمله القرآن للترغيب فيما يدعو اليه ،  
وللترهيب عما ينهى عنه ، ولنضرب لذلك بعض الامثلة :

فقد جاء فى سورة القلم قصة قصيرة تصور نتيجة الامسآك عن  
الفقراء وحرمانهم من حقوقهم فى أموال الأغنياء ، صورة مؤثرة توتد لها  
فرائص المؤمنين المومنين ••

انها قصة رجل يملك جنة وارفة الظلال ، موقرة بالفواكه والثمار.  
كان قد اعتاد عند جذاذها وقطافها أن يعطي الفقراء والمساكين - فى كل  
موسم - نصيبا منها ، ثم مات الرجل ورأى اولاده بعد وفاته أن يمنعوا  
أولئك الفقراء والمحتاجين نصيبهم الذى كانوا يأخذونه فى كل موسم •  
مبررين ذلك بيتهم وبين أنفسهم بما يبرر به كل بخيل وظالم بخله

(٢) البقرة : ٢٧٤

(١) البقرة : ٢٧٣

(٣) البقرة : ٢٧٥



وشحه ، من أن هؤلاء الفقراء لا حق لهم في مال لم يتعبوا بجمعه ولا بقرمه وزراعته . كذلك أجمعوا على حرمان أولئك من نصيبهم في البستان إلا أخالهم وسطا في عمره بينهم نهاهم عن ذلك ، فأصروا على الظلم ، وبيتوا أمرهم على أن يقطعوا الشمار عند منبج الصبح قبل أن يتعالق الفقراء بذلك ويحضروا لأخذ نصيبهم ، ولكن الله كان أبر بالمحتاجين من أن يتركهم لعنت الظالمين وشحهم ، فأرسل إلى جنتهم بلاء في غمرات الظلام ، فاقتلع أشجارها ، وأطاح بها فغدت قاعا صاففا كان لم تغن بالامس .

ويذهب الاخوة في صباحهم مبكرين إلى حديقته حتى اذا وصلوا إلى مكانها لم يروا لها أثرا ، فالتبس عليهم الامر وظنوا انهم قد ضلوا الطريق إليها ، فلقد تركوها بالامس خضراء دائية القطوف والظلال ، فأين هي ؟ وأين أشجارها وثمارها ؟ وأين مياهها وأنهارها ؟

وفي وسط هذه الحيرة يرددهم أخوهم إلى رشدهم ، ويؤكد لهم انها هي جنتهم ولكن الله حرمهم منها منذ عزموا على حرمان الفقراء والبائسين من نصيبهم المعتاد فيها ، وأرادوا أن يلقي بعضهم اللوم على بعض فيما قرروه من حرمان الفقراء ، ثم اعترفوا بذنبهم وطغيانهم وأناخوا إلى ربهم . وسألوه أن يعوضهم خيرا منها ، ويعقب القرآن على ذلك بأن هذا هو عذاب الباغين المانعين لحقوق الفقراء ، ولعذاب الآخرة أكبر ، ولثواب الله للمتقين أعظم ، وأن هذا هو العدل الذي لا حيف معه .

وإليك القصة كما وردت في القرآن الكريم :

« انا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة اذ أقسموا ليصر منها ( ليقتطعها ) مصبحين ولا يستثنون ، فطاف عليها طائف من ربك وهم قائلون ، فاصبحت كالصريم ، فتنادوا مصبحين ، ان اغدوا على حرتكم ان كنتم صابرين ، فانطلقوا وهم يتخافتون أن لا يدخلوها اليوم عليكم مسكين ، وغلبوا على حرد ( أى منع ) قادرين ، فلما رأوها قالوا انا الفضائل بل نحن محرومون . قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون ، قالوا سبحان ربنا انا كنا ظالمين فاقبل بعضهم على بعض يتلاومون ، قالوا يا ويلنا انا كنا طاغين ، عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها انا إلى ربنا راغبون ، كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ، ان لمتقين عند ربهم جنات النعيم ، افجعل المسلمين كالمجرمين ؟ ما لكم كيف تحكمون ؟ ( ١ ) » .

وإليك قصة أخرى :

انها قصة قارون الذي بغى على قومه بسبب غناه فقتل به بعض الناس وتمنوا أن لو كان لهم مثل غناه ، ولكن أهل العلم بينوا لهم أن الايمان والعمل الصالح الذي يثيب الله عليه خير عقبى للصابرين ، ثم خسف الله به الأرض وجعله عبرة ، وإليك آيات هذه القصة من كتاب الله الكريم :

« ان قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما أن مفاتحه تشنوء بالعصبة أولى القوة ، اد قال له قومه : لا تفرح ان الله لا يحب الفرحين ، وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليك ولا تبغ الفساد في الارض ان الله لا يحب المفسدين ، قال انما أوتيته على علم عندى أو لم يعلم ان الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون ، فخرج على قومه فى زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون انه לנו حفظ عظيم ! وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها الا الصابرون ، فخشفنا به وبداره الارض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين ، وأصبح الذين تمنوا مكانه بالامس يقولون ويكان الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ، لولا أن من الله علينا لخسف بنا ، ويكانه لا يفلح الكافرون ، تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الارض ولا فسادا والعاقبة للمتقين (١) » .

ونجد مثل هذه القصص فى قصة أصحاب السفينة وقصة اليتيمين صاحبى الجدار ، الواردتين فى سورة الكهف (٢) ، وكثير غيرها من القصص .

٤ ويشبه ذلك مسلك القرآن فى الامثال التى ضربها للناس حول معانى الانفاق واليخل ، وقد قدمنا فى آيات الانفاق بعض الامثال التى ضربها الله لذلك .

واليكم مثلا آخر يضربه الله للاغنياء الذين نسوا تعمة الله عليهم فبغوا وطغوا وتجبروا على عباد الله .

قال تعالى فى سورة الكهف (٣) أيضا :

« واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لاحدهما جنتين من اعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا ، كلنا الجنتين آتت اكلها ولم تظلم منه شيئا وفجرا خلالهما نهرا ، وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره : انا أكثر منك مالا وأعز نفرا ، ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال : ما أظن أن تبدي هذه أبدا وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت الى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا ، قال له صاحبه وهو يحاوره : أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا ؟ لكننا ( لكن أنا ) هو الله ربى ولا أشرك بربى احدا ، ولولا اذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله ! لا قوة الا بالله أن ترن أنا أقل منك مالا وولدا فعسى ربى أن يؤتين خيرا من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيدا زلقا ، أو يصبح ماؤها غورا فلن تستطيع له طلبا ، وأحيط بشمره ! فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها ، ويقول : يا ليتنى لم أشرك بربى احدا ! ولم

(٢) سورة الكهف : ٧١ ، ٧٧ ، ٧٩ ، ٨٣

(١) سورة القصص : ٧١ - ٨٦

(٣) سورة الكهف : ٣٢ - ٤٤

تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا ، هنالك الولاية لله الحق هو خير ثوابا وخير عقبا » \*

٥ - رغب في التعاون وحذر من اتخاذ « وتعاونوا على البر والتقوى » (١) وأوجب أن يهتم الانسان بشئون اخوانه « من أصبح لايهتّم بأمر المسلمين فليس منهم » (٢) ورغب في تفريج كربة البائسين ومد يد العون للمحتاجين « من فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة » (٣) .

٦ - اعتبر كل انسان مسئولا عمن تحت يده ، ومسئولا عن شئون المجتمع واستقامة أمره « كلکم راع وكلکم مسؤول عن رعيته : الإمام راع وهو مسؤول عن رعيته ، والرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيته ، والولد راع في مال أبيه ومسؤول عن رعيته ، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته ، وكلکم راع وكلکم مسؤول عن رعيته (٤) » .

٧ - أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والمعروف هو كل ما جاءت به الشريعة واستحسنته المروءات ، والمنكر هو كل ما أنكرته الشريعة من ظلم وبغى وتخل عن الواجب ومنع للحقوق ، وهو ما تنكره المروءات من قسوة وبخل ظلم « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » (٥) \*

« من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان » (٦) وأعظم أنواع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما كان تجاه الطغاة والحكام الذين لا ينفذون شرائع الله ، فيأكلون أموال الشعب ، ولا يعدلون بين الرعية « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » (٧) واعتبر عدم القيام بهذا الواجب نذيرا بانحدار المجتمع وسوء العاقبة وغضب الله وشمول العذاب لمن كان منحرفا ولمن كان ساكتا عن الانحراف .

(( واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة )) (٨) (( لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون )) (٩) \*

#### (ج) المؤيدات المادية :

من سنن الحياة أن لا تؤثر المواعظ والم رغبات في كثير من النفوس الشريرة بل لا يردعها عن الشر الا خوفها من العقوبة ، وجزعها من الالم ، ولذلك لم يكتف الاسلام بما سبق من مؤيدات اعتقادية وأخلاقية ، بل

(٢) رواه الطبراني  
(٤) رواه البخاري ومسلم  
(٦) رواه مسلم وإمام  
(٨) الالتقال ٢٥٠

(١) المائدة ٣  
(٣) رواه البخاري ومسلم  
(٥) آل عمران : ١٠٤  
(٧) رواه ابو داود والترمذي  
(٩) المائدة : ٧٨ و ٧٩

شرع مؤيدات مادية ترهب المعتدين ، وتكف من غلوائهم ، وهذه المؤيدات .  
أربعة أقسام :

١ - الحسبة وهي ، أمر بالمعروف اذا ظهر تركه ونهى عن المنكر اذا ظهر فعله (١) وقد كان يقوم بها رجال أمناء موثوق بهم أشداء في الحق . لا يخافون في الله لومة لائم ، ويعينون من قبل الحكومة في غالب الاحيان ، وقد قسم القاضي أبو يعلى في كتابه « الاحكام السلطانية » عمل المحتسب في الامر بالمعروف الى اقسام ثلاثة : ما تعلق بحقوق الله تعالى ، وما تعلق بحقوق الآدميين ، وما كان مشتركا بينهما ، وقال فيما يتعلق بحقوق الآدميين انه ضربان : عام وخاص ، أما العام كائيلد اذا تمطل شربه أو استهلم سوره ، فان كان في بيت المال مال لم يلزم أهل البلد اصلاح شربهم وبناء سورهم لانها حقوق تلزم بيت المال وكذلك لو استهلمت جوامعهم ، وان لم يكن في بيت المال مال ، كان الامر ببناء السور واصلاح الشرب وعمار المساجد ومراعاة بنى السميل « المسافرين » متوجها الى كافة ذوى المكانة « اليسار » منهم ، فان شرعوا في اقامة ذلك سقطت عن المحتسب حق الامر به ، والا أعلم المحتسب السلطان ورغب أهل المكانة في عمله اذا كان يضرهم تركه . وأما الخاص كالحقوق اذا مطلبت والديون اذا أخذت فللمحتسب أن يأمر بدفعها اذا استعداه أصحاب الحقوق ، وكذلك له أن يأمر بنفقات الاقارب اذا حكم بها حاكم ، وكذلك كفالة من تجب كفالته من الصغار ، وأما ما كان مشتركا بين حقوق الله والعباد فمن ذاك أن يأخذ السادة بحقوق العبيد والاماء ، وان لا يكلفهم من الاعمال مالا يطيقون ، وكذلك أرباب البهائم يأخذهم « بطفها » اذا قصرُوا وأن لا يستعملوها فيما لا تطيق ، ومن أخذ لقيطا وقصر في كفالته امره أن يقوم بحقوق التقاطه من التزام الكفالة أو تسليمه الى من يلتزمها ويقوم بها . ثم قسم المنكر أيضا الى ثلاثة أقسام : ما كان في حقوق الله ، وما كان في حقوق الآدميين ، وما كان مشتركا بين الحقين . فمما يتعلق بالمنكر في حق من حقوق الله ، الامتناع عن اخراج الزكاة ، فان كان من الاموال الظاهرة أخذها العامل ( الموظف لقبض الزكاة ) منه قهرا ، وان كان من الاموال الباطنة احتمل أن يكون المحتسب أولى بالانكار عليه من عامل الصدقة ، وان رأى رجلا يتعرض لسؤال الناس وهو ذو جلد وقوة على العمل امره أن يتعرض للاحتراف بعمل ، فان أصر على أسؤال عزره حتى يقلع ، وان وجد من يتصدى للعلم وليس من أهله أنكر عليه ومنعه وأظهر للناس امره كيلا يفتروا به ، وكل ما منع الشرع من العقود الفاسدة . فعلى والى الحسبة انكاره والمنع منه ، ومن ذك غش المبيعات وتدليس الاثمان « تزيف النقود » فينكره ويمنع منه ويؤدب عليه بحسب الحال فيه . ومما يتأكد على المحتسب فعله ، المنع من التطفيف والبخس في المكايل والموازين ، واذا استراب بموازين السوق ومكاييلهم اختبرها وعابرها وختمها بطابع خاص بحيث لا يزنون أو يكيلون الا بها ، فان فعلوا أنكر عليهم وأدبهم ، ومما يتعلق بالمنكر في حقوق الآدميين ، منع الرجل من التعدي على جاره أو حريم جاره ، ومن ذلك منع المستأجرين من التعدي على حقوق الاجراء « العمال » فاذا تعدى مستأجر على أجير في .

(١) الاحكام السلطانية للقاضي اه . جلد ٢٦٨

نقصان أجره أو استزادة عمل كفه عن تعديه وأنكر عليه بحسب حالة العدوان ، ولو قصر الاجير في حق المساجر فنقصه من العمل أو استزاد في الاجر منعه منه ، وإذا قصر الطبيب فأدى تقصيره الى تلف أو سقم منعه من ذلك ، ويراعى حال الصاغة والحاقة « النساجين » والقصابين والمصباغين وأمثالهم في الامانة والخيانة لانهم ربما هربوا بأموال الناس ويراعى المحتسب على العموم فساد العمل وردائه وإن لم يتقدم أحد بالشكوى ، ومما يتعلق بما ينكر من الحقوق المشتركة بين الله والناس منع التعدي على أهل الدمة ، ومنع السادة من اساءة معاملة عبيدهم أو تكليفهم ما لا يطيقون ، وقد نص أحمد على أن حق المملوك هو أن يشبع ويكتسى ولا يكلف ما لا يطبق ولا يسهر ولا يشق عليه العمل وأن يزوجه حين البلوغ ويمنع أرباب المواشي من استعمالها فيما لا تطيق (١) .

وذكر الشيزرى في « نهاية الرتبة في طلب الحسبة » أمورا أخرى كلها ترجع الى منع الاضرار بالناس في أسواقهم وصنائعهم ، كمنع التجار من الاحتكار والزامهم ببيع البضائع المحتكرة بأسعارها المعتدلة جبرا عنهم ومنع التفرير بالمنتهجين من أهل الارياف كيلا يبيعوا بأسعار أرخص مما هي في الاسواق ، ومنع أحمال الحطب والتبن والاشوك وكل ذي رائحة كريهة من الدخول الى الاسواق كيلا يضر بلباس الناس ، وبمراقبة التجار والخبازين والطباغين وأرباب الصناعات كالصيدلة والعطارين والنساجين من غش الناس في طعمتهم وحوائجهم « (٢) » .

وقد نص ابن الاخوة في « معالم القرية » على ما يجب على المحتسب عمله من مراقبة الصناعات والتجارات مما يعتبر غاية في الطرافة والدفاع عن حقوق المواطنين وضمان أموالهم .

ونختتم الكلام عن الحسبة ببعض نصوص عنها من كلام شيخ الاسلام ابن تيمية رضى الله عنه في كتابه القيم « الحسبة » .

قال : وأما المحتسب فله الامر بالمعروف والنهي عن المنكر مما ليس من خصائص الولاية والقضاة وأهل الديوان ونحوهم ، وكثير من الامور الدينية هو مشترك بين ولاية الامور ، فمن أدى الواجب وجب طاعته فيه .

ثم أخذ بعدد واجبات المحتسب ، ومما قاله :

« ويأمر المحتسب بالجمعة والجماعات وبصدق الحديث وأداء الامانات ، وينهى عن المنكرات من الكذب والخيانة وما يدخل في ذلك من تطفيف المكيال والميزان والغش في الصناعات والبياعات والديانات ونحو ذلك »

« ويدخل في المنكرات ما نهى الله عنه ورسوله عنه من العقود المحرمة الخ . . . » .

(١) من كتاب الاحكام السلطانية لاى يعلم مع اختصار وتلخيص - ٢٦٨ - ٢٩٢

(٢) نهاية الرتبة : ١٣ - ٢٢ - ٢٤ - ٣٤ - ٤٢ - ٤٨ - ٦٥ - ٧٤

ومثل ذلك : الاحتكار لما يحتاج اليه الناس ، لما روى مسسليم في صحيحه عن معمر بن عبد الله ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا يحتكر الا خاطيء » فان المحتكر هو الذي يعمد الى شراء ما يحتاج اليه الناس من الطعام فيحسبه عنهم ويريد اعلاؤه عليهم وهو ظالم للخلق المشتريين . ولهذا كان لولى الامر أن يكره الناس على بيع ما عندهم بقيمة المثل عند ضرورة اناس اليه ، مثل من عنده طعام لا يحتاج اليه والناس فيمخمصة فانه يجبر على بيعه للناس بقيمة المثل .

ولهذا قال الفقهاء من اضطر الى طعام الغير أخذه منه بغير اختياره بقيمة مثله ، ولو امتنع من بيعه الا بأكثر من سعره لم يستحق الاسعره . ومن هنا يتبين أن السعر « أى التسعير » منه ما هو ظلم لا يجوز . ومنه ما هو عدل جائز .

فاذا تضمن ظلم الناس واکراههم بغير حق على البيع بثمان لا يرضونه أو منعهم مما أباحه الله لهم فهو حرام .

واذا تضمن العدل بين الناس مثل اكرامهم على ما يجب عليهم من المعاوضة بثمان المثل ومنعهم مما يحرم عليهم من أخذ زيادة على عوض المثل فهو جائز بل واجب .

فأما الاول فمثل ما روى أنس قال : غلا السعر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا رسول الله لو سهرت فقال « ان الله هو القابض الباسط الرازق المسعر واني لارجو أن ألقى الله ولا يطلبني أحد بمظلمة ظلمتها اياه في دم ولا مال » (١) .

فاذا كان الناس يبيعون سلعهم على الوجه المعروف من غير ظلم منهم وقد ارتفع السعر اما لقلّة الشيء واما لكثرة الخلق (٢) فهذا الى الله ، فالزام الخلق أن يبيعوا بقيمة بعينها اكرام بغير حق .

وأما الثانى فمثل أن يمتنع أرباب السلع من بيعها مع ضرورة اناس اليها الا بزيادة على القيمة المعروفة ، فهنا يجب عليهم بيعها بقيمة المثل ، ولا معنى للتسعير الا الزامهم بقيمة المثل فيجب أن يلتزموا بما ألزمهم الله به .

وأبلغ من هذا أن يكون الناس قد التزموا أن لا يبيع الطعام أو غيره الا ناس معروفون أن لا تباع تلك السلع الا لهم ثم يبيعونها هم . فلو باع غيرهم ذلك منع ، اما ظلما لو طيفة تؤخذ من البائع ، أو غير ظلم لما فى ذلك من الفساد ، فهنا يجب التسعير عليهم بحيث لا يبيعون الا بقيمة المثل ولا يشترون أموال الناس الا بقيمة المثل ، بلا تردد فى ذلك عند أحد من العلماء لانه اذا كان قد منع غيرهم أن يبيع ذلك النوع أو يشتريه ، فلو سوغ لهم أن يبيعوا بما اختاروا أو يشتروا بما اختاروا كان ذلك ظلما للخلق من وجهين ، ظلما للبائعين الذين يريدون بيع تلك الاموال وظلما للمشتريين منهم .

(١) رواه ابو داود والترمذى وصححه

(٢) هذا يتفق مع أحدث الاراء الاقتصادية فانون العرض والطلب »

والواجب اذا لم يمكن دفع جميع الظلم أن يدفع الممكن منه ، فالتسعير في هذا واجب بلا نزاع ، وحقيقة الزامهم أن لا يبيعوا أو لا يشتروا إلا بثمان المثل ، وهذا واجب في مواضع كثيرة من الشريعة ، فانه كما ان الاكراه على البيع لا يجوز الا بحق ، يجوز الاكراه على البيع بحق في مواضع ، مثل بيع المال لقضاء الدين الواجب والنفقة الواجبة ، والاكراه على أن لا يبيع الا بثمان المثل لا يجوز الا بحق .

ويجوز في مواضع مثل المضطر الى طعام الغير ومثل الغرس والبناء الذي في ملك الغير ، فان لرب الارض أن يأخذ بقيمة المثل لا بأكثر ، ونظائره كثيرة .

وكذلك فيما يجب عليه من طعام أو كسوة لمن عليه نفقته اذا وجد الطعام واللباس الذي يصلح له في العرف بثمان المثل ، لم يكن له أن ينتقل الى ما هو دونه حتى يبذل له ذلك بثمان يختاره ونظائره كثيرة .

ولهذا منع غير واحد من العلماء كابى حنيفة وأصحابه القسام الذين يقتسمون العقار وغيره بالاجر أن يشتروا (١) فانهم اذا اشتروا والناس محتاجون اليهم أغلوا عليهم الاجر ، فمنع البائعين الذين تواطأوا على أن لا يبيعوا الا بثمان قدره أولى ، وكذلك منع المشتريين اذا تواطأوا على أن يشتروا فيما يشتريه أحدهم حتى يهضموا سلع اناس أولى .

وأىضا اذا كانت الطائفة التي تشتري نوعا من السلع أو تبيعها قد تواطأوا على أن يهضموا ما يشترونه فيشترونه بدون ثمن المثل المعروف ، ويزيدون ما يبيعونه بأكثر من الثمن المعروف ، وينموا ما يشترونه ، كان هذا أعظم عدوانا من تلقى السلع ، ومن بيع الحاضر للبادى ، ومن النجش ويكونون قد اتفقوا على ظلم الناس حتى يضطروا الى بيع سلعهم وشراؤها بأكثر من ثمن المثل ، والناس يحتاجون الى بيع ذلك وشراؤه ، وما احتاج الى بيعه وشراؤه عموم الناس ، فانه يجب أن لا يباع الا بثمان المثل اذا كانت الحاجة الى بيعه وشراؤه عامة .

ومن ذلك أن يحتاج الناس الى صناعة ناس مثل حاجة الناس الى الفلاحة والنساجة والبنائة ، فان الناس لابد لهم من طعام يأكلونه، وثياب يلبسونها ، ومساكن يسكنونها ، فاذا لم يجلب لهم من الثياب ما يكفيهم احتاجوا الى من ينسج لهم الثياب ، ولابد لهم من طعام اما مجلوب من غير بلدهم واما من زرع بلدهم وهذا هو الغالب ، وكذلك لابد لهم من مساكن يسكنونها فيحتاجون الى البناء ، فلهذا قال غير واحد من الفقهاء من أصحاب الشافعى وأحمد بن حنبل ، وغيرهم كابى حامد الغزالي وأبى الفرج بن الجوزى وغيرهما ان هذه الصناعات فرض على الكفاية فانه لا تتم مصلحة الناس الا بها كما ان الجهاد فرض على الكفاية الا أن يتمين

(١) أى أن يعملوا منهم نقابة تحدد الاجرة وتكون اجرة القسمة لهم جميعا مشتركين ولا يسمح لواحد منهم أن يعمل لنفسه

فيكون فرضا على الاعيان مثل أن يقصد العدو بلدا أو مثل أن يستغفر  
الامام أحدا ، اه (١) .

هذا هو نظام الحسبة ، وهو كما ترى ضمان مادي لنظم التكافل  
الاجتماعي التي أقرها الاسلام ، وهو نظام فريد لم يسبق المسلمين اليه  
أمة من الامم ، وقد كان مما أخذه الصليبيون عن المسلمين أثناء حكمهم في  
فلسطين كما ثبت ذلك من كتاب « النظم القضائية ببيت المقدس » وهو  
مطبوع بالفرنسية في باريس في مجموعه مؤرخي الحروب الصليبية (٢)  
ثم نقلوا هذا النظام الى بلادهم في الغرب ، فلما تطورت الحياة السياسية  
والاجتماعية منذ عصر النهضة وزعمت مهام الحسبة على وزارات الصحة  
والاسعاف والمعارف والعدل والشئون الاجتماعية ودوائر البلدية ، وقد  
أخذناها عن الغربيين في نهضتنا الحديثة وهي بضاعتنا ردت إلينا .

٢ - الحدود والقصاص فمن حرم انسانا حق الحياة حرم الحياة  
ومن حرم انسانا حق الكرامة بأن اعتدى على عرض غيره عوقب عقوبة  
الزنا ، ومن اتهم انسانا في شرفه وعرضه عوقب عقوبة القذف ، ومن  
اعتدى على حق انسان في التملك عوقب عقوبة السرقة ومن اعتدى على  
عقله وهو وسيلة العلم عوقب عقوبة السكر ، ومن اعتدى على حق الناس  
في حريتهم في أوطانهم وطأئنيبتهم وكرامتهم وأموالهم ، فقطع الطرقات  
وأخاف السابلة ، عوقب عقوبة المحاربين الخارجين على النظام .

« انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فسادا  
أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من  
الارض (٣) » .

٣ - التعزير وهو العقوبة على ارتكاب كل منكر أو ابداء للفير بفعل  
أو قول أو اشارة ، وقد ترك الاسلام تقدير هذه العقوبات للدولة تشرع  
من الاحكام القضائية بشأنها ما يكون أصلح للزجر وأبلغ في ردع الناس  
عن العدوان وللتعزير أحكام مفصلة في كتب الفقه (٤) .

٤ - الجهاد ، وهو في الاسلام مشروع لغرضين : دفع العدوان على  
حرية الامة في وطنها ودينها « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين  
لله » (٥) وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب  
المعتدين (٦) « واستنقاذ الضعفاء المضطهدين من سلطة الظالمين » اذن

(١) من مواضيع متفرقة من رسالة الحسبة ونريد ان نلفت النظر هنا الى هذه الرسالة  
القيمة ووجوب الاطلاع عليها

(٢) انظر الملحق الثالث لكتاب نهاية الرقبة ص ١٢٧

(٣) المائدة : ٣٣ .

(٤) من اجمع ما ألف في هذا البحث كتاب التعزير في الشريعة الإسلامية ، للدكتور محمد  
العزیز حامد القاضي بالمحاكم الوطنية

(٥) البقرة : ١٩٣

(٦) البقرة : ٦٩



للمؤمنين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله (١) » وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان (٢) » .

والجهاد لهذين الغرضين جهاد في سبيل الله ، لأن سبيل الله أي طريقه هو الحق إذ هو لا يأمر إلا بالحق والخير ، وهو جهاد لاعلاء كلمة الله ، لأن كلمة الله هي شريعته وهي أحكامه التي أمر بها أو نهى عنها ، ومما أمر به اتباع الحقوق إلى أصحابها ، ومما نهى عنه ظلم الناس بعضهم لبعض ، ذلك إذا هو سبيل الله . وتلك هي كلمته ، وهذا هو الجهاد في الإسلام : إعلان لكلمة الحق ورفع منار العدل « الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله ، والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت (٣) » أي في سبيل الاستعلاء والطغيان والظلم . وقد نص القرآن على ثمره الجهاد في الإسلام بقوله « الذين أن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة » وهذا رمز لنشر السمو الروحي في العالم « وآتوا الزكاة » وهذا إقامة للتكافل الاجتماعي في المجتمع « وأمروا بالعرف ونهوا عن المنكر (٤) » وهذا دعم للحقوق الطبيعية الخمسة التي قررها الإسلام لكل إنسان (٥) .

### ( د ) المبادئ التشريعية

وهي نوعان : ١ - مصادر تشريعية - ٢ - قواعد تشريعية .

أ - المصادر التشريعية

وأهمها في هذا الباب ثلاثة :

١ - الاستحسان ، وهو ترك العمل بالقياس الظاهر للدليل آخر أقوى منه ، هذا الدليل الآخر إما القياس ، أي أن يترك القياس الظاهر لقياس آخر أدق مسلوكا وأقوى شبيها ، وأما الضرورة أي أن يترك القياس لضرورة عامة يترتب على ترك اعتبارها مفسدة ، وهذا القسم الثاني هو الذي يقيدها في هذا البحث ، فإن أبا حنيفة وهو أشهر القائلين بالاستحسان ، ترك العمل بمقتضى القياس في كثير من الحالات لما يترتب على القياس من ضرر ومفسدة ، ومن هنا عرف ابن رشد الاستحسان بقوله : « أنه الالتفات إلى المصلحة والعدل » (٦) وما دامت الشريعة تقول على رعاية المصلحة وتحقيق العدالة ، فإن الاستحسان باب عظيم من الأبواب التي تسمح بوضع النظم الكفيلة بتحقيق « التكافل الاجتماعي » وفق المبادئ التي ذكرناها وتحقيقا للحقوق الطبيعية الخمسة التي هي أساس نظرية « الاشتراكية الإسلامية » .

٢ - الاستصلاح ، وهو العمل بالمصالح المرسلة ، وذلك إن مصالح الناس تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

(١) الحج : ٣٩ ، ٤٠

(٢) النساء : ٧٥

(٣) النساء : ٧٦

(٤) الحج : ٤١

(٥) انظر نظام السلام والحرب في الإسلام للمؤلف

(٦) انظر بحث الاستحسان في المبدل الفقهي العام للاستاذ مصطفى الزرقا ١٠٥/٤٨

( الطبعة الخامسة )

١ - مصالح اعتبرونها الشريعة وأقرتها ، وأصدرت التشريع اللازم لصيانتها ، كمصلحة الناس في حفظ عقائدهم ودياناتهم وعقولهم وأموالهم وأعراضهم ، ومصلحتهم في ضمان حقوقهم الطبيعية الخمسة التي ذكرناها

٢ - مصالح لم تعترف بها الشريعة ، كمصلحة بائع الخمر في الربح ، ومصلحة المتجسس للعدو في قبض المال لذلك ، ومصلحة المراهبي في التعامل بالربا أو غير ذلك من المصالح التي يلزم من اعتبارها مفسدة عامة وإضرار بالمجتمع ، وعدوان على حقوق الآخرين .

٣ - مصالح جديدة لم تكن في عهد النبوة ، فلم ينص عليها بذاتها كتاب ولا سنة ، ولكن الشريعة راعتها واعتبرتها ضمن المبادئ العامة التي وضعتها في التشريع .

فأما انقسم الاول من المصالح فيجب العمل بها باجماع العلماء ، أما القسم الثاني فلا يجوز العمل بها قولا واحدا ، وأما القسم الثالث فقد ذهب جمهور العلماء الى اعتبارها ووجوب العمل بها ، ومن أشهر من قال بها علماء المالكية ، وغيرهم من الفقهاء يدخلون العمل بها تحت أصل تشريعي من الاصول المتفق عليها ، وهي : الكتاب والسنة والاجماع والقياس ، وأيا ما كان فالكل متفقون على اعتبارها في التشريع ، وعمل بها الصحابة والتابعون ، وضرب الشاطبي (١) لذلك كثيرا من الامثلة . كجمع القرآن في مصحف واحد ، وتدوين اندواوين وتنظيم دوائر الدولة في عهد عمر وما بعده ، وبذلك منع عمر كبار الصحابة من مغادرة المدينة في عهد خلافته لحاجته اليهم في التشريع واستشارتهم في قضايا الدولة ، وما فعله من مقاسمة الولاة نصف أموالهم كما هو معروف .

يقول الغزالي : « ان مقصود انشرع من الخلق خمسة وهو أن يحفظ عليهم دينهم ونفسهم وعقلهم ونسلهم ومالهم ، فكل ما يتضمن حفظ هذه الاصول الخمسة فهو مصلحة ، وكل ما يفوت هذه الاصول فهو مفسدة ودفعها مصلحة (٢) » .

ويقول الشاطبي : « انا وجدنا الشارع قاصدا لمصالح العباد ، والاحكام العادية ( أى التشريع المدني والجنائي والدولي وغيره ) تدور معه حيثما دار ، فترى الشيء الواحد يمنع في حال لا تكون فيه مصلحة ، فإذا كان فيه مصلحة جاز (٣) » .

ويقول ابن القيم : « ان الله أرسل رسوله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط ، وهو العدل الذي قامت به السموات والارض ، فإذا ظهرت امارات الحق وأدلت به بأى طريق فذلك من شرع الله ودينه ورضاه وأمره (٤) »

(١) انظر « الاعتصام » للامام الشاطبي : ٢ - ٩٩ ، ٢٠٧

(٢) المستصفى : ١ - ٢٨٧

(٣) الموافقات : ٢ - ٣٠٦

(٤) اعلام الموقعين : ٣ - ٥٤٣

ويقول الآمدي : ان الاحكام انما شرعت لمقاصد العباد (أي مصالحهم) لان الاجماع قائم على أن احكام الله لاتخاو عن حكمة ومقصود ، وليس ذلك لمنفعة عائدة الى الله تعالى ، بل لمنفعة الناس ، وقد قال الله تعالى : « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين (١) » وقال : « ورحمتي وسعت كل شيء (٢) » فلو خلت الاحكام عن حكمة عائدة الى الناس لكانت نقمة لا رحمة ، وقال عليه الصلاة والسلام : « لا ضرر ولا ضرار (٣) » فلو لم يكن التكليف قائما على مصالح تعود الى العباد لكان ضررا محضاً (٤) .

وهكذا يكون العمل بالمصالح المرسله ( الاستصلاح ) مصدرا تشريعي عظيميا لوضع النظم والقوانين الكفيلة بتحقيق مقاصد الشريعة في تحقيق العدالة الاجتماعية والتكافل الاجتماعي .

### ٣ - العرف

وهو أيضا ثلاثة أنواع :

١ - ما أقره الشارع فهذا يجب العمل به قولاً واحداً

٢ - ما ألغاه الشارع كالاعراف السيئة التي كانت في الجاهلية وألغاهها الاسلام ، فهذه باطلة لا يجوز اعتبارها قولاً واحداً .

٣ - ما جد للناس بعد عصر النبوة وكانت لهم فيه مصلحة ولا يتنافى مع نص من نصوص الشريعة أو مقصد من مقاصدها ، فهذا معتبر وخاصة في المعاملات ، وقد بنيت عليه أحكام كثيرة في الفقه الاسلامي ، واعتبر مصدرا من مصادر التشريع ، وقد نصوا على ان « المعروف كالمشروط » وأن تعامل الناس حجة يجب العمل بها وغير ذلك من القواعد التي تعتبر العرف مصدرا للتشريع (٥) .

ولا شك ان الناس لا يتفقون على عرف يتراضون العمل به الا لما فيه من رفق بهم وتيسير لمعاملتهم وضمان لحقوقهم ومصالحهم المشروعة وبذلك يكون مصدرا عظيما لسن القوانين المحققة للتكافل الاجتماعي .

### (ب) القواعد التشريعية

وهناك قواعد تشريعية عامة يمكن أن يستند اليها في وضع التشريعات اللازمة لتحقيق التكافل الاجتماعي وضمان الحقوق الطبيعية الخمسة ، وهي اما مأخوذة من القرآن أو السنة ، أو مستنبطة من مجموع الاحكام الشرعية نذكر منها على سبيل المثال القواعد التالية :

(١) الانبياء : ١٠٧

(٢) الاعراف : ١٥٦

(٣) رواه احمد وابن ماجه

(٤) الاحكام : ٣ - ٥٤ باختصار وللخيص

(٥) جاء في مقدمة مجلة الاحكام العدلية كثير من المواد المتعلقة بالعرف ، وانظر بحث

العرف في المدخل الفقهي العام للاستاذ الزرقا : ٨٢٣ - ٩٣٠ ( الطبعة الخامسة )

- ١ - لقد كرمنا بنى آدم « آية »
- ٢ - ليس للانسان الا ما سعى « آية »
- ٣ - ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى « آية »
- ٤ - وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى « آية »
- ٥ - لا يكلف الله نفسا الا وسعها « آية »
- ٦ - لا تبخسوا الناس أشياءهم « آية »
- ٧ - لا ضرر ولا ضرار « حديث »
- ٨ - ان لجسمك عليك حقا « حديث »
- ٩ - ان لزوجك عليك حقا « حديث »
- ١٠ - ليس لعرق ظالم حق « حديث »
- ١١ - ما لا يتم الواجب الا به فهو واجب « قاعدة »
- ١٢ - ما يؤدي الى الحرام فهو حرام « قاعدة »
- ١٣ - درء المفسد مقدم على جلب المصالح « قاعدة »
- ١٤ - الضرورات تبيح المحظورات « قاعدة »
- ١٥ - يتحمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام « قاعدة (١) »
- ١٦ - يتحمل الضرر الادنى لدفع الاعلى « قاعدة »
- ١٧ - المشقة تجلب التيسير « قاعدة »
- ١٨ - التصرف على الرعية منوط بالمصلحة « قاعدة (٢) »
- ١٩ - لا ينكر تغير الاحكام بتغير الزمان « قاعدة (٣) »
- ٢٠ - الامور بمقاصدها « قاعدة »
- ٢١ - الغرم بالغنم أو الخراج بالضمان « قاعدة »
- ١٣ - درء المفسد مقدم على جلب المصالح « قاعدة »

---

(١) ومنها قال ابو حنيفة : يجب الحزم على المفتى الماجن والطبيب الجاهل والمكاري  
 الخلس لان الاول يفسد على الناس اديانهم والثاني يفسد عليهم ابدانهم والثالث يفسد  
 عليهم اموالهم ( انظر : المسعودي للبرخسي : ٢٤ - ١٧٥ )  
 (٢) هي الاحكام التي شرعت في الاصل لتحقيق مصلحة أو بناء على عرف مشروع ،  
 ثم زالت المصلحة أو تغير العرف  
 (٣) انظر شرح هذه القواعد وغيرها في المختل الفقهى العام للاستاذ الزرقا ٩٣٢ -  
 ١٠٧٥ ( الطبعة الخامسة )

الملاحظات



نكتفى بإبداء الملاحظات التالية على نظرية « الاشتراكية الإسلامية » وقوانينها ، نظراً لضيق المجال الآن .

١ - أن اشتراكية الإسلام ليست اشتراكية الدرواش والزهاد كبعض الصوفية وفقراء الهنود الذين ينفرون من المال والتملك جبناً منهم عن تحمل أعباء الحياة ومسئولياتها ، وإنما هي اشتراكية حضارية إيجابية بناءة تقيم أكمل مجتمع حضارى متمدن .

٢ - أن اشتراكية الإسلام في تقريرها لم حقوق الطبيعة الخمسة وما وضعت من قوانين التكافل الاجتماعى تحارب الفقر والمرض والجهل والخوف والمهانة .

٣ - أن مستوى المعيشة في اشتراكية الإسلام مرتفع ، فقد رأينا أن من الحاجات الأصلية التي لا تعتبر من يملكها غنياً يجب عليه الزكاة : دور السكنى ونفقات العائلة لسنة كاملة ، وأدوات الركوب والانتقال ، والسلاح ، وكتب العلم ، وآلات المهنة .

٤ - أن اشتراكية الإسلام تطبق على جميع المواطنين في الدولة مسلمين أو غير مسلمين ، لأن مبادئها وحقوقها عامة لم تستثن أحداً وسنرى كيف تمتنع أهل الدمة منذ عهد عمر بحقوق التكافل الاجتماعى كالمسلمين سواء بسواء .

٥ - أن اشتراكية الإسلام تشرك الشعب مع الدولة في تحقيق التكافل الاجتماعى كما في نظام نفقات الأقارب ، ولذلك فوائده الكثيرة : منها تخفيف العبء عن ميزانية الدولة ، وإبقاء عواطف المحبة والود وصلة القربى بين الناس .

٦ - أن مبادئ اشتراكية الإسلام مرنة يمكن تطبيقها في كل عصر بما يتفق مع تطور المجتمع وتقدم الحضارة .

٧ - أنها تحارب الترف والبلذخ في السلم والحرب ، لا كما تفعل جميع المذاهب والدول الحديثة إذ تلزم الشعب بالبعد عن الترف واللهو الماجن خلال أيام الحرب فقط .

٨ - أنها تخضع الحكومة والحاكمين لإرادة الشعب ، لا كما تفعل الاشتراكية الشيوعية حين تخضع الشعب لإرادة فئة من الحاكمين .

٩ - أن التكافل الاجتماعى فيها أوسع دائرة من نطاق التكافل الاجتماعى في غيرها - كما رأيت في بحث التكافل الاجتماعى - فهي أضمن لكرامة الإنسان وسعادته في مجتمعه .

١٠ - أنها لم تكن نظرية فحسب ، كما كانت الديانات السابقة ، ولا عاطفية تعتمد على استندار « شفقة » الأغنياء كما كانت المذاهب الاشتراكية في عصر النهضة الأوروبية قبل الماركسية ، بل هي عملية مقرونة بالتشريع الذى يطبق على الناس جميعاً بكيفية قوانين الدولة .

١١ - ولم تكن كذلك فحسب ، بل كانت جزءاً أساسياً من أعمال الدولة الإسلامية منذ قيامها في القرن السابع .





# المقارنات



## ١ - مع الرأسمالية

لا أريد أن أقارن الآن بين اشتراكية الاسلام وبين الرأسمالية ، اذ لا لقاء بينهما - كمذهب اقتصادى - الا فى اعطاء الفرد حق التملك وفسح المجال للتنافس فى ميدان الانتاج .

ولكن حق التملك فى اشتراكية الاسلام يخضع لمصلحة الجماعة وحق التملك فى النظام الرأسمالى يخضع لمصلحة رأس المال . والتنافس الذى تفسح الاشتراكية الاسلامية مجاله للأفراد ، من شأنه أن يشيع الحب والتعاون والهناء فى المجتمع ، بينما التنافس الذى تفسح الرأسمالية مجاله للأفراد من شأنه أن يشيع العداء والخلاف والاضطراب فى المجتمع .

ولا لقاء بين اشتراكية الاسلام وبين الرأسمالية - كواقع سياسى لان الرأسمالية الغربية ملوثة بدماء الشعوب ، وهى الساعث الاول للاستعمار ، تفوح من ارادتها روائح الاستبعاد واللصوصية والاستغلال .

فلا لقاء بين الاشتراكية الاسلامية وبين الرأسمالية فى مجال ما ، لا فى مذهبها الاقتصادى ولا فى واقعها السياسى !

## ب - مع الشيوعية

ولا أريد أيضا أن أتوسع الآن فيما تتميز به اشتراكية الاسلام عن المذاهب الاشتراكية عامة ، والشيوعية خاصة ، ولكننى اكتفى بذكر بعض هذه المميزات التى أعطت اشتراكية الاسلام طابعها الخاص ، وجنبتها أسوأ الشيوعية وغيرها من المذاهب الاشتراكية ، وبها كانت أقدر على اسعاد الناس ، وتقوية عوامل الخير والحب والتعاون فيما بينهم .

١ - ان اشتراكية الاسلام تنسجم مع الطبيعة الانسانية وضرورات الحياة فى ابحاثها للملكية الشخصية ، وهذا ما أنكرته الشيوعية - النظرية - كما وضعها ماركس وأنجلز ، زاعمة أن التملك ليس أصيلا فى النفس الانسانية ، وعدا عما تشعر به النفوس والعقول بداهة من بطلان هذا الزعم ، فان فى اعتراف الشيوعية - التطبيقية - أخيرا للملكية الشخصية ولو فى حدود ضيقة تأكيداً لبطلان زعمها النظرى .

جاء فى الدستور السوفيتى (١) ما يلى :

(١) نقلا عن النسخة العربية المطبوعة فى موسكو عام ١٩٤٣ المترجمة عن النسخة الروسية المطبوعة فى موسكو عام ١٩٤١

المادة ٧ - لكل عائلة من عوائل المزرعة التعاونية بالاضافة الى دخلها الاساسى الذى يأتىها من اقتصاد المزرعة التعاونية المشترك قطعة من الارض خاصة بها ، وملحقة بمحل السكن ، ولها فى الارض اقتصاد اضافى ومنزل للسكنى وماشية منتجة وطيور وأدوات زراعية بسيطة كملكية خاصة .

المادة ٩ - الى جانب النظام الاشتراكى الذى هو الشكل السائد فى اقتصاد الاتحاد السوفيتى ، يسمح القانون بالمشاريح الاقتصادية الصغيرة الخاصة بالفلاحين الفرديين والحرفيين ، على أن تقوم على عملهم الشخصى ، ويشترط ان لا يستثمروا فيها جهود الآخرين .

المادة ١٠ - أن حق الملكية الشخصية للمواطنين فى دخلهم وتوفرهم الناجمين عن عملهم وفى مساكنهم واقتصاديات بيتهم الاضافية وفى الحاجيات والادوات المنزلية وفى الاشياء ذات الاستعمال الشخصى والراحة ، وكذلك حقهم فى « ارث » الملكية الشخصية حق مصون بموجب القانون .

هذا ما جاء فى آخر تعديل للدستور السوفيتى - على ما نعلم - ومخالف مخالفة صريحة لمبادئ الشيوعية الماركسية . ورجوع الى الفطرة الانسانية « فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله » (١)

٢ - ان اشتراكية الاسلام فى ابحاثها للملكية الشخصية ، انما تسمح للمواهب الانسانية ان تنطلق فى ميدان التنافس البناء الذى هو بلا ريب اكبر سبب من اسباب تطور الحضارة ونمو الانتاج والشيوعية تزعم أن هذا التنافس هو الذى يجبر البلاء على المجتمع ، اذ يؤدي الى استغلال أرباب الاموال للجماهير أسوأ استغلال ، وهذا انما يصدق على التنافس الرأسمالى الذى رآته الشيوعية النظرية قائما فى أوروبا ، ولكنه لا يصدق أبدا على التنافس الاشتراكى الاسلامى لانه مقيد أولا بمبادئ التملك التى ذكرناها فى اوائل هذا البحث ، ومقيد ثانيا بإشراف الدولة وتوجيهها ويقتضها كما رأينا فى هذا النظام ، ومقيد أخيرا بالمثل الاخلاقية العليا التى هى جزء من عقيدة الاسلام ، وببقلصة الضمير الدينى الذى تعتمد اشتراكية الاسلام عليه أكبر اعتماد ، وفى واقع رأس المال الاسلامى فى الدولة الاسلامية الاولى وما بعدها أكبر دليل على هذا .

٣ - ان اشتراكية الاسلام تؤدى حتما الى تعاون فئات المجتمع المختلفة لا الى حرب الطبقات كما تفعل الشيوعية ، فحين تكفل اشتراكية الاسلام الحياة الكريمة للضعفاء والعاجزين والفقراء وغيرهم ، وتمنع استغلال الاغنياء وتحكمهم ، وتفجر ينابيع الخير فى نفوس الناس كافة ، فتدعو الغنى للبدل ، والفقير للعمل ، والمحزون للصبر ، وتضمن للمريض دواءه ، وللعارى كساءه ، وللشيخ راحته ، وللأطفال تربيتهم وتعليمهم ومعيشتهم ، لا يكون فى المجتمع الا انسان

راض ، ومواطن متعاون ، وفئة تحب الاخرى وسترى في الواقع التاريخي أمثلة رائعة لهذا الحب والتعاون ، أما الشيوعية فأساس دعوتها إثارة الفئات بعضها على بعض ، وملء قلوب بعضها بالحق على بعض ، وشتان ما بين هذا وذلك .

٤ - ان اشتراكية الاسلام تقوى أكبر صرح في بناء الحضارات منذ عرف تاريخ الانسان ، ذلك هو الايمان بالله خالق الحياة ، رب العالمين العادل الرحيم ، الحكيم العليم ، الذي لا يظلم الناس مثقال ذرة ، ولا يشرع لعباده الا الخير ، فمن أطاع شرعه أحياه حياة طيبة ، ودخله في الآخرة جنات تجري من تحتها الانهار ، ومن عصى شرعه ابتلاه بالنكبات ثم رده في الآخرة الى نار تلظى لا يصلاها الا الاشقى الذي كذب وتولى ، يوم يحاسب الناس على أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ، هذه العقيدة هي التي توقظ الضمير وتهذب النفس ، وتكبح من جماح أهوائها وشهواتها ، وتجعل الانسان دائما أمام محكمة ضميره ومراقبه ربه ، في علاقته بغيره ، وعلاقته بأهله ، وعلاقته بمجتمعه ويوم تتخلى الأمة عن هذه العقيدة كما تريد الشيوعية ، فقد سمحت للشرا أن يستفحل في صفوفها ، لقد سمحت لنفسها أن تنتحر انتحارا جماعيا ، وأن تكون وباء عالميا يهدم القيم العالية ويزيل الثقة والاستقرار . ان اشتراكية الاسلام حين تقوى في نفوس الناس الايمان بالله ومراقبته ، انما تحكم صمام الامان في النفس الانسانية بينما ترفع الشيوعية - بانكارها الله - هذا الصمام ، فلا يبقى في النفس الانسانية شر الا انطلق ، ولا قوة الا اندفعت للتدمير .

٥ - ان اشتراكية الاسلام تعتمد على الاخلاق الكريمة ، وتجعلها جزءا من عقيدتها ، وتحمل الانسان على أن يتحلى بأكملها ، والشيوعية لا تؤمن بالقيم الاخلاقية العاطفية كالحب والرحمة ، والاجتماعية كالصدق والوفاء ، ولا تنظر اليها الا في إطار المصلحة الشيوعية ، فلا ثقة لك بحديث شيوعي ولا بعهدته ، انك لا تدري متى يصدق ومتى يكذب ومتى يفي ومتى يفلس ، الا اذا عرفت أين تكون مصلحته ! ومصلحة الشيوعي ان كان يعيش في مجتمع شيوعي فمصلحته مصلحة طاغية خادمة لمصلحة حزبه في التحكم والاستبداد وخنق كل معارضة ، والشيوعي يستخدم المثل العليا التي يؤمن بها الناس في الدعاية لمبدئه للتضليل والتفجير ، فهو يدعو الى الديمقراطية في مجتمع غير شيوعي - كمجتمعنا العربي مثلا - ليتخذ من ذلك وسيلة الى الدعايات المضللة بينما هو يكفر بالديمقراطية في مجتمع شيوعي لانها تعطي الجماهير حرية مناقشتها للقادة الشيوعيين وهذا ما يحاربه الحكم الشيوعي بكل قوة ، والشيوعي يدعو الى الحرية في مجتمع غير شيوعي ليتخذ منها وسيلة لإثارة لعمال والطلاب والجماهير ضد الحكم القائم ولكنه يكفر بالحرية في مجتمعه الشيوعي ، فلا اضراب ولا مظاهرات ولا انقياد لحاكم ، ولا حرية في تفكير خارج إطار التفكير الشيوعي ، وفي موقف الانحدار السوفيتي من الكاتب الروسي الذي نال جائزة نوبل للسلام أحدث برهان على هذا .

ان الاخلاق التى تعارف عليها الناس ، ونادت بها الديانات وايدها المصلحون فى جميع الامم وفى جميع العصور ، هى محل سخريه لدى الشيوعى ، لانها فى رايه من صنع الذين ادعوا لانفسهم النبوة والحكمة خدمة لمصالح الاغنياء والاقطاعيين . ان المؤمن يتمتع عن الخداع او الكذب خوفا من الله وحسابه فى اليوم الآخر ، أما الشيوعى فماذا يمنعه من ذلك ؟ انه لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يبالي بسخط الناس ، ولا ضمير له يؤنبه على ما فعل ، لانه لا يعتبر نفسه قد ارتكب جريمة ! فمم يقلق ؟ ومم يخجل ؟ الا انها اكبر كارثة تصيب الانسانية وترد الانسان الى ما وراء صفوف الحيوان !

٦ - ان اشتراكية الاسلام تعلن ثقها بالانسان ، وبغرائز الخير والنبيل فيه ، وانه الى الخير اقرب منه الى الشر « كل مولود يولد على الفطرة » (١) وفى قصة خلق آدم كما وردت فى القرآن الكريم اشارة واضحة الى هذا

« واذا قال ربك للملائكة انى جاعل فى الارض » (خليفة) « قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال انى اعلم ما لا تعلمون ، وعالم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال اتبؤنى باسماء هؤلاء ان كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك انت العليم الحكيم .. واذا قلنا للملائكة اسجدوا لادم فسجدوا الا ابليس ابنى واستكبر وكان من الكافرين (٢) » فالانسان كما تدل عليه هذه القصة خلق ليكون « خليفة » عن الله فى الارض يعمرها ويملوها بالمعرفة والخير ، ولم يمنعه ما فيه من غرائز الشر من ان يستحق هذه « الخلافة » ومن ان يسخر الله له جميع القوى ويخضع له جميع المخلوقات .

ان الانسان اهل لان يعمل الخير اذا اتبع شرائع الله وامتثل لامره ..

« فاما يا ايها الذين آمنوا فممن اتبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون (٣) » .

ولهذا يعمل الاسلام على ان يقوى فى الانسان دينه ويهذب نفسه ويصفى روحه ، ثم هو يكله بعد ذلك الى ضميره فى تنفيذ مبادئه اكثر مما يجبره على ذلك بقوة الدولة ورهبة السلطان . ولكن الشيوعية لاتثق بالانسان ، لان تاريخه كله من اوله الى آخره تسلط وقتال من اجل الاكل والمال .. انها لاتثق بدينه لانه يؤمن بخرافة ولا تثق بضميره لان القيم التى يؤمن بها الضمير قيم باطلة ! انها لاتثق بغرائز الخير فيه ، وانما تثق بغرائزه الجشعة ، ورغبته فى الاستئثار والطفيان ، ولذلك فهى لاتسلمه المال لانه يستعمله فى استغلال الكادحين ولا تطلق له الارادة لانه ينزع الى التحكم والاستبداد ، ولا تعطيه الحرية لانه لا يحسن استعمالها ، وقد اثبت الحكم الشيوعى ان الشيوعية لا تثق بالمواطن الشيوعى ، فهى لاتعطيه حرية اختيار الحاكم وشكل الحكم ،

(٢) البقرة ٣٠ ، ٣٤

(١) رواه البخارى ومسلم وغيرهما

(٣) البقرة : ٣٨

لانه لا يهتدى الى ذلك سبيلا ، وانما تهتدى اليه القيادة الشيوعية العليا ، وان الشيوعية لا تثق بالموظف الشيوعي لانه ثبت لها أن كبار موظفي الدولة والحزب الشيوعي في روسيا قد استغلوا فرصة انشغال دولتهم بالحرب الاخيرة ( ١٩٣٩ - ١٩٤٥ ) فجمعوا الاموال واقتنوا الاراضي ، وقد اذاع ذلك ستالين في منشور له بعد انتهاء الحرب ، عممه على جميع ابناء الشعب ، يندد فيه بأولئك الذين انتهزوا فرصة الحرب فخانوا مبادئ الثورة الاشتراكية !

واثبت تاريخ الحكم الشيوعي أيضا أن الشيوعية لا تثق بالرئيس الشيوعي لانها جربتته حين ينفرد بالحكم فرأته سفاكا للدماء - أي دماء الشيوعيين طبعاً - غدارا بالاعوان والاصدقاء .. لقد قال ذلك السيد خروشوف في حق زعيمه ستالين بعد موته !

إذا فالشيوعية لا تثق بالانسان المتدين لانه رجعى ! ولا بالفنى لانه استغلالي ! ولا بغير شيوعي ولو كان فقيرا لانه بورجوازي . ولا بالواطن الشيوعي لانه غبي ! ولا بالموظف الشيوعي لانه انتهازي ! ولا بالرئيس الشيوعي لانه ارهابي !

ويظهر أن « ابليس » أيضا لا يثق بالانسان ولذلك لم يخضع له كما خضعت الملائكة .. فهل استمدت الشيوعية فكرتها عن الانسان من ابليس ؟ ..

ان الشيوعية لا تثق بالانسان ، فمن حق الانسان أن لا يثق بالشيوعية !

٧ - ان اشتراكية الاسلام تقوى في الانسان كل جانب من جوانبه الانسانية : تقوى روحه وقلبه وعقله وخلقه وجسمه لانه هو كل ذلك . أما الشيوعية فهي تقوى فيه بطنه على الجوانب الاخرى فيه ، انها تجعل الانسان أشبه ما يكون بشخص له بطن كبير وصدر ضيق ورأس صغير كراس العصفور وعينان مطموستان والأذان مسدودتان ويدان قصيرتان ورجلان هزيلتان ! هل تتصورون أقبح في رأى العيون من هذا الشخص ؟ ان الانسان - كما تريده الشيوعية - أقبح منظرا من ذاك في رأى القلب والعقل .

والشيوعية تعتبر مأساة الانسانية كلها من أقدم التاريخ الى اليوم مأساة بطن جائع .. ومن ثمة فهي تنادى بأنه لاسبيل للسلام والسعادة الا بنظامها الذي يسلب من الناس أموالهم ويملا بطونهم ، ومعنى ذلك أنه ليس في الانسان رذيلة الا حب التسلط على مال الاخرين وانتزاع خبز الاخرين ، ومعنى ذلك أن الشيوعية تجزم بأنه لن ينشأ في العالم شر بعد القضاء على رأس المال ، وهذا تصوير للمشكلة الانسانية يدعو الى الضحك والاشفاق على عقول الشيوعيين .

لنتصور - يا سادة - اننا انتقلنا الآن بطرفة عين على بساط الريح الى الاتحاد السوفيتي ، وهو الدولة الشيوعية الاولى في العالم فهل نتصور اننا سنرى الشيوعيين هناك وقد انتزعت من أيديهم رؤوس الاموال واصاب كل منهم نصيبه من الغذاء والكساء والدواء ، هل

نتصور أنهم يعيشون ملائكة ليس فيهم من يحقد ولا يحسد ، ولا يعتدى شيوعى على آخر فى نفسه أو كرامته أو سمعته ، أو بنفس على غيره مكانته الاجتماعية ومواهبه الفكرية ؟ ان هذا غير واقع ولا يدعيه الشيوعيون أنفسهم ، فهم بين أمرين : أما أن يزعموا أن الحقد والحسد والعدوان وأمثالها فضائل ، وعندئذ ينقطع ما بينهم وبين الناس من صلة الانسانية .. وأما أن يعترفوا بأنها رذائل ، وهنا تتساءل : بماذا يعالجون أمراض النفس الانسانية ، وأمراض المجتمع الأخلاقية وقد حاربوا الدين وهو أقوى ما تحارب به هذه الرذائل ، وأنكروا مبادئ الاخلاق التى تعارفت على احترامها جميع الشعوب ؟!

ان لهم العبرة فى تاريخهم فى روسيا ، فقد كان ستالين رأس الشيوعية ولم يكن يملك مالا ، ولم يكن رأسماليا ولا برجوازيا، ومع ذلك فقد كانت حياته فى الحكم مليئة بالشروع كما اذاع ذلك الحزب الشيوعى السوفيتى بعد وفاته ، وطبعا لقد كانوا يعرفون فيه هذه الشرور وهو على قيد الحياة ، فماذا استطاعوا أن يفعلوه لتخليص المجتمع الشيوعى من شروره ؟ انهم لم يستطيعوا أن يفعلوا الا شيئا واحدا .. هو أنهم انتظروه حتى يموت .. ثم شتموه !

لقد تفادت الاشتراكية الاسلامية هذا الخطأ ، فعالجت شرور الانسان الداخلية فى نفس الوقت الذى عالجت فيه شرور رأس المال وطفيلانه ، وبهذا نجحت فى تجنب المجتمع جميع شرور الانسان لا شرا واحدا فيه .

٨ - وأخيرا فان اشتراكية الاسلام تجد مأمناها وحماها فى النفس المسلمة المتمسكة باسلامها ، فيندفع المسلم الى تطبيقها بوازع من دينه واسلامه قبل أى رازع ، وفى ذلك من الفائدة للدولة انها لا تضطر الى تنفيذها بقوة الحراب وجو الارهاب ، بل تجد من الشعب المسلم استجابة وتأييدا ، وفيه من الفائدة للمجتمع أن هذه الاشتراكية تظل تعمل عملها فى التقريب بين الطبقات ، وفى انصاف المظلومين من الظالمين ، وفى تحقيق التكافل الاجتماعى لأربابه ، حين يضعف سلطان الدولة أو تهمل تطبيق تلك الاشتراكية ، ان اشتراكية الاسلام نابعة من ضمير الشعب مرتبطة بعقيدته ، فهي لا تزول من المجتمع ولو زالت الدولة وسنرى فى الواقع التاريخى الادلة القاطعة على هذا .

أما الشيوعية فانها منبثة الجذور من أعماق النفس الانسانية ، لا تستند الى دين ولا الى فطرة ولا اقتناع ، فهي لا تنفذ الا بقوة الدولة وجو الارهاب ، ولذلك كان من لوازم الحكم الشيوعى ، الدكتاتورية والارهاب والتطهير الدموى فى جو الحزب الشيوعى نفسه وفى داخل المجتمع ، وليست فى الدنيا قوة تستمر فى ارهاب الناس أمدا طويلا ، وليس فى التاريخ دولة لم تضعف بعد قوة ، فحين تزول القوة التى تحمى الشيوعية وتكره الناس على تنفيذها ، فسيكون الشعب المحكوم لها أول الخارجين عليها والهادمين لبنيناتها من القواعد ، وفيما فعله الموظفون الروس خلال الحرب العالمية الثانية - كما ذكرنا آنفا - دليل لمن يشك فى هذه الحقيقة ، وافحام لمن يجادل فى مستقبل الشيوعية بعد انهيار سلطانها .



آراء الغربيين



من العسير أن نذكر هنا كل ما قاله الباحثون الغربيون عن مبادئ الإسلام والاشتراكية ، وأيضاً فإن ملامح هذه الاشتراكية كما كشفنا عنها في هذا البحث وبالشكل المنظم الذي أوردناه ليست معروفة لأولئك الباحثين كما نعتقد ، وإنما يعرفون من هذه الملامح جزءاً قليلاً منها كنظام الزكاة والمساواة . ومع ذلك فلنسمع إلى ما يقوله بعضهم عن ذلك :

يقول المستشرق « جيب المعروف » :

« ما زال الإسلام يحفظ التوازن بين الاتجاهين المتقابلين في دنيا الغرب ، فهو يساوم ويوائم بين الاشتراكية القومية والاوربية وبين شيوعية روسيا ، فلم يهو بالجانب الاقتصادي من الحياة إلى ذلك النطاق الضيق الذي أصبح من مميزات أوروبا في الوقت الحالي ، والذي هو اليوم من مميزات روسيا أيضاً (١) .

ويقول المستشرق المعروف « ماسينيون » :

« أن لدى الإسلام من الكفاية ما يجعله يتشدد في تحقيق فكرة المساواة ، وذلك بفرض الزكاة التي يدفعها كل فرد لبيت المال ، وهو يناهض الديون الربوية ، والضرائب غير المباشرة التي تفرض على الحاجات الأولية الضرورية ، ويقف في نفس الوقت إلى جانب الملكية الفردية ورأس المال التجاري ، وبذا يحل الإسلام مرة أخرى مكاناً وسطاً بين نظريات الرأسمالية والبورجوازية ، ونظريات البلشفية الشيوعية » إلى أن يقول « وللإسلام ماضٍ بديع من تعاون الشعوب وتفاهمها ، وليس من مجتمع آخر له مثل مال للإسلام من ماضٍ كلل بالنجاح في جمع كلمة مثل هذه الشعوب الكثيرة المتباينة على بساط المساواة في الحقوق والواجبات (٢) » .

ويقول « ليو دوروش »

ولقد وجدت في الإسلام حل المشكلتين اللتين تشغلان العالم طراً : الأولى قول القرآن : « إنما المؤمنون أخوة » فهذا أجمل مبادئ الاشتراكية . والثانية فرض الزكاة على كل ذي مال (٣) .

ويقول « ماركس (٤) » في نظام الزكاة :

« وكانت هذه الضريبة فرضاً دينياً يتحتم على الجميع أدائه ، فضلاً عن هذه الصفة الدينية فالزكاة نظام اجتماعي عام ، ومصدر تدخّل به الدولة المحمدية ما تمدّ به الفقراء وتعينهم ، وذلك على طريقة نظامية قوية لا استبدادية تحكمية ولا غرضية طارئة . وهذا النظام البديع كان الإسلام أول من وضع أساسه في تاريخ البشرية عامة ، فضرية

(١) الإسلام والنظام العالمي الجديد لمولانا محمد علي : ٤٥

(٢) الإسلام والنظام الجديد لمولانا محمد علي : ٤٥

(٣) الإسلام والحضارة العربية لكردي علي : ٢٧٤/١

(٤) ليس هو كارل ماركس الشيوعي كما ظن بعض الناس فلنا نجم بأنه لم يتج له أن يطلع على شيء من الإسلام لا قليلاً ولا كثيراً ، ولكننا نرجح أنه المسالم السني الألماني . ( ماركس ولهم )

الزكاة التي كانت تجبر طبقات الملاك والتجار والاغنياء على دفعها. لتصرفها الدولة على المعوزين والعاجزين من أفرادها هدمت السياج الذي كان يفصل بين جماعات الدولة الواحدة ، ووحدت الامة في دائرة اجتماعية عادلة ، وبذلك برهن هذا النظام الاسلامي على أنه لا يقوم على أساس الاثرة البغيضة (١) » .

وهناك آراء للغربيين تشيد بنظام الاسلام بوجه عام نذكر بعضها فيما يلي :

قال المؤرخ المعاصر : ه.ج. ويلز (٢) في كتابه في معالم تاريخ الانسانية :

« كان الاسلام منذ البداية قوى المقاومة الى حد بعيد لعمليات الصقل والتفاصيل اللاهوتية التي اربكت المسيحية ، وكان مليئا بروح الرفق والسماحة والاخوة ، وكان عقيدة سهلة يسيرة الفهم . . . كان غريزة مجسدة تحوى عواطف الفروسية في الصحراء . ولم تكن كتلة الناس الذين جاءتهم دعوة الاسلام يهتمون إلا بشيء واحد هو أن ذلك الرب ( الله ) الذي كان يبشر به الرسول ، كان بشهادة الضمير المنطوية عليه قلوبهم ، رب صلاح وبر ، وأن القبول الشريف لمبادئه وطريقته يفتح الباب على مصراعيه في عالم تقلقل وخيانة وانقسامات لا تسامح فيها - على اخوة عظيمة متزايدة من رجال جديرين بالثقة في الارض . »

ان الاسلام ساد لانه كان خير نظام اجتماعي وسياسي ، استطاعت الایام تقديمه ، وهو قد انتشر لانه كان يجد في كل مكان شعوبا تسلب وتظلم وتخوف ولا تعلم ولا تنظم ، كذلك وجد حكومات اثنائية سقيمة لا اتصال بينها وبين أى شعب أصالة ، كان ( الاسلام ) أوسع وأحدث وانظف فكرة سياسية اتخذت سمة النشاط الفعلي في العالم حتى ذلك اليوم ، وكان يهب بنى الانسان نظاما أفضل من أى نظام آخر وكان النظام الرأسمالي الاسترقاقي في الامبراطورية الرومانية ، والدب والثقافة والتقاليد الاجتماعية في أوروبا ، وقد انحلت انحلالا تاما ، وانهارت قبل أن ينشأ الاسلام ، ولم يحدث أن دب ديب الانحلال في الاسلام ايضا الا عندما ضاعت ثقة البشرية في ممثليها (٣) »

ويقول في مكان آخر في الحديث عن الحضارة الاسلامية : « ان روح

(١) المصدر السابق : ٧٥/١

(٢) لهذا المؤرخ أخطاء كبيرة في رؤية الشخصى بالرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو لا يخرج بذلك عن كل غربي يريد أن يفهم محمدا صلوات الله عليه كما يهوى وتهوى طباعه وغرائزه الغربية ومقاييسه الخيالية التي لم يطبقها الغربي نفسه على حياته لحظة واحدة من لحظات التاريخ

(٣) المجلد الثالث ص ٦٤٣ ، ٦٦٩ تعريب عبد العزيز جاويز

الاسلام ظلت بضعة قرون تحتفظ للناس عامة بقدر من الاستقامة وضبط النفس وراء آثار القصور والمعسكرات ومنافستها (١) .

ويقول مؤلف « قصة الحضارة » ( بول ديوانت ) :

« واذا ما حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من اثر في الناس قلنا : أن محمدا كان من اعظم عظماء التاريخ ، فقد اخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحي والاخلاقي لشعب ألفت به في دياجير الهمجية حرارة الجو وجذب الصحراء ( يقصد بذلك العرب ، مع أن دعوة الرسول نجحت في رفع المستوى الاخلاقي والروحي والاجتماعي للعرب وغيرهم كما يعترف المؤلف نفسه في آخر كلامه عن الحضارة الاسلامية وقد نجح في تحقيق هذا الغرض نجاحا لم يدانه فيه أى مصلح آخر في التاريخ كله ، وقل أن نجد انسانا غيره حقق كل ما كان يحلم به ، وقد وصل الى ما كان يتغيه عن طريق الدين (٢) » .

وقال في موضع آخر (٣) :

« ولسنجد في التاريخ كله مصلحا فرض على الاغنياء من الضرائب ما فرضه عليهم محمد ( صلى الله عليه وسلم ) لاعانة الفقراء ، وكان يحض كل موص بأن يخصص من ماله جزءا للفقراء ، واذا مات رجل ولم يترك وصية فرض على ورثته أن يخصصوا بعض ما يرثون لاعمال البر (٤) .

ويقول في مكان آخر (٥) .

« والقرآن يبعث في النفوس الساذجة ( البريئة السليمة الفطرة ) اسهل العقائد واقلها غموضا ، وابعدها عن التقيد بالمراسم والطقوس وأكثرها تحررا من الوثنية والكهنوتية ، وقد كان له أكبر الفضل في رفع مستوى المسلمين الاخلاقي والثقافي ، وهو الذي أقام فيهم قواعد النظام الاجتماعي والوحدة الاجتماعية وحضهم على اتباع القواعد الصحيحة وحرر عقولهم من كثير من الخرافات والاوهام ومن الظلم وانفسوة ، وحسن أحوال الارقاء ، وبعث في نفوس الاذلاء الكرامة والعزة ، وأوجد بين المسلمين ( اذا استثنينا ما كان يقتضيه بعض الخلفاء المتأخرين ) درجة من الاعتدال والبعد عن الشهوات لم يوجد لها نظير في أية بقعة من بقاع العالم يسكنها الرجل الابيض ، ولقد علم الاسلام الناس أن يواجهوا صعاب الحياة ، ويتحملوا قيودها ، بلا شكوى ولا ملل ، وبعثهم الى التوسع توسعا كان أعجب ما شهده التاريخ كله ، وقد عرف الدين وحدده تحديدا لا يجد المسيحي ولا اليهودي الصحيح العقيدة ما يمنعه

(٢) قصة الحضارة : ٤٧/١٣

(٤) سورة النساء : ٨ ، ٩

(١) المصدر السابق ص ٦٦٧

(٣) المصدر السابق : ٥٩/١٣

(٥) قصة الحضارة : ٦٨/١٣

من قبله ، ثم ذكر آية البر التي ذكرها في بحث التكافل الاجتماعي « ليس البر أن تولوا وجوهكم .. » الخ الآية .

وقد قال خلال بحثه عن الحضارة الإسلامية في الاندلس :

« كان حكم العرب نعمة وبركة قصيرة الاجل على الزراع من اهل البلاد ، ذلك أن الفاتحين لم يبقوا على الضياع التي كبرت فوق ما يجب والتي كان يملكها القوط الغربيون ، وحرروا رقيق الارض من عبودية الاقطاع (١) .

ويختتم المؤلف حديثه عن الحضارة الإسلامية بقوله :

« لقد ظل الاسلام خمسة قرون (على الأقل) من عام ٧٠٠ م الى ١٢٠٠ م يتزعم العالم كله في القوة ، والنظام ، وبسطة الملك ، وجميل الطباع والأخلاق ، وفي ارتفاع مستوى الحياة ، وفي التشريع الانساني الرحيم ، والتسامح الديني ، والاداب ، والبحث العلمي ، والعلوم ، والطب ، والفلسفة الخ (٢) .

وقالت الدكتورة لورا فيشيا فاغليري وهي تتحدث عن الفتوحات الإسلامية وآثارها :

« لقد قوضت حضارتان وزرع دينان ، فاذا بفيض جديد من حياة عارمة يتدفق في عروق تلك الشعوب الخائرة القوى . لقد تحلى املم عيون العالم المندهش دين جديد بسيط سهل ، يخاطب القلب والعقل جميعا . وأقيم شكل جديد من أشكال الحكومة كان أسمى الى حد بعيد - في خصائصه ومبادئه الأخلاقية - من تلك المعروفة في ذلك العصر .

وبدأ الذهب الذي كان مخبوءا في صناديق السراة ينتقل الى أيدي الفقراء ، مستهلا نظاما من التداول السليم كرة أخرى ، وفي ظل من حكومة تسيروها مثل عليا ديمقراطية أمينة وجد الرجال المثقفون البارعون الاذكياء تشجيعا من النظام الجديد ، فاستطاعوا أن يبلغوا أسمى المناصب العامة .

ومن الممكن القول في اطمئنان ، ان البلاد المفتوحة عرفت - على الرغم من بعض الحالات المحتومة النادرة التي تجاوز فيها الجند حدودهم أثناء الفتح - عهدا من الرخاء والازدهار ، وشهدت غنى لم تشهده آسيا منذ قرون طويلة ، وإلى هذا فقد نعمت حياة الشعوب المغلوبة وحقوقها المدنية وأموالها بدرجة من الحماية تقارب تلك التي نعم بها المسلمون أنفسهم (٣) .

(١) المصدر السابق : ٢٩٣ وفي هذا رد على المجامل الذي زعم ان الاسلام أيد الاقطاع !

(٢) أيضا : ٣٨٢ (٣) دفاع عن الاسلام : ٢٧ ، ٢٨

# الواقع التاريخي





ماهو الواقع التاريخى لاشتراكية الاسلام كما ذكرناها ؟  
 هل طبقت ونفذت ونعم بها المجتمع الاسلامى فى حضارته الزاهرة؟  
 أم بقيت تعاليم جميلة وحلاما عذابا لم يكتب لها التطبيق ؟  
 يقول بعض الناس انها طبقت ، ويقول اخرون : لا ولا فى عهد  
 الخلفاء الراشدين !  
 فما هو الحق فى هذه المسألة ؟

ان الحكم فى ذلك هو التاريخ ، فماذا يقول ؟  
 لاشك ان معرفة ذلك من كتب التاريخ المعروفة بين أيدينا صعب  
 المنال ، ذلك لان تاريخنا كتب وعليه طابعان بارزان :  
 الاول : الطابع الشخصى للملوك والامراء والقواد الحربيين ، ولم  
 يكتب لمعرفة أخبار الجماهير وتطورها وأوضاعها الاجتماعية والحضارية  
 فى مختلف العصور .

الثانى : الطابع السياسى ، فقد كتب ليؤرخ فيه تاريخ الامويين  
 والعباسيين ثم الدول الاسلامية الاخرى من حيث قيامها أو سقوطها .  
 ومن هنا لابد من أن يلاقى الباحث صعوبات جمة حتى يتعرف  
 على الاوضاع الاجتماعية معرفة تفصيلية فى مختلف العصور .

ولا يستثنى من هذا الا العصر النبوى أولا ثم عصر الخلفاء  
 الراشدين . ثانيا ، فقد اسعفتنا كتب الحديث الصحيحة التى اعتمدها  
 الجمهور بعد النقد والتمحيص العلميين بكثير من المعلومات عن الاوضاع  
 الاجتماعية بعد حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ثم فى حياة خلفائه  
 الراشدين .

وكان لعناية المسلمين بحديث الرسول وكل مايتصل بحياته العامة  
 والخاصة فضل فى حفظ هذا التراث وتنقيته من دس  
 الكائدين وتحريف المحرفين .

أما العصور الاخرى وخاصة عصور الامويين فقد تأخر تاريخ  
 تدوين أخبارها واختلط الصحيح بالكذب منها ، وعملت الدعاية  
 العباسية والباطنية فى طمس كثير من معالم الحقيقة وطغت ثقلباتها  
 وأخبارها السياسية على كل ماعداها .

ومع هذا فلا يفقد الباحث الدائب أمله من الوصول الى أخبار  
 صحيحة وافية عن الحالة الاجتماعية فى ذلك العصر والعصور التى  
 تلتها .

ولهذا فنحن سنتحدث بالتفصيل عن مدى تطبيق مبادئ اشتراكية  
 الاسلام فى عصر الرسول وصحابته وبالأحمال عن تطبيقها فى العصور  
 التى تليه واعددين أن نتابع البحث والدأب حتى نظفر بالمسألة  
 المنشودة .

ولا يشك كل من اطلع على الاحاديث والآثار والاخبار الصحيحة التي وردت عن عصر الرسول وصحابته ، وعصر خلفائه الراشدين ، في أن المبادئ التي أعلنها الاسلام لأشترائيته السمحة الواقعية كما ذكرناها في هذا الكتاب ، قد طبقت تطبيقا صحيحا في ذلك العصر ، وانها نجحت في ايجاد :

١ - دولة اشتراكية من الطراز الذي لا يعرفه التاريخ القديم .  
٢ - دولة اشتراكية لم تبلغ ذروة نبلها دولة اشتراكية ما في عصرنا الحديث .

٣ - مجتمع اشتراكي تحقق به حلم الفلاسفة وأمال الانبياء الذين سبقوا محمدا صلى الله عليه وسلم ولكنه عليه الصلاة والسلام نجح في ايجاد هذا المجتمع بأروع مما كان يحلم به اولئك الفلاسفة والانبيا .

٤ - اجيال من الاشتراكيين الانسانيين الربانيين الذين جمعوا بين العمل للدنيا والعمل للآخرة ، وحب الكسب مع حب الإنفاق ، وأكل الطيبات مع تحمل الجوع وشظف العيش ، والانغماس في الدنيا مع عدم التلوث بها .

ان مثل هذه الاجيال لم تنقطع من عهده صلى الله عليه وسلم حتى اليوم ، ولن تنقطع ما دام رسول الله قدوة كل مسلم ، ولكن أروع هذه الاجيال وانقاها وأصفها وأكثرها تأثيرا في تاريخ العالم وحضارته ، هو الجيل الذي رباه محمد صلى الله عليه وسلم بيده وصنعه الله على عينه ! ..

وهذا وحده يكفي في رأينا برهانا - لا يرد - على نجاح الاسلام في اشتراكيته المثالية الواقعية ، مما لم يحصل مثله لدين ولا دعوة ولا لحركة اصلاحية في تاريخ الانسانية قديمها وحديثها .

ونحن فيما يلي سندكر أمثلة لآثر هذه الاشتراكية الاسلامية في ايجاد الدولة الاسلامية الاشتراكية ، وايجاد المجتمع الاسلامي الاشتراكي ، وايجاد الفرد لمسلم الاشتراكي ، ولنا نستقصي ، ولكننا نضرب الامثال ، وفي ميدان التاريخ البعيد عن الاهواء والعصبيات متسع لكل من أراد المزيد والتأكيد من هذه الحقائق .

ولا ريب عندنا في أن نجاح اشتراكية الاسلام في اقامة الدولة الاشتراكية الاولى والمجتمع الاشتراكي الاول والجيل الاشتراكي الفلاني التاريخ مدين في ذلك الى شخصية محمد صلى الله عليه وسلم الذي كان في قيادته ورئاسته المثل الاعلى للمجتمع الاشتراكي المسلم ، وفي معيشتة مع أصحابه ، المثل الاعلى للمجتمع الاشتراكي المسلم ، وفي سلوكه وخلقه المثل الاعلى للفرد الاشتراكي المسلم .

يقول الله تعالى مخاطبا المسلمين : « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر (١) » .

ولذلك - حين ضعفت الدولة الاشتراكية الاسلامية ، وضعف المجتمع الاشتراكي الاسلامي - استمرت النماذج الانسانية الرفيعة تنرى بلا انقطاع في كل العصور الاسلامية - قلة أو كثرة - لان شخصية الرسول كانت وما تزال النموذج الاعلى للانسان الكامل يحاول احتذاءها كل مسلم ما وسعه الجهد وأمكنته القدرة .  
ومن هنا كان لابد لنا من ذكر كلمة عن شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم لنتبين اثرها في الواقع التاريخي للاشتراكية الاسلامية .  
سواء كان في الدولة الاشتراكية الاسلامية ، أو في المجتمع الاشتراكي الاسلامي ، أو في الفرد الاشتراكي المسلم .

## شخصية الرسول وأثره

أن محمدا عبد الله ورسوله ..

أما محمد الرسول - صلى الله عليه وسلم - فلن يفكر أحد أن يكون مثله أو قريبا منه ، في اشراق روحه ، واتصاله بالملأ الأعلى ، يتلقى الوحي ، ويتنزل عليه الهدى آيات بينات ! لن يصل أحد الى هذا ولا الى قريب منه ، لأن الله ختم بنبوته النبوات ، وبشريعته الشرائع ..

وأما محمد الانسان ، فهو هو الذي يحرس كل مسلم على أن يكون ظله في الأرض ، يتخلق بخلق الله ، ويهتدى بهديه ، ويأتسى به في صبره وجهاده ، وزهده وعبادته ، وتضحيته وإثاره ، ومأكله وملبسه ، وما اعتقد أن الله أكرم رسوله الانسان بمدح أعلى من هذا المديح (وانك لعلي خلق عظيم (١)) .

تعال بنا لتتخطى أسوار الزمن الى عتبة «محمد الرسول الانسان» فنرى روح الحياة السارية المشرقة في مجتمع فاض بالبطولات والمروءات حتى كاد تاريخه يلتحق بالاساطير ، لولا أنه حق لامرئة فيه وصدق لاكذب معه .

### ١ - أوصافه الخلفية

قالوا في أوصافه عليه الصلاة والسلام (٢) انه كان : ظاهر الوضأة مبتلع الوجه ، له نور يعلوه ، اذا زال «قلعا» ، يخطو تكفيا ، ويمشي هونا ، ذريع المشية كأنما ينحط من صلب ، خافض الطرف ، نظره الى الأرض أطول من نظره الى السماء ، جل نظره الملاحظة ، يمشي وراء أصحابه ، ويبدد من لقي بالسلام دائم الاحزان ، متواصل الفكرة ، ليست له راحة ، طويل السكت ، لا يتكلم في غير حاجة ، يفتتح الكلام ويختمه باسم الله ، واذا تكلم أعاد الكلام ثلاثا ليفهم عنه ، كلامه فصل لا فضول ولا تقصير ، أوتي جوامع الكلم ، واختصرت له الحكمة اختصارا ، ليس بالجافي ولا المهين ، يعظم النعمة وان دقت ، لا يذم منها شيئا ، غير أنه لم يكن يذم ذواقا (طعاما) قط ولا يمدحه ، ولا تغضبه الدنيا ولا ما كان لها ، فاذا تعدى الحق لم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له ، ولا يغضب لنفسه ، ولا ينتصر لها ، واذا غضب أعرض وأشاح ، واذا فرح غص طرفه ، جل ضحكه التبسيم ، اذا نطق فعليه البهاء ، واذا صمت فعليه الوقار ، أزين الناس منظرا ، وأحسنهم وجها ، وأجودهم ،

(١) : القلم

(٢) أخذنا هذه الأوصاف عن كتاب السنة الصحيحة وكتب المسائل النبوية وخاصة

شمائل الامام أبي عيسى الترمذي رحمه الله

وأسخاهم نفسا ، يعطى عطاء من لا يخشى الفقر ، وما سئل عن شيء قط فقال : لا : وما خير بين امرين الا اختار أيسرهما ما لم يكن اثما .

تقول عائشة رضى الله عنها في مجامع خلقه : كان خلقه القرآن . ويقول على رضى الله عنه في وصف شخصيته : من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه .

## ٢ معيشته في نفسه

كان لا يتكلف في لباس ولا طعام ، يلبس ما يتيسر ، وأكثر لبسسه المعتاد من لباس الناس ، وكان يلبس جيد الثياب اذا اقتضى الامر لمقابلة وفود أو لمناسبة عيد ، وكان يأكل ما يجده ، فان وجد اللحم والحلوى أكل ، وأن لم يجد الا الخبز والزيت أو الخل أكل ، وأن لم يجد ما يأكله بات طاويا ، وربما شد على بطنه الحجر من شدة الجوع .

وكان ينام على فراش من جلد حشوه ليف ، ويجلس على الحصير وينام عليها كثيرا .

## ٣ معيشته في بيته

كان حلو المعاشرة لزوجاته كثير المسامرة لهن ، متحملا لآخلاقهن وخاصة غيرتهن ، وكان يقول : « خيركم خيركم لاهله (١) » . وكان نساؤه يتحملن منه شدة الحال وخشونة العيش ، وكان يسره ذلك منهن ، فلما فكرن يوما أن يطلبن منه التوسعة والزينة والمطعم ، شق ذلك عليه وهجرهن شهرا لا يكلمهن ، ثم نزل قوله تعالى :

**« يا أيها النبي قل لأزواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعن وأسرحن سراحا جميلا ، وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله أعاد للمسنات منكن أجرا عظيما (٢) » .**

فلما نزلت هاتان الآيتان خير نساءه وبدأ بعائشة وقال لها : « ما أحب أن تختارى حتى تستأمرى أبويك » ثم تلا عليها الآيات وفيها التخيير بين أن تبقى عنده على شظف العيش وخشونة الحياة ، وبين أن يفارقها ويمتعها متاعا جميلا ، فكان جوابها على الفور : أفيك استأمر أبوى ؟ بل اختار الله ورسوله والدار الآخرة ! وكذلك فعل بكل واحدة من نساءه على انفراد فكان جوابها كجواب عائشة وهى لا تعلم بما أجابت غيرها (٣) .

وظل هكذا شأنه مع نساءه من التقشف وخشونة العيش حتى توفاه الله .

تقول السيدة عائشة رضى الله عنها : « ما شبع آل محمد يومين من

(٢) سورة الاحزاب : ٢٨ ، ٢٩

(١) رواه الترمذى وابن ماجه

(٣) تفسير الطبري : ٩٩/٢١

خبز البر ، ولقد كنا نمكث الشهر والشهرين لا يوقد في بيتنا نار ، وما كان طعامنا إلا التمر والماء ، ولقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وما في بيتنا شيء يأكله ذو كبد إلا كسرة خبز من شعير على رف لى (١) » .

وقال أنس : رهن النبي صلى الله عليه وسلم درعا له على شعير يأخذه لطعام أهله (٢) .

#### ٤ - عمله في بيته

سئلت عائشة رضى الله عنها ماذا كان يعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم في البيت ؟ فقالت : كان بشرا من البشر ، يخصف نعله ، ويرفع ثوبه ، ويحلب شاته ، ويعمل ما يعمل الرجل في بيته ، فاذا حضرت الصلاة خرج (٣) .

#### ٥ - معاملته لأصحابه

١ - يقول أنس خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم : خدمت النبي عشر سنين فما قال لى : أف . قط ، ولا قال لشيء صنعته : لم صنعته ، ولا لشيء تركته : لم تركته ؟ وكان لا يظلم أحدا أجره (٤) .

٢ - وقالت عائشة رضى الله عنها : ما ضرب شيئا قط ، ولا ضرب امرأة ولا خادما (٥) .

٣ - وقال أبو هريرة رضى الله عنه : دخلت السوق مع رسول الله ليشتري سراويل ، فوثب البائع الى يد النبي صلى الله عليه وسلم ليقبلها ، فجذب يده ، ومنعه قائلا له : « هذا ما تفعله الاعاجم بملوكها ، ولست بملك ، انما أنا رجل منكم » ثم أخذ السراويل فأردت أن أحملها فأبى وقال : « صاحب الشيء أحق بأن يحمله » .

٤ - وكان عليه الصلاة والسلام مرة في سفر مع جماعة فلما حان موعد الطعام ، عزموا على اعداد شاة يأكلونها ، فقال أحدهم : على ذبحها ، وقال الآخر : على سلقها ، وقال الثالث : على طبخها ، فقال النبي عليه السلام : وعلى جمع الحطب ! فقالوا : يا رسول الله نحن نكفيك العمل ، فقال : علمت انكم تكفوننى ولكنى أكره أن أتميز عليكم ، وأن الله سبحانه وتعالى يكره من عبده أن يراه مميزا بين أصحابه (٦) .

٥ - جاء رجل من الانصار يكنى أبا شعيب فقال لفلان له قصاب : اجعل لى طعاما يكفى خمسة ، فاني أريد أن أدعو النبي صلى الله عليه وسلم خامس خمسة ، فاني قد عرفت فى وجهه الجوع ، فدعاهم فجاء

(١) رواه البخارى ومسلم وغيرهما (٢) رواه البخارى

(٣) رواه البخارى فى الادب المفرد (٤) رواه البخارى

(٥) الزرقانى فى شرح المواهب : ٢٨٧/٤ (٦) الزرقانى شرح المواهب : ٢٦٥/٤

معهم رجل ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لصاحب الدعوة : ان هذا قد تبعنا فان شئت ان تأذن له فأذن له ، وان شئت ان يرجع رجع ، فقال الانصارى : لا بل اذنت له (١) .

٦ - وكان من عاداته صلى الله عليه وسلم مع أصحابه ان يقبل معذرة المسيء ولا يجابه احدا بما يكره ، واذا بلغه عن احد شيء يكرهه، نبه على الخطأ بقوله : « ما بال اقوام يفعلون كذا » دون ان يذكر اسمه .

٧ - ولم يكن يحب ان يقوم له احد ، وكان يجلس حيث انتهى به المجلس ، وينزل الى أسواقهم فيرشدهم الى الامانة وينهاهم عن الخداع والغش في المعاملات .

٨ - وكان من عاداته ان يبش الى كل من يجلس اليه حتى يظن انه أحب أصحابه الى قلبه .

٩ - ويقرب اليه ذوى السبق فى الاسلام والجهاد ولو كانوا من غمار الناس .

١٠ - ويستشير أولى الراى فيما هو من شؤون السياسة او الحرب او أمور الدنيا ، وينزل عند آرائهم ولو خالفت رايه كما حصل فى معركة بدر وغيرها .

## ٦ - خشيته وعبادته

كان صلى الله عليه وسلم كثير المراقبة لله عز وجل واسع الخشية منه عظيم العبادة له ، يقوم فى الليل متهجدا راکما ساجدا حتى تتورم قدماءه ، وتفيض عيناه بالدمع من خشية الله حتى يسمع لصدره أزيز كأزيز الرجل من البكاء ، فتقول له فى ذلك السيدة عائشة رضى الله عنها : أتفعل ذلك يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فيجيبها : أفلا أكون عبدا شكورا ؟ .

وكان كثيرا للهج باسم الله عز وجل فاذا أكل أو شرب أو قام أو قعد أو ابتدأ شيئا أو فعل أمرا بدأ ذلك كله باسم الله الرحمن الرحيم وإذا اختتمه بالحمد لله رب العالمين .

وكان لا يفتر من الدعاء لربه ومن دعائه عليه الصلاة والسلام :

اللهم انى أعوذ بك من علم لا ينفع ، وعمل لا يرفع ، ودعاء لا يسمع (٢) .

اللهم انى أسألك من الخير كله ما علمت منه وما لم أعلم وأعوذ بك من الشر كله ما علمت منه وما لم أعلم (٣) .

(١) رواه البخارى

(٢) رواه احمد والحاكم وغيرهما

(٣) رواه أبو داود والطبري

اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها وأجرنا من خزي الدنيا  
وجميع سخطك (٢) .

اللهم انى أعوذ بك من زوال نعمتك وتحول عافيتك وفجأة نعمتك  
وجميع سخطك (٢) .

اللهم انى الصوذ بك من منكرات الاخلاق والاعمال والاهواء  
والادواء (٣) .

ولما كذبتة ثقيف في الطائف وأذته وأغرت به سفاءها يرحمونه  
بالاحجار حتى دمت قدماه ، اتجه الى الله خالقه بهذا الدعاء الرهيب:

اللهم انى أشكو اليك ضعف قوتى وهوانى على الناس ، يا ارحم  
الراحمين ، الى من تكلنى ؟ الى عدو يتجهمنى ؟ أم الى قريب ملكته  
أمرى ؟ ان لم تكن ساخطا على فلا أبالى ، غير أن عافيتك أوسع لى ،  
أعوذ بنور وجهك الذى أضاءت له السموات والأرض وأشرقت له  
الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، أن تحل علي غضبك ، أو  
تنزل على سخطك ، ولك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا  
قوة الا بك (٤) .

#### ٧ - رياضته ونظافته

ومع هذه العبادة وذلك التضرع والبكاء ، كان طيب النفس ،  
متفتحا للحياة ، يتسابق مع عائشة ، ويتصارع مع ركانة ، ويشهد لعب  
الحبشة في أعيادهم ، ويعنى بلباسه ونظافته ، فهو كثير الاغتسال  
كثير الادهان بالطيب ، اذا مر من طريق يعرف الناس انه قد مر به لما  
يجدون من طيبه ، واذا صافحه المصافح يظل يجد أثر الطيب في يده  
ثلاثة أيام ، وكان لا يفارقه في حضره وسفره ، مشطه ومقصه ومراآته  
ومكحلتة ..

وبهذا يفترق الامر كثيرا عن معنى الدين والتعب في الديانات  
الآخري ، اذ يعتبرون من مآثر القديس عندهم أنه لم يقرب جسمه  
الماء طيلة حياته ! .

كما يفترق عن عادة الفريين في هذه الازمان اذ رأيناهم يعيرون على  
الرجل أن يدهن بالطيب فتفوح رائحته الطيبة منه ، والله في خلقه  
شؤون ! ..

#### ٨ - مزاحه ودعابته

ومما يتصل بطيب النفس ، حب الدعابة البريئة ، والمزاح مع  
الأصحاب والمتريدين عليه ، فقد كان صلى الله عليه وسلم يحب الدعابة  
ويتسم للنكتة اللطيفة ، ويمازح أصحابه ويداعبهم بالنكات اللطيفة .

(٢) رواه مسلم وأبو داود والترمذى

(١) رواه أحمد والحاكم وغيرهما

(٤) رواه الطبرانى

(٣) رواه الترمذى والطبرى والحاكم



١ - جاءته امرأة عجوز تطلب اليه أن يدعو الله لها بدخول الجنة، فقال لها مداعبا: أو ما علمت أن الجنة لا تدخلها عجوز؟ .. فوات تبكي. فقال: ردوها، لما قرأت قوله تعالى: **أنا أنشأناهن أنشاء، فجعلناهن أبكارا، عربا أترابا (١)** .

٢ - وجاءته امرأة من الانصار تشكو اليه زوجها، فقال: ازوجك الذي في عينه بياض؟ فجذعت اذ ظنت أن بعينه عيبا لم تطلع عليه، فأفهمها أن كل أنسان في عينيه بياض حول المقلة .

٣ - وجاءه أعرابي يسأله أن يمنحه ناقة يركب عليها في سفره، فقال له: أنا حاكم على ولد ناقة . فقال: وما أصنع به يارسول الله؟ فقال: وهل تلد الإبل إلا النوق؟ .

## ٩ - تواضعه وسماحته

قد رايت فيما مر معك من معاملته لأصحابه انها معاملة نبي كريم، وزعيم محبوب متواضع، وأنسان عظيم استمد عظمته من خصائصه لأمن جاهه ولا من نفوده .

ومما يروع في صورة رسول الله صلى الله عليه وسلم انه ظل هو هو الانسان المتواضع تواضع الانبياء العظماء في مختلف مراحل دعوته، حين كان مضطهدا، وحين كان منتصرا، حين كان وحيدا، وحين كان في أوج المجد والانتصار .. وما عهدنا بمثل هذا في تاريخ العظماء .. وما كان محمد عظيما، فحسب ولكنه رسول الله أيضا ..

يوم فتح الله له مكة وانهرمت امام جحافل جيوشه قريش الطاغية الباغية التي قابضته العداة نحو من عشرين عاما، دخل مكة على جمل له مطاطيء الرأس خضوعا لله وشكرا .

وجاءه الرجال خائفين وفيهم رجل ترعد فرائسه، فقال له: هون عليك انما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد ( اللحم المقدد ) .

وظل رسول الله يستمع الى العبد والعجوز والارملة والمسكين يقف في الطريق لكل من يستوقفه، ويصافح، كل من يلقاه فلا يترك يده حتى يكون الذي استوقفه هو الذي يترك يده، ويتفقد أصحابه، ويזור مرضاهم ويشهد جنازهم، ويستمع الى مشاكلهم، ويشاورهم في أحزانهم وأفراحهم .

## ١٠ - رحمته وشفقته

كان صلى الله عليه وسلم واسع الرحمة بالأطفال والنساء والضعفاء .

سمع بكاء صبي وهو في الصلاة فخفف صلاته كيلا تفتن أمه التي كانت تصلى وراءه .

ومر بعد انتهاء إحدى المعارك بجثة امرأة مقتولة فغضب وقال  
ألم أنفكم عن قتل النساء؟ ما كانت هذه لتقاتل!

وبلغت رحمته بالحيوان حداً عجيباً فقد أصفى الإناء إلى هرة  
الزادت الشرب ..

وقام بنفسه على تريض ديك مرضى في بيته .

ورأى جملاً هزيراً فقال : اتقوا الله في هذه البهائم ، اطعموها  
واركبوها صالحة ..

وبلغت معاملته للارقاء ووصاياه فيهم ، حداً لم يعرفه التاريخ .  
وكل ذلك دليل على ما فاضت به نفسه الكبيرة من معاني الرحمة  
والشفقة .

## ١١ - مشاركة لآلام الشعب

اشتكت إليه فاطمة بنته ما تلقاه من أعمال البيت من شدة وعناء،  
وطلبت إليه أن يخدمها خادماً ، فرفض عليه السلام ذلك وقال لها  
لا أعطيك وأدع أهل الصفة - وهم جماعة من الفقراء - تطوى بطونهم  
من الجوع (١) .

وذهبت أم الحكم بنت الزبير وأختها فاطمة يسألان النبي صلى  
الله عليه وسلم معونة على أعمالهما البيتية فقال لهما : سبقتكما يتامى  
بدر (٢) ..

وأتى النبي صلى الله عليه وسلم بيت فاطمة ليزوره ، ثم عدل  
فلم يدخل عليها ، فبعثت علياً ليسأل الرسول عن سبب عدوله عن  
زيارتها ، فأجابته الرسول أني رأيت على بابها ستراً موشياً ! فعاد إلي  
فاطمة فأخبرها الخبر ، فقالت فاطمة : ليأمرني فيه بما شاء ، فقال  
عليه السلام : ترسلني به إلى فلان أهل بيت بهم حاجة (٣) .

والزاد زيارتها مرة أخرى فعاد كذلك دون أن يدخل عليها فأرسلت  
تسأله عن سر ذلك أيضاً ، فأجابها : اني وجدت في يديها سوارين  
من فضة ، فبلغها ذلك فأرسلتهما إليه ، فباعهما النبي صلى الله عليه  
وسلم بدرهمين ونصف وتصدق بهما على الفقراء .

ونستعير هنا بيان أديب العربية الكبير المرحوم مصطفى صادق  
الرافعي ليعلق على هذه الحادثة فيقول :

« يا بنت النبي العظيم ! وائت أيضاً لا يرضى لك أبوك حلية بدرهمين  
ونصف وأن في المسلمين فقراء لا يملكون مثلاً ! »

أي رجل شعبي على الأرض كمحمد صلى الله عليه وسلم فيه

(١) رواه الإمام أحمد

(٢) رواه البخاري

(٣) رواه أبو داود

للأمة كلها غريزة الإب ، وفيه على كل أحواله اليقين الذي لا يتحول  
وفيه الطبيعة التامة التي يكون بها الحقيقي هو الحقيقي .

يا بنت النبي العظيم ! ان زينة بدرهمين ونصف لا تكون زينة في  
رأى الحق اذا أمكن أن تكون صدقة بدرهمين ونصف ! ان فيها حينئذ  
معنى غير معناها ! فيها حق النفس غالباً على حق الجماعة ، وفيها  
الإيمان بالمنفعة حاكماً على الإيمان بالخير ، وفيها مالم يس بضرورة قد  
جار على ما هو الضروري ، وفيها خطأ من الكمال ، ان صح في حساب  
الحلال والحرام ، لم يصح في حساب الثواب والرحمة .

تعالوا إليها الاشتراكيون فاعرفوا نبيكم الأعظم ! ان مذهكم مالم  
تحية فضائل الإسلام وشرائعه - ان مذهبكم هذا كالشجرة الدابلة  
تعلقون عليها الأثمار تشدونها بالخيوط ، كل يوم تحلون ، وكل يوم  
تربطون ، ولا ثمرة في الطبيعة (١) .

وتحن أيضاً تساءل : أى زعيم من زعماء الدول الاشتراكية في عصرنا  
الحديث تؤثر عنه مثل هذه الحادثة وأمثالها ؟!

## ١٢ - زهده في الدنيا

دخل عليه عمر رضي الله عنه يوماً فراه على حصير قد أثر في جنبه ،  
ورفع رأسه في البيت فلم يجد إلا أهاباً معلقاً ( الأهاب كيس من جلد )  
وقبضة من شعير وحصيراً تكاد تبلى فبكى عمر ، فقال له : ما يبكيك  
يا ابن الخطاب ؟ قال عمر : يا نبي الله ! ومالي لا أبكي ، وهذا الحصير  
قد أثر في جنبك ، وهذه خزائنك لا أرى فيها إلا ما أرى ، وذلك كسرى  
وقبصر ، في الثمار والآنهار ، وانت نبي الله وصفوته ؟

فقال عليه السلام : أفى شك أنت يا ابن الخطاب ؟ أولئك قوم عجلت  
لهم طبيباتهم في الحياة الدنيا (٢) .

ودخل عليه ابن مسعود رضي الله عنه مرة فراه على تلك الحال ،  
فقال له : يا رسول الله ألا آذنتنا حتى نسط لك على الحصير شيئاً ؟  
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مالي وللدنيا ؟ إنما مثلى ومثل  
الدنيا كراكب ظل تحت شجرة ثم راح وتركها » (٣) .

## ١٣ نفقاته وصدقاته

وكان صلى الله عليه وسلم كثير النفقات والصدقات ، لا يدخر مالا  
ولا متاعاً وكثيراً ما يستدين لينفق على بعض ذوي الحاجات . وهو  
يعطى عطاءً من لا يخشى الفقر كما قدمنا ، وقد توفي وليس عنده درهم  
ولا دينار ، وقد أوقف كل أرض كانت قد صارت إليه من الفنائم ،

(١) وحى القلم : ٦٩/٢

(٢) رواه البخاري واحمد وابن ماجه بالفاظ متقاربة

(٣) رواه احمد وابن ماجه والترمذي

وفي ذلك يقول الحديث المشهور الذي خفى على بعض الطوائف سر روعته ودلالته على صدق نبوته وأخلاصه في رسالته : « نحن معاشر الانبياء لا نورث ما تركناه صدقة » .

جاءه مرة مال كثير فأنفقه الا بضع دريهمات استبقاها اذ لم يجد لها طالبا ، فما عرف تلك الليلة النوم قلقا مما بقى عنده ، وما كاد يصبح الصباح حتى سارع الى انفاقها ... وهكذا صح فيه قول صحابته « كان أجود من الرياح المرسله » .

#### ١٤ - عدله وشدته في الحق

وكان لا يعرف في الحق صديقا ولا قريبا فالكل عنده سواء ، والجميع مسئولون على أعمالهم أمام الله وأمام الشريعة .

سرت امرأة من بنى مخزوم حليا او متاعا ، ورفع أمرها الى النبي صلى الله عليه وسلم فاعترفت بالسرقة ، فخشى قومها أن ينفذ الرسول عقوبة السارق فيفتضحوا وجاءوا الى أسامة بن زيد وكان معروفا بحب النبي صلى الله عليه وسلم له ولابيه زيد ، وكلموه في أن يشفع للمرأة الا ينفذ فيها العقوبة ، وكلم رسول الله في ذلك فغضب عليه الصلاة والسلام وقال له : أتشفع في حد من حدود الله ؟ ثم جمع الناس فخطب فيهم فقال :

« يا أيها الناس .. انما أهلك من كان قبلكم انهم كانوا اذا سرق فيهم الشريف تركوه ، واذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها (١) . »

#### ١٥ - شجاعته في الحروب

ومن كمال هذ الصورة العجيبة في اكتمالها شجاعته صلى الله عليه وسلم في الحرب ، فقد كان يقود الجيوش ويخوض المعارك ويحرض على القتال في سبيل الرسالة التي حملها وآمن بها ، ولم يعرف عنه تكوص في معركة ، ولا فرار في موقعة ، بل نجده في معركة أحد - وقد انهزم اكثر المسلمين - ثابت الجنان يتلقى سهام الاعداء وهو واقف يقاوم ويناضل ، وفي معركة حنين اذ فر عنه اكثر الناس وقف على بغلته وهو يقول : أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب ، وفي شجاعته يقول على رضى الله عنه وهو البطل المقدام : كنا اذاً احمرت الحديق وحمل الوطيس نلوذ برسول الله صلى الله عليه وسلم فما يكون احد اقرب الى العدو منه .

#### ١٦ - حرصه على اداء رسالته

لم يترك رسول الله وسيلة لتبليغ رسالته الى الناس الا سلكها ، ولم يترك خصومه وسيلة لحمله على ترك دعوته الا سلكوها ، ولكنه ثبت

(١) رواه البخارى ومسلم وغيرهما

رغم كل اغراء وتهديد بالقتل والاغتيل وقال لعمه ابي طالب قولته المشهورة : « والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الامر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته! ولا شج وجهه صلى الله عليه وسلم في معركة «أحد» وكسرت رباعيته قيل له لو دعوت عليهم ؟ .. فقال : انى لم أبعث لعنا ولا لكنى بعثت داعيا ورحمة ، اللهم اغفر لقومى فانهم لا يعلمون .

## ١٧ - الرسول الكامل

ذلك نمط من اخلاقه صلى الله عليه وسلم نلمح منها حقيقة شخصيته ولسنا نفيض في بقية اخلاقه ، من وفائه ، وامانته وحيائه ، واخلاصه ، وصدقه ، وعفافه ، وحسن سياسته ، وجميل جسواره ، وفصاحته . وغير ذلك مما فاضت به كتب السيرة وأتاريخ فنحن هنا - كما قلت - نضرب الامثال ولا نستقصى ، ولكنى أختتم هذا الحديث بالاشارة الى ما كان لهديه في ارشاد قومه من اثر في توجيههم نحو الخير والحق والكرامة والسعادة .

## ١٨ - الرسول المعلم

حياة الرسول صلى الله عليه وسلم كلها ارشاد وهداية وتعليم ، وخاصة ماكان من اقواله عليه الصلاة والسلام التى قصد بها التشريع والهداية ، ولذلك كانت خصائصه وصفاته التى ذكرنا طرفا منها آنفا مدرسة يتعلم فيها أصحابه طرازا جديدا من الحياة ، ومقياسا جديدا من المفاهيم كان له اكبر الاثر في قيام الدولة الاسلامية والمجتمع الاسلامى ونشوء الفرد المسلم فى الجو الاشتراكى الذى اوضحنا معاملة فى هذا الكتاب .

ونحن هنا نريد أن نذكر نموذجا من تعليمه لاصحابه نعلم منه كيف كان يوجه ذلك المجتمع الجديد العهد بالاسلام ، والقريب العهد بالجاهلية توجيها بناء ايجابيا نحو الحياة الاشتراكية العاملة العابدة المتعاونة البارة الكاملة .

١ - جاء رجل الى النبی صلى الله عليه وسلم يريد الجهاد ، فقال ، أحيى والدك ؟ قال : نعم ، فقال له الرسول : ففيها فجأهه (١) .

٢ - قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحسن بن على ، وعنده الاقرع بن حابس التميمي جالس ، فقال الاقرع : ان لى عشرة من الولد ما قبلت منهم احدا ، فنظر اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : من لا يرحم لا يرحم (٢) .

٣ - جاءت امرأة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ! انا لا تقدر عليك فى مجلسك فواعدنا يومنا ذلك فيه ، فقال :

(٢) رواه البخارى ومسلم

(١) رواه البخارى ومسلم

« موعداكن بيت فلان » فجاءهن لذلك الوعد ، وكان فيما حدثهن : « ما يمكن امرأة يموت لها ثلاث من الولد فتحتسبهم الا دخلت الجنة » .

فقالت امرأة : « واثنان ؟ » قال : « واثنان (١) »

٤ - كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة مع اصحابه فقال لهم : ايكم مال وارثه احب اليه من ماله ، قالوا : يا رسول الله ! مامنا احد الا ماله احب اليه من مال وارثه ، فقال صلى الله عليه وسلم : مالك ما قدمت ، ومال وارثك ما آخرت (٢) .

٥ - عن أبي مسعود قال : كنت أضرب غلاما لى فسمعت من خلفي صوتا : أعلم أبا مسعود ! الله أقدر عليك منك عليه ، فالتفت فإذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قلت يا رسول الله ! هو حر لوجه الله ! فقال : « أما إن لو لم تفعل لمستك النار » أو لفحتك النار (٣) .

٦ - مر النبي صلى الله عليه وسلم بدابة قد وسم يدخن منخراه فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لعن الله من فعل هذا ، لا يسب أحد الوجه ولا يضربنسه (٤) .

٧ - وقال عليه الصلاة والسلام : « اذا جاء أحدكم خادمه بطعام فليجلسه معه فان لم يقبل فليتناوله منه (٥) » .

٨ - وقال أيضا : « لا يقل أحدكم : عبدى ، أمتى ، كلكم عبيد الله وكل نسائكم أماء الله ، وليقل : غلامى ، جاريتى ، وفتاتى ، وفتاتى (٦) .

٩ - سئل النبي صلى الله عليه وسلم : أى الأعمال خير ؟ قال : إيمان بالله وجهاد فى سبيله ، قيل : فأى الرقاب أفضل ؟ ( أى فى العتق ) قال : أغلاها ثمنا وانفسها عند أهلها ، قيل : أفرأيت ان لم أستطع بعض العمل ؟ قال : فتعين صائعا ، أو تصنع لآخرق ( هو الذى لا يحسن صنعه ) فقيل له : أفرأيت أن ضعفت ! قال : تدع الناس من الشر فانها صدقة تصدق بها على نفسك (٧) .

١٠ - قال حرملة بن عبد الله : « جئت النبي صلى الله عليه وسلم ، فقلت : مات امرئى أعمل ؟ فقال عليه السلام : أثت المعروف واجتنب المنكر ، وانظر الذى تكرهه أن يقول لك القوم اذا قمت من عندهم فأجتنبه » قال حرملة : فلما رجعت تفكرت فاذا هما ( أى أثت المعروف واجتنب المنكر ) لم يدعأ شـيئا (٨) .

١١ - خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما بالصحابة فقال : « أيها الناس ! اتقوا الظلم فان الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فان الشح أهلك من كان قبلكم وحملهم على أن سفقوا دماءهم واستحلوا

(١) رواه البخارى ومسلم (٢) رواه البخارى فى الادب المفرد

(٣) رواه البخارى فى الادب المفرد (٤) البخارى فى الادب المفرد

(٥) رواه البخارى فى الادب المفرد

(٦) رواه البخارى ومسلم وحفظ للبخارى فى الادب المفرد

(٧) رواه البخارى ومسلم (٨) رواه البخارى فى الادب المفرد

محارمهم «وفي رواية أخرى زيادة:» وإياكم والفحش فان الله لا يحب الفاحش المتفحش (١) »

١٢ - عن عائشة بنت سعد أن أباهما قال : اشتكت بمكة شكوى شديدة (مرضا شديدا) فجاء النبي صلى الله عليه وسلم يعودني ، فقلت يارسول الله ! انى اترك مالا ، وانى لم اترك إلا ابنة واحدة ، فأوصى بثلاثى مانى واترك الثلث ؟ قال «لا» قال اوصى بالنصف واترك لها النصف ؟ قال «لا» قال : فأوصى بالثلث واترك الثلثين فقال : «الثلث والثلث كثير انك تدع ورثتك أغنياء خير من ان تدعهم عائلة يتكفون الناس (٢) »

١٣ - وكان مما قاله لأبى ذر : افرأك من دلوك في دلو أخيك صدقة وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة ، وتبسمك في وجه أخيك صدقة وإماطتك الحجر والشوك عن طريق الناس لك صدقة ، وهدايتك الرجل في أرض الضالة صدقة (٣) .

١٤ - مر رجل على النبي صلى الله عليه وسلم ومعه بعض الصحابة فرأى أصحابه من جلده ونشاطه ما أعجبهم ، فقالوا : يارسول الله ! لو كان هذا في سبيل الله ! فقال عليه السلام : «ان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين صغارا فهو في سبيل الله ، وان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل الله وان كان خرج يسعى رياء ومفاخره فهو في سبيل الشيطان (٤) »

١٥ - وجاء رجل الى رسول الله يسأله شيئا من المال وهو قوى معافى فقال له الرسول : أما في بيتك شيء؟ قال بلى ! جلس (كساء غليظ ممتلئ) تلبس بفضه ونسبط بعضه ، وقعب نشرب فيه من الماء ، فقال الرسول : اتئنى بهما فاتناه بهما ، فأخذهما رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده وقال : من يشتري هذين ؟ قال رجل : انا آخذهما بدرهم قال الرسول : من يزيد على درهم (مرتين أو ثلاثا) قسال رجل انا آخذهما بدرهمين فأعطاهما إياه وأخذ الدرهمين فأعطاهما الانصارى وقال له : اشتري أحدهما طعاما فانبذه الى أهلك ، واشتر بالآخر قدوما فأتئنى به ، فاتناه به فشد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم عودا بيده ثم قال ، اذهب فاحتطب ولا ارينك خمسة عشر يوما ، ففعل ، فجاء وقد اصاب عشر دراهم ، فاشتري ببعضها ثوبا وبيع بعضها طعاما ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، «هذا خير من أن تجيء المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة ، ان المسألة لا تصلح الا لثلاث : لذي فقر مدقع أو لذي غرم مفظع أو لذي دم موجع» (٥)

١٦ - وسأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى الاسلام خير ؟ فقال : تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف (٦)

(١) رواه مسلم والبخارى في الادب المفرد (٢) رواه البخارى ومسلم وبقية كتب السنة

(٣) رواه البخارى في الادب المفرد وأخرجه الترمذى

(٤) رواه أبو داود والبيهقى والترمذى

(٤) رواه الطبرانى

(٦) رواه البخارى

١٧ - وبينما النبي في مجلس يحدث القوم جاءه اعرابي فقال له متى الساعة ؟ فأجابه : اذا ضيعت الامانة فانتظر الساعة ، قال كيف أضاعتها ؟ قال : اذا وسد الامر الى غير اهله فانتظر الساعة (١) .

١٨ - جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ما القتال في سبيل الله ؟ فان احدنا يقاتل غضبا ويقاتل حمية فقال : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو سبيل الله عز وجل (٢) .

١٩ - عن أسماء بنت يزيد قالت : دخلت انا وخالتى على النبي صلى الله عليه وسلم وعلينا السورة من ذهب فقال لنا : انعطيان زكاته ؟ قالت فقلنا : لا ، قال : أما تخافان ان يسوركما الله اسورة من نار ، أديا زكاته (٣) .

٢٠ جاء رجل الى مسجد النبي صلى الله عليه وسلم فلما نزل عن ناقته سأل الرسول : اطلق ناقتى واتوكل ؟ فقال عليه السلام : اعقلها ( أى أربطها ) وتوكل (٤) .

٢١ - عن أبى بشر قبصة بن مخارق قال : تحملت حمالة ( أصلح بين قوم فتحمل ديات قتلهم ) فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أسأله فيها ( أى يعطيه ما يعينه عن أداء ديات القتلى ) فقال الرسول : أقم حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك بها ، ثم قال : يا قبصة ! ان المسألة لا تحل الا لاحد ثلاثة : رجل تحل حمالة فحلت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك ، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله ، فحلت له المسألة حتى يصيبه قواما من عيش ، أو قال سداد من عيش ، ورجل أصابته فاقة حتى يقول ثلاثة من ذوى الحجى من قومه : لقد أصابت فلانا فاقة ، فحلت له المسألة حتى يصيب قواما من عيش ، فما سواه من المسألة يا قبصة فسحت يأكلها صاحبها سحتا (٥) .

وبعد فهذه صورة خاطفة عن شخصية الرسول و اخلاقه وأسلوب تعليمه لأصحابه ، وهى صورة غير متكاملة ولا تامة ، ولكنى اجتزأت منها ما يدل على تمام الصورة وحقيقتها ، وتمام هذه الصورة كما يبدو مما ذكرته كتب السيرة أنه صلى الله عليه وسلم جمع في وقت واحد أسمى ماتكون عليه صلة رسول بربه وأروع ما تكون سيرة زعيم بشعبه وأكمل ما تكون علاقة مصلح بالعالم الانسانى كله .

أما الصلة فكانت تتجلى في عبادته ودعائه وحرصه على رضا الله ورجائه لشوابه .

وأما السيرة فى الأمة فهي سيرة من الحب لأمته الخير ومنحها النصيح ، ودنيا على الهدى ، وآثرها على نفسه وأهله ، ولم يحتجز دونها مالا ولا أثا ولا رياشا ، بل كان يعطيها ويحرم نفسه ، ويملا بيوتها بالنعمة وان

(١) رواه البخارى

(٢) رواه البخارى ومسلم وأصحاب السنن الاربعة

(٣) رواه الامام احمد

(٤) رواه الترمذى وابن حبان والطبرانى

(٥) رواه مسلم وابو داود والنسائى



بيوت أزواجه ليلفحها حر الخشونة والاقلال وشظف العيش ، وهى سيرة من لم يحل اتباعه على ترك الدنيا ليعيشوا فيها كالغنم المشتتة بين قطع الدئاب ! ولا حملهم على ركوب الدنيا فيكونوا فيها كالكلاب المسعورة ان لم تنهش اللحم فانها تمزق الثياب ! او قد فيهم جذوة العمل للحياة مع شعلة الايمان بالله ، وبث فيهم روح الثورة على الباطل ، والتمرد على الظلم والترفع عن الدنيا ، وغرس فيهم - وهم في الحرب - ارق شمائل الانسانية الرحيمة في اسلم ، فكان في حربه اوسع صدرا واكثر رحمة وابر بالاسرى والضعفاء من كثير من زعماء الدول في سلمهم وسياساتهم ورعايتهم للشعوب .

واما الاصلاح للعالم الانسانى فحسبه هذا النظام الذى جنب العالم ويلات المادية وضعف الروحانية السلبية ، وحسبه هذه القوانين التى جاءت فى اشتراكيتها نمطا فريدا خلا من عيوب المذاهب الاشتراكية كلها وجمع محاسنها كلها .

حسبه من الاصلاح العالمى انه اثنى اول دولة اشتراكية انسانية فى العالم ، وأول مجتمع اشتراكى انسانى فى التاريخ ، وأول جيل اشتراكى عملى انسانى يبنى اسمى الحضارات .

ذلكم هو محمد رسول الله !

محقق أول دولة !

ومنشئ أول مجتمع !

ومربي أول جيل !

## في الدولة الإسلامية

كان العالم كله خارج الجزيرة العربية - يوم أعلن الإسلام تلك المبادئ والقوانين الاشتراكية ، يسوده نظام الاقطاع وتحكم الاغنياء بالجماهير ، ولم يكن للفقراء ولا للعاجزين ما يستعينون به على ضعفهم وعجزهم أو يدفعون به عن أنفسهم غائلة الجوع والحاجة الا أن يستجدوا الناس ، وكانت المجتمعات تنظر الى هؤلاء على أنهم كمية مهمة لاقيمة لها في الحياة الاجتماعية ، بل هم عبء ثقيل على المجتمع لاسمى الى رفعه ، لان الفقر في نظرهم قدر من السماء ، ينظر اليه بعضهم على أنه نعمة ، وينظر اليه آخرون على أنه بلاء يعاقب الله به عباده كما يعاقبهم بالأمراض والأموات ..

فلما أن قامت للإسلام دولته الاولى في المدينة ، تكون أول مجتمع - لا في الجزيرة العربية فحسب - بل في تاريخ العالم كله ، تسوده روح التعاون والتناصح والشعور بالمسؤولية : مسؤولية المجتمع نحو ابنائه ، ومسؤولية كل فرد نحو اخوانه الآخرين .

### ١ - في عهد الرسول

كانت أول خطبة خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة ان قال :

أما بعد أيها الناس ، فقدموا لانفسكم ، تعلمن والله ليضعن احدكم ثم ليدعن غنمه ليس لها راع ، ثم ليقولن له ربه وليس له ترجمان ولا حاجب يحجب دونه : ألم يأتك رسولي فبلغك ، وأتيتك مالا وأفضلت عليك ؟ فما قدمت لنفسك ؟! فلينظرن يميننا وشمالاً فلا يرى شيئاً ، ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم ، فمن استطاع ان يقى وجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة ، فانها تجزى الحسنة عشر أمثالها الى سبعمائة ضعف والسلام عليكم ورحمة الله « (١) .

فهذا أول توجيه يصدره نبي الدعوة ورئيس الدولة محمد صلى الله عليه وسلم في عاصمتها الجديدة ( المدينة ) كأنه يبين للناس أن أبرز شعارات هذه الدعوة عمل الخير والانفاق في سبيله ، لا يستثنى من ذلك أحد ولو كان غير موسر ، اما الموسر فبانفاق المال ، واما غير الموسر فبكلمات الخير والتناصح والبر ، ولا يستطيع أحد ان يزعم أنه عاجز عن هذا !.

ثم كتب رسول الله كتاباً ( معاهدة ) بين المهاجرين والانصار ، بين فيه دعائم الاخوة التي تقوم بينهم في مجتمعهم الجديد ، وأقر فيه اليهود على دينهم وأموالهم وعاهدتهم على الحماية والنصرة ما اخلصوا للدولة

(١) سيرة ابن هشام ١٥٦/٢

الجديدة والنظام الجديد . واليك المبادئ التى تضمنتها هذه  
المعاهدة ( ١ ) :

- ١ - وحدة أمة المسلمة من غير تفرقة بينها .
- ٢ - تساوى أبناء الأمة جميعا فى الحقوق والكرامة يجبر ادناهم على  
اعمالهم .
- ٣ - تكاتف الأمة كلها دون الظلم والاثم والعدوان والفساد  
كائنا من كان الظالم والمفسد .
- ٤ - اشتراك الأمة فى تقرير العلاقات مع اعدائها ، لايسالم مؤمن دون  
مؤمن .
- ٥ - تأسيس المجتمع على احسن النظم واهداهما واقومها .
- ٦ - مكافحة الخارجين على الدولة ونظامها العام ، ووجوب الامتناع  
عن نصرتهم .
- ٧ - حماية من اراد العيش مع المسلمين مسالما متعاوننا ، والامتناع  
عن ظلمهم والبغى عليهم .
- ٨ - لغير المسلمين دينهم واموالهم ، لايجبرون على دين المسلمين  
ولا تؤخذ منهم اموالهم .
- ٩ - على غير المسلمين أن يساهموا فى نفقات الدولة كما يساهم  
المسلمون .
- ١٠ - على غير المسلمين - فى الدولة الاسلامية - أن يتعاونوا معهم  
لدرء الخطر عن كيان الدولة ضد كل عدوان .
- ١١ - وعليهم أن يشتركوا فى نفقات القتال ما داموا محاربين .
- ١٢ - وعلى الدولة أن تنصر من يظلم منهم كما تنصر كل مسلم  
يعتدى عليه .
- ١٣ - على المسلمين وغيرهم ان يمتنعوا عن حماية اعداء الدولة ومن  
بناصرهم .
- ١٤ - اذا كانت مصلحة الأمة فى الصلح وجب على جميع ابنائها  
مسلمين وغير مسلمين أن يقبلوا الصلح .
- ١٥ - لا يؤاخذن انسان بذنب غيره ولا يجنى جان الا على  
نفسه .
- ١٦ - حرية الانتقال فى داخل الدولة والى خارجها مصونة بحماية  
الدولة .
- ١٧ - لا حماية لاثم ولا لظالم .

---

(١) انظر نصها الكامل فى سيرة بن هشام : ١٤٧/٢ - ١٥٠

١٨ - المجتمع يقوم على أساس التعاون على البر والتقوى لا على الاثم والعدوان .

١٩ - هذه المبادئ تحميها قوتان : قوة معنوية وهى ايمان الشعب بالله ومراقبته ورعاية الله لمن بر ووفى ، وقوة مادية وهى رئاسة الدولة التى يمثلها محمد صلى الله عليه وسلم .

ثم أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تنفيذ هذه المعاهدة فوثق صلاته بيهود المدينة ، وأخى بين المهاجرين والانصار ، جعل لكل انصارى أخا مهاجرا يؤويه ويتعاون معه على العيش والحياة المشتركة ويرث كل واحد منهما صاحبه اذا مات ، وذهب كل انصارى بأخيه المهاجر يقسم بينه وبين أخيه ماله وداره وكل ما يملك !

وفى وسط رمال الجزيرة العربية عاشت فى الدنيا لأول مرة عاصمة دولة لا تعرف الحقد ولا الاستئثار ولا البغى ولا الفجور ولا القسوة ولا موت الضمير !

ثم تطورت الدولة بعد ذلك فأرسل الرسول الولاة الى جميع أنحاء الجزيرة يجمعون الزكاة ويصرفونها فى مصارف التكافل الاجتماعى ، فلكل فقير حاجته ، ولكل متزوج اعانته ، ولكل أعمى قائده ، ولكل مقعد مساعده ، ولكل مدين سداد ديونه ، ولكل من يموت فقيرا حماية أسرته بعد وفاته ، وحقت الدماء ، وحفظت الاعراض ، وصيمنت الكرامات ، وتحرر الناس من الجهل والخوف والخرافة ، ونفذت مبادئ معاهدة المدينة كلها الا ما كان من علاقة المسلمين باليهود ، فقد نقض اليهود العهد ، وتآمروا مع قريش على حرب الرسول ، وملا الحسد قلوبهم من نجاح الدولة الجديد وما زالوا يدسون لها ويتآمرون عليها حتى أجلاهم الرسول عن المدينة وما حولها .

### خطبة الوداع

واستمر الامر كذلك طيلة حياة الرسول عليه الصلاة والسلام وآمنت الجزيرة العربية كلها برسالة الاسلام حتى اذا كانت حجة الوداع وكان ذلك فى السنة التاسعة أو العاشرة من الهجرة ، خطب الرسول صلى الله عليه وسلم خطبته الشهيرة التى أكد فيها مبادئ الدولة التى أعلنها فى السنة الأولى من الهجرة وضمنها وصاياه الخالدة وقد جاء فيها :

أيها الناس !

اسمعوا قولى ! فانى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدا .

### أيها الناس !

ان دماءكم واموالكم عليكم حرام الى ان تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا ، وكحرمة شهركم هذا ، وانكم ستلقون ربكم فيسألکم عن أعمالکم وقد بلغت !

ومن نت عنده أمانة فليؤدها الى من ائتمنه عليها .  
وان كل ربا موضوع ، ولكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ،  
فضى الله أنه لاربا ، وان ربا العباس بن عبد المطلب ( عم الرسول )  
موضوع كله .  
وان كل دم كان فى الجاهلية موضوع ، وان أول دمائكم اضع دم  
ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب .

### أما بعد أيها الناس !

فان الشيطان قد يئس من أن يعبد بارضكم هذه أبدا ، ولكنه ان  
يطلع فيما سوى ذلك ، فقد رضى به مما تحقرون من اعمالكم ، فاحذروه  
على دينكم .

### أما بعد أيها الناس !

انما النسيء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما  
ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله ويحرموا  
ما أحل الله ، وان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات  
والارض وان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا ، منها أربعة  
حرم ثلاثة منها متوالية ، ورجب مفرد الذى بين جمادى وشعبان .

### أيها الناس ! اسمعوا قولى واعقلوه

فان لكم على نساءكم حقا ، ولهن عليكم حقا :

لكم عليهن الا يوطئن فراشكم احدا تكرهونه ، وعليهن الا يأتين بفاحشة  
مبينه ، فان فعلن فان الله قد اذن لكم ان تهجروهن فى المضاجع  
وتضربوهن ضربا غير مبرح ، فان انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن  
بالمعروف .

واستوصوا بالنساء خيرا فانهن عندكم عوان لا يملكن لانفسهن شيئا  
وانكم انما اخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمات الله .

### فاعقلوا أيها الناس قولى فانى قد بلغت !

وقد تركت فيكم ما أن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا ، أما بينا : كتاب  
الله وسنة نبيه .

### أيها الناس ! اسمعوا قولى واعقلوه .

تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم ، وان المسلمين أخوة فلا يحل  
لامرىء من أخيه الا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلمن انفسكم

## الا هل بلغت ؟!

قالت الجماهير : اللهم نعم .

فقال الرسول : اللهم فاشهد ..

ويلاحظ ان الرسول صلى الله عليه وسلم أهدر جميع الديون الربوية ، وقد كانت يومئذ ديونا للأغنياء على الفقراء والمحتاجين الذين كانت تلظطهم الحاجة الى الاستدانة بالربا ، وهذا تمش مع المبادئ الاشتراكية الإسلامية .

## ٢ - في عهد الخلفاء الراشدين

ثم توفي الرسول صلوات الله وسلامه عليه وتولى الخلافة بعده أبو بكر ، وواجه حوادث الفتنة الداخلية التي سميت باسم ( حروب الردة ) وقد كانت القبائل التي قامت بتلك الفتنة ، منها من اتبع مسيلمة الكذاب والاسود العنسي في دعوة النبوة ، ومنها من بقى على الاسلام والايمان بنبوّة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكنهم اعلنوا امتناعهم عن دفع « الزكاة » للدولة التي يرأسها أبو بكر ، وكيفما كان فقد كانت الفتنة « امتناعا » عن تأدية « الزكاة » ورفضاً لتنفيذ مبادئ الاشتراكية الإسلامية في التكافل الاجتماعي ، ووقف أبو بكر موقفاً حازماً من تلك الفتنة وقال قوله المشهورة والله لو منعوني عقلاً « أو عناقاً » كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلهم عليه ، وخاضت الدولة الإسلامية معارك طاحنة انتهت « انهزام الفتنة ومقتل رؤوسها واسترداد الدولة الإسلامية حق « الزكاة » وتنفيذ مبادئ التكافل الاجتماعي ، ونعتقد أن هذه أول حرب في التاريخ تخوضها دولة مافي سبيل تنفيذ التكافل الاجتماعي وتمويل قوانينه ، وذلك مما ينبغي تسجيله والتنويه به في هذا المقام .

## في عهد أبي بكر .

أما ماعدا ذلك فقد كان عهد أبي بكر امتداداً لعهد الرسول في تنفيذ التكافل الاجتماعي لجميع فئاته . حتى أن خالد بن الوليد حين كان يقود معارك الفتح في العراق أعلن في معاهدة الصلح مع أهل الحيرة - وكانوا مسيحيين - التأمين الاجتماعي ضد الشيخوخة والمرض والفقر : « وجعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنيا فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه ، طرحت جزيته وعيل من بيت مال المسلمين وعياله ما أقاموا بدار الاسلام (١) » .

وكان أبو بكر في حياته الخاصة قدوة للناس في عفنه عن أموال الدولة ومساواته نفسه بالناس في أعطياتهم ومعيشتهم .

## في عهد عمر

وتولى عمر الخلافة من بعده ، واستمرت معارك فارس والروم الى نهايتها المظفرة وكان هو روحها المحركة وعقلها المفكر وقائدها الموفق،

(١) انظر المعاهدة بنصها الكامل في الخراج لأبي يوسف ١٤٤

ونظم الدولة تنظيما يتفق مع تطورها واتساع رقعتها ، وكان من أهم أعماله تدوينه الدواوين ، والديوان كان تسجيلا لكل مصادر الدولة ومواردها تقيده فيه أسماء ذوى الأعمال وأصحاب الاعطيات والمحتاجين الذين يستحقون نفقتهم من بيت المال بمقتضى قوانين التكافل الاجتماعى ، وكان يعطى الرجل على حساب كفاءته وبلائه فى خدمة الدولة وسابقه فى الجهاد وعلى قدر حاجته وكفايته ، وكان يفرض لكل مولود مائة درهم فإذا ترعرع زاده الى مائتين ، فإذا بلغ زاده كذلك (١) .

وقد طبق عمر نظام التكافل الاجتماعى على غير المسلمين كما طبق على المسلمين ، فقد مريوما بشيخ كبير يسأل الناس . فاسترعى ذلك انتباهه ، فسأله مانت ياشيخ ؟ قال ذمى ( وكان يهوديا ) يسأل الجزية والصدقة ، فقال له عمر : ما نصفناك! أكلنا شبيبك ثم نضيعك فى هرمك ؟ ثم أخذته الى بيته فأعطاه ما وجده وأرسل الى خازن بيت المال يقول : انظر الى هذا وضربائه فافرض لهم من بيت المال ما يكفيهم وعيالهم انى وجدت الله يقول : انما الصدقات للفقراء والمساكين ، والفقراء هم المسلمون والمساكين هم أهل الذمة ، وهذا منهم (٢) .

ومر - وهو فى طريقه الى الشام - بقوم مجذومين من النصارى ، فأمر بأن ينفق عليهم من بيت المال ، وبأن يجعل لكل واحد منهم من يخدمه ويقوم على شؤنه (٣) .

## فى عهد عثمان

وكذلك استمر الأمر فى عهد عثمان - رغم الاضطراب السياسى الذى بدأ منذ السنة السابعة من عهد خلافته - ولم يؤثر هذا الاضطراب فى قيام الدولة بجمع الزكاة وتنفيذ نظم التكافل الاجتماعى على اتمها . وقد كان أول كتاب كتبه الى عماله (ولاته) :

أما بعد فان الله أمر الائمة ان يكونوا رعاة ولم يتقدم اليهم يأمرهم أن يكونوا جباة .. ألا وان أعدل السيرة أن تنظروا فى أمور المسلمين وفيما عليهم فتعطوهم مالهم وتأخذوهم بما عليهم ثم تشنوا بأهل الذمة فتعطوهم الذى لهم وتأخذوهم بالذى عليهم (٤) .

وكتب الى عمال الخراج :

أما بعد فان الله خلق الخلق بالحق فلا يقبل الا الحق ، خذوا الحق وأعطوا الحق والإمانة قوموا عليها ولا تكونوا أول من يسلبها

(١) الاموال : ٢٣٧

(٢) الخراء لابی يوسف : ١٢٦ وقد ظن بعض الفضلاء اننا نقول يدفع الزكاة الى غير المسلم استنادا الى هذا الاثر عن عمر ، أما الاثر فهو ثابت عنه فى كتب التفسير والحديث .. وأما اعطاء الزكاة لغير المساكين فنحن نرى فى ذلك رأى الجمهور من عدم الجواز .. أما صدقة التطوع فهي جائزة

(٤) تاريخ الطبرى : ٣٦٠/٣

(٣) فتح البلدان للبلاذرى : ١٣٦

فتكونوا شركاء من بعدكم الى ما ما اكتسبتم ، والوفاء الوفاء . لا تظلموا  
اليتم ولا المعاهد فان الله خصم لمن ظلمهم (١) .

### في عهد علي

ثم ولي الخلافة بعده علي رضي الله عنه وقد غطى الاضطراب  
السياسي وجه التكافل الاجتماعي الذي استمر في عهده كما كان في عهد  
من قبله ، وكان مما كتبه الى محمد بن ابي بكر عندما استعمله علي  
مصر أنه أمره بتقوى الله والطاعة في السر والعلانية وخوف الله عز وجل  
في الغيب والمشهد وباللين على المسلم والغلظة على الفاجر وبالعدل على  
اهل الدمة ، وبالانصاف للمظلوم وبالشدة على الظالم وبالعفو عن  
الناس . وبالأحسان ما استطاع والله يجرى المحسنين . . وأمره أن  
يجبى خراج الارض على ما كان عليه من قبل ، لا ينتقص منه ولا يبتدع  
فيه ثم يقسمه بين أهله على ما كانوا يقسمون عليه من قبل وأن يلين لهم  
جناحه ، وأن يحكم بين الناس بالحق .

### ٣ - في العهد الاموي :

واستمرت الدولة تقوم بواجبها في تنفيذ نظم التكافل الاجتماعي  
من جباية الزكاة ورعاية الفقراء والحاجات الاجتماعية ، حتى أن يوسف  
ابن عمر كان يخصص في ميزانية اقليمه كل سنة عشرة ملايين درهم  
« للاحداث والبنات اللاتي لم يتزوجن (٢) » .

ولا شك في أن سياسة الامويين قد انحرفت عن سياسة الخلفاء  
الراشدين من نواح عدة لظروف مختلفة ولكن تنفيذ التكافل الاجتماعي  
ظل مستمرا كخطة من خطط الدولة العامة ، وأبرز الخلفاء الامويين عمر  
ابن عبد العزيز وهو اقربهم الى هدى الخلفاء الراشدين ، ولو طال  
لأعاد الى المجتمع الاسلامي صفاءه المشرق في العهود السابقة ، وحسبنا  
أن يقول أحد عماله « كنا نطوف بالزكاة على الناس لعنا نجد من يقبلها »  
لنعلم أي عهد كان عهده ، وأية عدالة اجتماعية كان ينعم بها الناس  
في ظله !

### ٤ - في العهود الاخرى :

واستمرت الدولة أو الدول الاسلامية تقوم بجمع الزكاة وانفاقها  
على المستحقين حتى العصر العثماني ، ومما لا ريب فيه أن تنفيذ  
نظام التكافل الاجتماعي قد اضطرب عن ذي قبل نتيجة للاضطراب  
السياسي الذي كان يعيش فيه العالم الاسلامي في تلك العصور ، ولكن  
الحق أن هذا الاضطراب «أضعف» تنفيذ نظم التكافل الاجتماعي ولم  
«يلغ» بل ظلت الدول الاسلامية هي الدول الاشتراكية الوحيدة بين  
دول العالم يومئذ رغم ما كان يشوب الحكم في الدول الاسلامية من  
ظلم وفساد . وليس مرد ذلك الا الى أن «الاشتراكية الاسلامية» جزء  
من عقيدة الاسلام كما ذكرنا من قبل .

(٢) تاريخ الاسلام السياسي : ٣٦٤/١

(١) تاريخ الطبري : ٣/٣٦٠



## في الحروب الإسلامية :

هذا ما يتعلق بتنفيذ الدولة الإسلامية لاشتراكية الاسلام في التكافل المعاشي وأما تنفيذها للحقوق الطبيعية الخمسة والتكافل الاجتماعي بمعناه الواسع فإن الحروب الإسلامية كانت في الواقع لتحقيق هذه المبادئ ، ولقد نعمت الشعوب التي أظلمها حكم الاسلام بتحرير انسانيتها وكرامتها وبحرية عقائدها وبتثقيف عقولها بانتشار العلم في ربوعها فذلك ما أصبح بدهيا لدى المنصفين من كتاب الغرب والشرق ، وليس هاهنا مجال البحث والتدليل على هذه الحقائق .

## المال في المجتمع الاسلامي

لئن كان أمر الدولة الاسلامية ما ذكرناه من تمسكها اول الامر بنظام الاسلام في التكافل الاجتماعي ، وتهاونها فيه آخر الامر ، فقد كان شأن المجتمع الاسلامي أقوى أثرا واشد تمسكا وأطول عهدا وأقل مدى في ضعف الاستمسك بذلك النظام .

لقد بدأ المجتمع الاسلامي في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كما وصفه القرآن بقوله :

للفقراء المهاجرين الذين اخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ، والذين تبؤوا الدار والايمان من قبلهم (هم الانصار) يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة (فقر) ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون (١) .

مجتمع كان فيه الفقر والغنى ، ولكنه لم تكن فيه المهانة والاستغلال ، وكان فيه الحاكم والمحكوم ، ولكنه لم يكن فيه الظالم ولا المظلوم ، قد وصفه الله بقوله : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار (أى الأعداء) رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا (٢) »

مجتمع كان فيه أغنياء لا يخافون خقد الفقراء ، لانهم أدوا اليهم حق الله في أموالهم ، وفقراء لا يخشون شبح الاغنياء ، لانهم ما برحوا في فيض غامر من برهم وسخائهم ، ولكن كانوا يتنافسون فيما بينهم ويتسابقون الى فعل الخير والحث عليه .

جاء الفقراء مرة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا رسول الله ذهب أهل الدثور (الاغنياء) بالاجور يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم ويتصدقون بفضول أموالهم ، قال : أوليس قد جعل الله لكم ما تصدقون به ؟ أن لكم بكل تسبيحة صدقة وبكل تكبيرة صدقة وأمر بالمعروف صدقة ونهى عن المنكر صدقة الخ (٣) .

مظاهرة للفقراء من أغرب ما رواه التاريخ .. لم يحتشدوا فيها للاحتجاج على قسوة الاغنياء وظلمهم .. فذلك مالم يقع في ذلك المجتمع قط : ولم يحتشدوا فيها للمطالبة بحق مأخوذ وكرامة مسلوقة ، فذلك مالم يقع لهم قط .. ولكننا احتشدوا ليعربوا عن الالم في تخلفهم عن الاغنياء في ميادين الخير والاحسان فكيف يفعلون ؟ انهم يريدون أن يكونوا مثلهم يفعلون الخير وقد ظنوا أن سبيله هو المال فحسب ، وهم

(٢) الفتح : ٢٩

(١) الحشر : ٨

(٣) رواد مسلم وابن ماجه

لا يملكون ما ينفقون ! وكان جواب الرسول اروع ما يمكن أن يوجه اليه أمثال هؤلاء ليكونوا بنائين في المجتمع غير هدامين ، إيجابيين لا سلبيين عاملين لا عاطلين .. ان سبيل الخير ليست وقفا على وجود المال .. بل ان لها سبلا كثيرة يجدها كل انسان ولو غير غنى ، فلا يحرم منها مواطن ، ولا يحال دونها فقير .. انه كف اللسان عن الثثرة بذكر الله وتسبيحه ! والقيام بالاصلاح الاجتماعى عن طريق الموعظة الحسنة والامر بالمعروف والنهي عن المنكر واماطة الاذى من طريق الناس ، واعانة من يحتاج الى العون وفى الاصلاح بين المتخاصمين والتقريب بين المتباعدين ، وفى امداد المجتمع بالنسل الصالح .. هكذا يكون التوجيه الاجتماعى البناء فى ظل اشتراكية الاسلام من نبى الحكمة ورسول الخير والسلام.

واليك نماذج من اخلاق هذا المجتمع :

### أخلاقهم فى المعاملات :

قال الشاطبى : « وتجدهم فى الاجارات والتجارات لا يأخذون الا بأقل ما يكون من الربح أو الأجر ، حتى يكون ما حاول أحدهم من ذلك كسبا لغيره لا له ، ولذلك بالفوا فى النصيحة فوق ما يلزمهم لانهم كانوا وكلاء للناس لا لانفسهم : بل كانوا يرون المحاباة لانفسهم - وان جازت - كالغش لغيرهم (١) »

### أخلاقهم فى الجوار :

أخرج البخارى فى « الادب المفرد » عن محمد بن زياد. قال : أدركت السلف وانهم ليكونون فى المنزل الواحد بأهاليهم ، فربما نزل على بعضهم الضيف وقدر أحدهم على النار ، فيأخذ صاحب الضيف لضيفه فيفتقد القدر صاحبها ، فيقول من أخذ القدر ؟ فيقول صاحب الضيف ، نحن أخذناها لضيفنا ، فيقول صاحب القدر : بارك الله لكم فيها ( أو كلمة نحوها ) قال ابن زياد ، والخبز اذا خبزوا مثل ذلك (٢) .

### موقفهم من أموالهم :

قال الشاطبى ، لقد كانوا فى الاكتساب ماهرين ودائبين ومتابعين لانواع الاكتسابات لكن لا ليدخروا لانفسهم ، ولا ليحتجوا ( أى يحتجزوا أموالهم ، بل لينفقوها فى سبيل الخيرات ومكارم الاخلاق وما ندب الشرع اليه وما حسنته العوائد الشرعية ) فكانوا فى أموالهم المولاة على بيوت الاموال (٣) .

### استجابتهم لدعوة الخير :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعظ النساء بعد صلاة العيد

(٢) الادب المفرد ص ١٢٩

(١) الموافقات : ١٩٥/٢

(٣) الموافقات ١٨٨/٢

يحثهن على الصدقة و «بلال» يبسط ثوبه فيلقين اليه بما يتحلين به من خواتيم وغيرها (١) .

### وثقة بعضهم بحديث بعض :

قال البراء بن عازب (الصحابي) : ليس كلنا كان يسمع حديث النبي صلى الله عليه وسلم ، كانت لنا ضيعة واشغال ، ولكن الناس لم يكونوا يكذبون فيحدث الشاهد الغائب .

وحدث أنس بن مالك مرة بحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم فقال له رجل أسمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال نعم ، أو حدثني من لم يكذب ، والله ما كنا نكذب ولا كنا ندرى ما الكذب (٢) .

### عنايتهم باليتامى والمساكين والجيران :

عن الحسن (البصري) قال : لقد عهدت المسلمين وأن الرجل منهم يصيح فيقول : يا أهليه يا أهليه ! يتيمكم ، يا أهليه ! مسكينكم ، مسكينكم ، يا أهليه ! يا أهليه ! جاركم ، جاركم (٣) .

### اشترأكيثهم في الاموال :

عن ابن عمر : لقد أتى علينا زمان - أو قال : حين - وما أحد أحق بديناره ودرهمه من أخيه المسلم (٤) .

### إيثارهم وحرصهم على اخوانهم :

عن أبي هريرة رضى الله عنه : أن الانصار قالت للنبي صلى الله عليه وسلم : أقسم بيننا وبين اخواننا (المهاجرين) ما نملكه من النخل ، قال : «لا» فقالوا لاخوانهم المهاجرين : تكفوننا المؤونة ونشرككم في الشمرة ، قالوا : سمعنا وأطعنا (٥) .

وأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يقطع لبعض الانصار أراضى مواتا في البحرين ، فأبوا إلا أن يكتب لاخوانهم من المهاجرين بمثلها . فلم يفعل النبي ذلك . إذ لم تكن هناك أراض موات غير التي أراد اقتطاعها للانصار (٦) .

### عنتهم للرفيق اذا أساءوا اليه :

عن هلال بن يساف قال : كنا نبيع البز في دار سويد بن مقرن . فخرجت جارية فقالت لرجل شيئا . ومالنا إلا خادم . فلطمها ذلك الرجل . فقال له سويد بن مقرن : لطمت وجهها ؟ لقد رأيتني سابع

(٢) رواه البيهقي  
(٤) و (٥) رواه البخاري في الادب المفرد

(١) رواه البخاري ومسلم  
(٣) رواه البخاري في الادب المفرد  
(٦) رواه البخاري في صحيحه

سبعة ومائتا الاخام . فلطمها بعضنا . فأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يعتقها (١) .

### كثرة الفقهاء وكثرة المنفقين

قال ابن مسعود رضى الله عنه :

انكم فى زمان كثير فقهاؤه ، قليل خطبائوه ، قليل سؤاله ، كثير معطوه ، العمل فيه قائد الهوى ، سيأتى على الناس زمان . الخ (٢)

### جمعهم بين الجسد والنعابة

قال بكر بن عبد الله : كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يتبادحون بالبطيخ (يترامون به) فاذا كانت الحقائق كانوا هم الرجال (٣)

### خوفهم من النفاق فى العقيدة

قال ابن أبى مليكة : أدركت ثلاثين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كلهم يخاف النفاق على نفسه ما منهم أحد يقول أنه على إيمان جبريل وميكائيل (٤)

### صبرهم على الجوع خوفاً من النار

كان الرجل اذا خرج من بيته يقول له أهل بيته : اتق الله ولا تكسب حراما ، فانا نصبر على الجوع ولا نصير على جهنم (٥)  
حرصهم على أخلاق الخدم

عن أبى العالية : كنا نؤمر أن نختم (الصناديق) على الخادم ، ونكيل ونعدها كراهية أن يتعودوا سوء خلق ، أو يظن أحدا سوءا (٦)

### إذا تراوروا تجملوا

جاء عبد الكريم أبو المية الى أبى العالية وعليه ثياب صوف ، فقال له أبو العالية : انما هذه ثياب الرهبان ، ان كان المسلمون اذا تراوروا تجملوا (٧)

### يتعلمون العلم والعمل معا

قال عبد الله بن حبيب بن ربيعة السلمى (التابعى) : حدثنا الدين كانوا يقرئونا (من الصحابة) أنهم كانوا اذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من «العلم» و«العمل» . قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم (٨) .

(٢) البخارى فى الادب المفرد  
(٤) أخرجه البخارى تعليقا فى كتاب الايمان  
(٦) رواه البخارى فى الادب المفرد  
(٨) الاكليل لشيخ الاسلام ابن تيمية

(١) البخارى فى الادب المفرد  
(٣) البخارى فى الادب المفرد  
(٥) الغزالي فى الاحياء  
(٧) رواه البخارى فى الادب المفرد

## أمانتهم وعفتهم في الحروب والفنائم

لما انتهت معركة القادسية بهزيمة الفرس واستيلاء الجيش الاسلامي على مقر كسرى وخزائنه ، جمعت الفنائم ، وقسم القىء ، وتسلم سعد قائد الجيش الاخماس ، فلما رأى ما اجتمع أمامه من ذلك هتف قائلاً : « والله أن الجيش لذو أمانة ، ولولا ما سبق لاهل بدر ، لقلت : انهم على فضل اهل بدر »

وقال جابر بن عبد الله : والله الذي لا اله الا هو ما اطلعنا على احد من اهل القادسية انه يريد الدنيا مع الآخرة ، لقد اتهمنا ثلاثة ، فما رأينا كأمانتهم وزهدهم وهم : طليحة ، وعمر بن معد يكرب وقيس بن مكشوح .

واقبل رجل من الجيش الى صاحب الاقباض ، ودفع اليه امانات من حقوق بيت المال كان يحملها ، فسأله سائل :

هل أخذت منها شيئاً ! . .

فأجابه : والله لولا الله ما أتيتكم بها ! .

فقال له : من أنت ؟

فقال لهم : والله لا أخبركم فتحمدوني ، ولكنى الحمد لله وأرضى بشوابه !

فسألوا عنه ، فاذا هو عامر بن عبد القيس .

وبعث سعد بالاخماس الى امير المؤمنين عمر - وفيها سيف كسرى ومنطقته وزبرجده - فلما رآه عمر قال : « ان قوما ادوا هذا لذو أمانة (١) »

## الاثار الباقية في المجتمع من اشتراكية الاسلام

لقد كانت مثل هذه الاخلاق قوية في العصور الاولى لقيام الاسلام  
نم اخذت في الضعف شيئا فشيئا ومع ذلك فهناك اشياء لم تنقطع في  
المجتمع الاسلامي حتى اليوم ، نذكر منها :

### أولا - اخراج الزكاة :

استمر المسلم المتدين في مختلف العصور ولا يزال حتى اليوم يخرج  
زكاة ماله طائعا مختارا ، مع أن الدولة أهملت مطالبة الناس بها ،  
ومع أن هذا المسلم المتدين يدفع للدولة أنواعا متعددة من الضرائب ،  
واستمرار اخراج الزكاة من الاغنياء المتدينين على مختلف العصور كان  
له أثر كبير في سد حاجات التكافل الاجتماعي وهي ظاهرة لا نجد لها  
مثيلا في التاريخ وهي دليل واضح على أثر اشتراكية الاسلام في المجتمع  
الاسلامي .

### ثانيا التكاثر العائلي :

ومن الظواهر البارزة في المجتمع الاسلامي حتى اليوم ، تماسك  
الاسرة وسيطرة الروح التعاونية على الجوانبها ، فالابن ينفق على أبيه  
وعلى أمه ويحتويهما في بيته ومع زوجته وأولاده ويقوم بخدمتهما  
حتى يتوفاهما الله ، وهو يعتبر ذلك فرضا دينيا ، وعملا يتقرب به إلى  
الله . وكذلك ترى الاخ الكبير ينفق على أخوته الصغار ويربهم ويعلمهم  
ويزوجهم وهو يرى أن ذلك حق لهم واجب لامنة فيه ولا تفضل، وكذلك  
يقوم بواجبه نحو أقربائه ، يقيهم شر العوز ، ويدفع عنهم حاجة السؤال  
عند العجز أو الفقر ، وهي ظاهرة تلفت النظر بجانب ما يراه الانسان  
في المجتمع الغربي من تفكك الاسرة ، وتخلي الاب عن رعاية ابنه الكبير أو  
بناته الكبيرة ، وتخلي الاولاد عن ابائهم عند العجز والشيخوخة ، وقل أن  
ترى في الغرب رجلا يسكن مع أبيه أو أمه بجانب زوجته وأولاده الصغار  
لقد تحققنا من ذلك بأنفسنا خلال رحلاتنا المتعددة إلى أوروبا ، ولا شك  
أن تميز المجتمع الاسلامي بهذه الظاهرة أثر من اثر اشتراكية الاسلام  
وخاصة قانون النفقات على الاقرباء .

### ثالثا - الوصايا :

لقد ظلت مستمرة منذ عصر النبوة حتى اليوم ، وقل أن يموت  
مسلم دون أن يكون قد أوصى في حدود ثلث ماله للفقراء وجهات الخير  
والاقرباء الذين لا يرثونه .

### رابعا - النذور :

وهذا مما لا يزال بين جماهير المسلمين يفتح بابا للانفاق على الفقراء  
والمساكين وقل أن تجد مسلما يمرض أو يحج أو يكون له غائب أو تكون  
له حاجة إلا وينذر الله أن شفاه الله من مرضه أو سلمه في حجه أو أقدم  
له غائبه أو قضى له حاجته ليتصدقن بكذا وكذا .

## خامسا - الاوقاف :

وهذا ما استمر وجوده منذ العصور الاسلامية الاولى حتى اليوم،  
والاوقاف نوعان : وقف ذرى (اهلى) ويقصد به حفظ ذرية الواقف من  
الفقر والفاقة ، ومن شروط صحته أن ينتهى الى جهة خير لا ينقطع عند  
انقراض الذرية . ووقف خيرى وهو ما كان لجهة من جهات الخير  
وقد فاضت المدن والقرى فى المجتمع بمثل هذه الاوقاف لجهات من  
الخير كبيرة النفع على المجتمع ، محققة لغايات التكافل الاجتماعى وغيره  
مما يكاد يكون طريفا ونادرا فى التاريخ .

ولست أستطيع أن أستقصى القول عن هذه الاوقاف فى مثل هذا  
الوقت ، ولكنى أكتفى بسرد أهم الاوقاف التى قامت فى المجتمع الاسلامى  
ولا يزال كثير منها باقيا حتى الآن ، وهى أوقاف للانفاق على

- ١ - المساجد .
- ٢ - المدارس .
- ٣ - المكتبات العامة .
- ٤ - المستشفيات .
- ٥ - الفنادق للمسافرين .
- ٦ - التكايا .
- ٧ - السقايات .
- ٨ - الآبار فى القنوات .
- ٩ - الرباطات للمجاهدين .
- ١٠ - السلاح والخيول للجهاد .
- ١١ - تجهيز المقاتلين فى الجهاد بالمال وغيره .
- ١٢ - اصلاح الجسور والطرق العامة .
- ١٣ - المقابر .
- ١٤ - اللقطاء .
- ١٥ - الايتام .
- ١٦ - المقعدين .
- ١٧ - العميان .
- ١٨ - العجزة .
- ١٩ - المساجين .
- ٢٠ - القرض الحسن للتجار وغيرهم



٢١ - البيلار ( مجاناً ) للفلاحين .

٢٢ - أدوات الزراعة .

٢٣ - دواب الزراعة .

٢٤ - اشجار مثمرة يأكل منها المارة .

٢٥ - أوقاف خيرية لجهات أخرى مثل قراءة القرآن ، ونفقات العلماء ( ومنها وقف خاص في مصر لدابة شيخ الأزهر ) ! ونحرا الاضاحي في عيد الاضحى ، واطعام الفقراء في رمضان وغير ذلك .

وهناك أوقاف غاية في الطرافة والدلالة على سمو العاطفة الانسانية في المجتمع الاسلامي ، ولا نعلم لها مثيلا في بلد من بلاد العالم ، من ذلك

٢٦ - أوقاف للطب النفسي :

في مدينة طرابلس ( لبنان ) وقف لتوظيف شخصين يمران كل يوم على المرضى في المستشفيات يكون عملهما هو أن يتحدثا بصوت خافت يسمعه المريض بحيث يوهما أنه يتكلمان بصوت عادي فيما بينهما ، يقول أحدهما للآخر : انى أرى اليوم فلانا أحسن منه بالامس ، فيقول الآخر : وانى أرى أشراق وجهه وعينييه احسن مما كان يوم أمس وهكذا بحيث يسمع المريض ذلك فيعتقد صحة مايقولان . . وقد حدثنى عن الوقف يطلب المعونة لذلك ، فيعطيه ماهو بحاجة اليه .

وكان في مستشفى السلطان قلاوون بالقاهرة فرقة خاصة للتمثيل الشعبى المضحك يقوم الممثلون بذلك أمام المرضى الذين تشتد آلامهم ويرتفع صراخهم ، فينسون الألم ويأخذون في الضحك ، وكان فيه فرقة من المنشدين ذوى الاصوات الجميلة يرتلون الاناشيد في منتصف الليل من فوق منبذة المسجد بالمستشفى ليخففوا من آلام المرضى الذين يؤرقهم الألم ويمنعهم من النوم ، كما كانت فرقة للموسيقى ، وقصاص يقصون القصص الشعبى على المرضى .

٢٧ - أوقاف للتزويج :

أى تزويج الشباب والبنات حين يعجزون أو يعجز أبائهم عن القيام بنفقات العرس والمهر والجهاز فيتقدم الفتى أو الفتاة الى قيم الوقف يطلب المعونة لذلك ، فيعطيه ماهو بحاجة اليه .

٢٨ - وقف الزبادى :

وهو خاص لاسعاف الاولاد والخدم الذين يكسرون ما يحملونه من الزبادى في الطريق الى البيت ، يذهب الصبى أو الخادم الى قيم الوقف فيعرض عليه نمودجا مما كان يحمل فيعطيه عوضا عنها ويمود الى اهله وقد اتقى شر العقوبة ، وقد تحدث ابن بطوطة في رحلته عن هذا الوقف في دمشق .

٢٩ - نقطة الحليب :

كان مما أوقفه صلاح الدين الايوبى وقف لامداد الامهات بالحليب

اللازم لاطفالهن ، جعل في أحد أبواب قلعة دمشق ميزابا يسيل منه الحليب وميزابا آخر يسيل منه الماء المذاب بالسكر ، تأتي الأمهات يومين في كل أسبوع فيأخذن لاطفالهن ما يحتاجون اليه من الحليب والسكر .

٣٠ - وقف للحيوان :

وكان خاصا بابواب الحيوانات الاليفة في بيت واطعامها كوقف القطط الذي كان إلى عهد قريب موجودا في ( سوقساروجة ) بدمشق وكانت فيه مايزيد على اربعمائة قطة من الفارشات السمان !!

٣١ - تطيب الحيوان :

وكانت لعلاج الحيوانات المريضة وتطبيبها ومن ذلك وقف ( المرج الاخضر ) الذي يقوم عليه الملعب البلدي بدمشق حاليا ، فقد كان وقفا للخيول والحيوانات العاجزة تروى فيه حتى تلاقى حتفها !.

وبعد فهذه فكرة موجزة عن الاوقاف وأهدافها كما كانت - ولا يزال كثير منها - في المجتمع الاسلامي وهي بلا ريب ثمر من ثمر اشتراكية الاسلام وتأثير المجتمع الاسلامي بها (١) .

---

(١) أفضنا القول عن الاوقاف والمؤسسات الاجتماعية في كتابنا « من روائع حضارتنا » وقد طبع أخيرا

## في الفرد المسلم

ان الامثلة التي تقدمها الاشتراكية الاسلامية كدليل على نجاحها في ايجاد المسلم الاشتراكي الذي ربه روح محمد صلى الله عليه وسلم على مختلف العصور ، امثلة كثيرة تستحيل أن يحصيها العدد ، لانها - كما قلت - لم تنقطع خلال اربعة عشر قرناً ، ولا تزال متصلة تزي من أفرادها جيلاً بعد جيل من يمثلون فضائلها وأخلاقها بسلوكهم ومعاملتهم أفضل تمثيل .

ونجتزئ بذكر بعض الامثلة منها ما عرفها الناس ، ومنها ما لم يعرفها الا القليل ، وعندنا من أمثالها مئات ومئات في عصر واحد من حيث نجزم أن التاريخ لا يعرف لامة من الامم غيرنا عشرات أمثالهم على مختلف العصور .

١ - كان لابي بكر رضي الله عنه شيء من المال حين أسلم يبلغ خمسين ألف درهم أنفقه كله في سبيل الدعوة وشراء الارقاء الذين أسلموا من أسيادهم المشركين بمكة ، حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان من آمن الناس على في صحبته أبو بكر ولو كنت متخذاً أحد خيلاً لاتخذت أبا بكر ، ولكن أخوة الاسلام (١) » .

وفي غزوة ( مؤتة ) كانت الحاجة ماسة الى تجهيز الجيش لطول المسافة وبعد الطريق فحث الرسول المقتدرين من الصحابة على الانفاق فجاء أبو بكر بكل ما يملك فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم : « ماذا أبقيت لاهلك يا أبا بكر؟ » فاجاب أبقيت لهم الله ورسوله .

ولما ولي الخلافة ولم يفرض له ماينفق منه على أهله ، ذهب الى السوق ليتاجر كما يتاجر بقية الناس ، ففرضوا له العطاء ليتفرغ لشئون الدولة ، ولما توفي لم يترك مالا ولا متاعاً ولا درهما ولا ديناراً .

٢ - وفي غزوة « تبوك » تقدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه بنصف ماله لتجهيز جيش العسرة ، ولما ولي عمر الخلافة لم يفرض في بيت المال لأولاده الا كما يفرض لاي ولد من أولاد المسلمين ، وقد فضل عائشة في العطاء على بناته ، وكان من زهده وعفته عن الأموال مع ما فتح الله له من الدنيا مضرب الامثال .

وهو الذي قال له علي رضي الله عنه لما اتى على عفة الجيش الاسلامي في معارك القادسية : « يا أمير المؤمنين ! عفت فعتك » ولما توفي رضي الله عنه لم يوجد في بيته درهم ولا دينار وهو الذي ورث عرش كسرى وملك قيصر ! .  
واخباره في هذا الشأن مستفيضة لاتجد من المناسب ذكرها هنا لشهرتها (٢) .

(١) رويته معظم كتب السنة

(٢) من خير ماكتب في اخبار عمر مستقصاه مرقبة هو كتاب اخبار عمر ، للعالم الأديب

الاستاذ علي الطنطاوي جزاه الله خيراً

٣ - وكان عثمان بن عفان رضى الله عنه في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم من الاغنياء الاسخياء ، بلغت نفقائه على جيش الصصرة في غزوة تبوك حدا جعل الرسول يرفع يديه الى السماء ويقول : « اللهم ارض عن عثمان فاني عنه راض » .

وفي عام المجاعة في عهد عمر رضى الله عنه ، جاءت قافلة - للتجارة - من الشام تبلغ ألف بغير محملة بالسمن والقمح وما يحتاجه الناس فهرع اليه التجار ليشتروها منه ، فجرى بينه وبينهم الحوار التالي :

هو - بكم تشترون منى هذه القافلة ؟

هم - نعطيك عليها ربعا بالمائة خمسة .

هو - انى وجدت من يعطينى اكثر .

هم - نعطيك عليه ربعا بالمائة خمسة .

هو - وجدت من يعطينى اكثر .

هم - ها نحن تجار المدينة ، والقافلة قد وصلت الان ، فمن هم الذين أعطوك هذا الربح ؟

هو - انى وجدت الله يعطينى ربعا على الواحد عشرة الى سبعمائة ضعف الى ماشاء الله ، أشهدكم انى بعثها لله وانها صدقة على المسلمين . وتبرع بها للشعب بما فيها من أحمال وطعام وكسوة .

٤ - وكان على رضى الله عنه قليل ذات اليد ، ومع ذلك فقد كان كثير الانفاق مما يستطيع ، ويقال انه هو الذى نزل فيه قوله تعالى « ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا (١) » .

وذلك انه كان قد نذر هو وفاطمة وجارية لهم أن شفى الله ولديه الحسن والحسين ليصوموا لله ، فشفاهما الله ولم يكن عندهم ما يفطرون عليه ، فاستقرض على من بعض الناس ثلاثة أصوع من الشعير ليأكل منها هو وأولاده فطحنت فاطمة في اليوم الاول صاعا وخبزته وقربته الى على وأولادها ليأكلوا فاذا بمسكين يسأل ، فأعطوه ماخبزوه في ذلك اليوم ولم يأكلوا منه شيئا ، ولم يكن عندهم غيره الا الماء ، فباتوا جوعا . وحدث في اليوم الثانى مثله اذ جاء يسألهم يتيم فأعطوه ماخبزوه من الصاع الثانى ، وباتوا جوعا ، وجاء في اليوم الثالث أسير يسأل فأعطوه وباتوا جوعا فنزلت فيهم تلك الآية (٢) .

٥ - وكانت عائشة رضى الله عنها كثيرة الصدقات .

تصدقت مرة بمائة ألف درهم وليس عليها الا ثوب خلق ، وكانت سائمة ، فقالت لها خادمتها : لو أبقيت شيئا لتفطرى عليه ! فأجابتها : لو ذكرتني لفعلت .. تصدقت بمائة ألف وهى جائعة ، فكسيت نفسها وذكرت الناس !

(١) سورة الانسان : ٨

(٢) انظر تفسير مجمع البيان للطبري : ٤٠٤/١٠

وتصدقت مرة برغيف ليس عندها غيره وهى صائمة، فذكرتها خادمتها بذلك ، فقالت : ادفعى الرغيف ولن يضيعنا الله ! فأهدى إليها في المساء شاة وطعام فقالت لخادمتها : كلى من هذا خير من قرصك (١) .

٦ - وكان عبد الرحمن بن عوف من التجار الميمونين القنوعين الذين بارك الله لهم في تجارتهم ، وكان كثير الصدقات ، تصدق بماله كله أكثر من مرة ، حتى أنه كان يكتب قائمة بتوزيع ما عنده من ثياب ومتاع على اخوانه المحتاجين قبل أن ينام ، فينفذ ذلك في صباح اليوم الثانى ، ثم ينزل الى السوق وليس له الا ثوبه الذى يلبسه .

٧ - ولما نزل قوله تعالى : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون (٢) »

جاء أبو طلحة الانصارى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله : ان احب اموالى الى بئر حاء - وهى بئر طيبة الماء - وانها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله تعالى فضعها يارسول الله حيث اراك الله ! فقال صلى الله عليه وسلم : بخ بخ . ذلك مال راجح ، ذلك مال راجح ! (٣) . الخ .

٨ - ولما نزل قوله تعالى : « من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة » (٤) ؟ قال صحابى يسمى أبا الدحداح : أو يستقرض الله من عبده يارسول الله ؟ قال : نعم : فقال : أمدد يارسول الله يدك ، فأشهده أنه تصدق ببستانه الذى لا يملك غيره . وكان فيه ستمائة نخلة مثمرة ، ثم عاد الى زوجه ، وكانت تقيم هى وأولادها فى هذا البستان ، فناداهما يالأم الدحداح ! قالت : ليلى ! قال اخرجى فقد اقترضته ربى عزوجل ، فقالت : ربح بيعك ياأبا الدحداح ! .

٩ - وكانت أم شريك صحابية انصارية عظيمة القدر عظيمة النفقة فى سبيل الله ، ينزل عليها الضيفان .

١٠ - وكانت رفيدة الاسلامية صحابية جليلة ، لها خيمة تداوى بها الجرحى أثناء الحرب ، وتأتى بالعجزة والبائسين الى خيمتها فى أيام السلم فتخدمهم وتخفف أتعابهم .

١١ - وكانت زينب أم المؤمنين رضى الله عنها كثيرة الصدقات ، خرج مطلقاً يوماً ، وكان مائة ألف فتصدقت به كله رضى الله عنها .

١٢ - وقد قص الله علينا فى القرآن قصة الذين بكوا لانهم لم يجدوا مدينفقون فى جيش العسرة ولم يجد الرسول ما يحملهم عليه (٥) .

١٣ - وكان كعب بن مالك أحد الثلاثة الذين تخلفوا عن اللحاق بغزوة تبوك لغير عذر ، فأمر الله أن يعتزلوا المسلمين فلا يخالطوهم ، ثم تلب عليهم بعد ذلك واستبشر كعب لذلك بشارة كبرى حتى قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ان من توبتى أن أتخلع من مالى صدقة الى

(٢) آل عمران ٩٢

(١) رواه مالك فى الموطأ

(٤) البقرة : ٢٤٥

(٣) رواه البخارى ومسلم والامام احمد

(٥) سورة التوبة : ٩٢

الله ورسوله ! فقال له الرسول : « أمسك عليك بعض مالك فهو لك خير » .

فقال للرسول ، انى أمسك سهمى (أرضى) التى بخيبر وأتصدق بما عدا ذلك ، فتصدق به كله (١) .

١٤ - كان البراء بن معرور من الانصار ، اول من أوصى بثلث ماله فى الاسلام ، أوصى به للنبي صلى الله عليه وسلم ، وكان قد توفى قبل أن يدخل النبي المدينة بشهر فقبل النبي عليه السلام وصيته ثم رد الثلث على ورثته (٢) .

١٥ - وقد جعل خالد بن الوليد رضى الله عنه كل مايملك ، خيولا وسيوفا وأدرعا ثم وقف ذلك كله على الجهاد فى سبيل الله عز وجل (٣)

١٦ - جاءت امرأة من اليمن الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعها ابنتها ، وفى يدها مسكتان غليظتان من ذهب ( سوران ) فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم : تعطين زكاة هذا ؟ فقالت ، لا ، فقال لها الرسول : أيسرك ان يسورك الله بسوارين من نار ؟ فخلعتهمما الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت : هما لله ورسوله (٤) .

١٧ - وعن عبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثه على الصدقة ( ليجمع زكاة الحيوان وغيره ) فقال له الرسول : يا أبا الوليد ! اتق الله ، لا تأتى يوم القيامة بجمل له رغاء ، أو بقرة لها خوار ، أو شاة لها ثغاء ( فيما اذا سرق ) قال : يا رسول الله ! ان ذلك لكذلك قال : أى والذى نفسى بيده ، قال : فوالذى بعثك بالحق لا أعمل لك على شيء أبدا (٥) .

١٨ - وكان رجل من الصحابة يصلى بستان له ، فأحب بستانه ، فانشغل له بذلك وهو يصلى ، فلما فرغ استغفر الله من أن يشغله بستانه عن الخشوع بين يديه ولم يجد لذلك كفارة الا أن يتصدق به كله لله عز وجل (٦) .

١٩ - وصلى بعض الصحابة أيضا فى بستان له ، فدخل طائر بستانه وهو يصلى فتتبعه ببصره فشغل به عن الخشوع فى صلاته ، فلما انتهى منها ذهب الى عثمان وكان أمير المؤمنين فتصدق بستانه كفارة لذنبه ذاك ، وجعل عثمان قيمة على البستان ، فباعه عثمان بخمسين ألفا وزعت على الفقراء ، وسمى بستان الخمسين (٧) .

٢٠ - وكان فى الصحابة رجل يقال له ( سليط ) أقطعه الرسول

(١) روى قصة هؤلاء الثلاثة : البخارى ومسلم وغيرهما من كتب السنة

(٢) أخرجه الحاكم (٣) رواه البخارى

(٤) رواه احمد وابو داود وابو عبيد فى الاموال

(٦) رواه الطبرانى واحمد وغيرهما (٧) رواه مالك فى الموطا

(٨) رواه مالك أيضا

أرضاً مواتاً ، فانقطع اليها يصلحها ويزرعها ، فلما رأى أن ذلك يحرمه من سماع كلام الله الذي يتنزل على رسوله ، ومن سماع حديث رسوله وأرشاده ، جاء إلى الرسول فرد له الأرض التي أخذها ، مفضلاً العلم والهداية على الأرض والمال (١) !

٢١ - وكان محمد بن علي بن الرضا بن الكاظم بن موسى بن الصادق جعفر رضي الله عنه يلقب بالجواد لكثرة صدقاته ، كان يبعث إلى المدينة في كل عام بأكثر من ألف ألف درهم (٢) ( مليون ) .

٢٢ - وكان الإمام محمد بن شهاب الزهري ( ١٢٤ هـ ) يمد الموائد للناس في الطرقات ويخرج إلى الأعراب ليعلمهم ، فإذا خرج في الصيف وزع عليهم السمن والصل و إذا كان في الشتاء وزع عليهم الزبد والصل .

وكانت تركبه الديون لكثرة نفقاته فيقضيها عنه أخوانه أحياناً ، وخلفاء بني أمية أحياناً ، وفي إحدى زياراته لدمشق قضى عنه هشام ابن عبد الملك مائتي ألف درهم في حادثة مشهورة ، وفيما هو عائداً إلى المدينة نزل بأحدى آبار المياه فشكى إليه أعرابها أن عندهم ثمانى عشرة امرأة عجوزاً ليس لهن من يخدمهن ، فأخدمهن جميعاً (٣) .

٢٣ - وكان الإمام أبو حنيفة من أكثر الناس اتفاقاً على شيوخه وتلاميذه ، وكانت له تجارة يتكسب منها ، واتفق أن شريكه باع صفقة من ثياب الخز وفيها ثوب معيب دون أن يطلع المشتري على عيب الثوب ، وكان المشتري تاجراً غريباً . فلم يعثر له على أثر ، فتصدق أبو حنيفة بقيمة الصفقة كلها تورعاً أن يدخل عليه قيمة الثوب المعيب .

٢٤ - وكان الإمام الليث بن سعد ذا غلة سنوية تزيد على سبعين ألف دينار يتصدق بها كلها ، حتى قالوا الله لم تجب عليه زكاة قط .

واشتري مرة داراً بيعت بالمراد ، فلما أرسل المفاتيح ليتسلمها وجد رسوله في الدار أيتاماً وأطفالاً صفاراً . . سأله بالله أن يترك لهم الدار ، فلما بلغ ذلك الليث أرسل إليهم أن الدار لكم ومعها ما يصلحكم كل يوم .

٢٥ - وكان عبد الله بن المبارك الإمام المحدث كثير الصدقات ، تبلغ صدقاته في السنة أكثر من مائة ألف .

٢٦ - وخرج عبد الله بن المبارك مرة إلى الحج مع أصحابه ، فاجتاز بعض البلاد فمات طائر معهم ، فأمر بالقائه على مزبلة هناك ، وسار أصحابه أمامه وتخلف هو وراءهم فلما مر بالمزبلة إذا جارية قد خرجت من دار قريبة منها فأخذت ذلك الطائر الميت ثم لفته ثم أسرعت به إلى الدار ، فجاء فسألها عن أمرها وأخذها الميتة ، فأخبرته أنها وأخاها فقيران لا يعلم بهما أحد ولا يجدان شيئاً .

(١) رواه أبو عبيد في ( الاموال : ٢٧٢ )

(٢) الواضي بـ (الوافي) : ١٠٥/٤

(٣) من كتاب مخطوط للمؤلف عن الإمام الأزهري

فأمر عبد الله برد الاحمال ، وقال لو كيله : كم معك من النفقة ؟  
وقال : ألف دينار ، فقال له عبدالله : عد منها عشرين دينارا تكفيننا  
الى مرو وأعطاها الباقي ، فهذا أفضل من حجبنا في هذا العام ، ثم رجع  
فلم يحج (١) .

٢٧ - كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يطعم الناس بالمدينة وهو  
يطوف عليهم بيده عصا ، فمر برجل يأكل يشماله ، فقال : يا عبدالله كل  
بيمينك ، قال : يا عبد الله انها مشغولة - ثلاث مرات - قال : وما مشغولها ؟  
قال : أصيبت يوم مؤته ، قال : فجلس عمر عنده يكي ، فجعل يقول له من  
يوضئك ؟ من يغسل رأسك وثيابك ؟ من يصنع كذا وكذا ؟ فدعاه بخادم  
وأمر له براحلة وطعام وما يصلحه وما ينبغي له ، حتى رفع أصحاب  
محمد صلى الله عليه وسلم أصواتهم يدعون لعمر رضى الله عنه مما رأوا  
من رفته بالرجل واهتمامه بأمر المسلمين (٢) .

٢٨ - قال ابن عمر : خرج عمر يوما الى حائط له ( بستان ) فرجع  
وقد صلى الناس العصر ، فقال : أنا لله وأنا اليه راجعون ! فأتتنى صلاة  
العصر في الجماعة ، أشهدكم أن حائطي على المساكين صدقة .  
قال ابن عمر : ليكون كفارة لما صنع عمر رضى الله عنه (٣) .

٢٩ - ومرو قوم بأبي ذر الفغاري رضى الله عنه حين كان بالريذة فراوا  
عليه حلة وعلى غلامه مثلها تماما ، فلما جلسوا للطعام نادى أبو ذر غلامه  
فأجلسه معه للطعام فمجبوا من معاملة أبي ذر لغلامه فقال : انى سمعت  
رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ( أخوانكم خولكم جعلهم الله تحت  
أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليلبسه مما يلبس وليطعمه مما  
يطعم الخ ) (٤) .

٣٠ - وكان الامام البخارى صاحب الصحيح يتكسب من التجارة  
فأتاه من يساومه على شراء صفقة من الثياب بثلاثة عشر ألفا فلم يقبل  
فلما ذهب المشتري ندم البخارى على أنه لم يبعه تلك الصفقة بما دفع من  
المال ونوى أنه ان رجع باعه اياها بذلك المبلغ ، ولكنه عاد اليه في اليوم  
الثاني ودفع اليه خمسة عشر ألفا ، فأبى البخارى أن يقبض أكثر من  
ثلاثة عشر ألفا ، فعجب المشتري من ذلك ، وقال له بالأمس دفعت لك  
هذا المبلغ فلم تقبل ، وأنا أدفع لك اليوم ما طلبته بالأمس فما شأنك ؟  
فأجابه البخارى : أننى بالأمس كنت نويت أن أبيعك الصفقة بهذا المبلغ  
إذا عدت ، وانى أخجل من الله أن أعود عن عزم قد عزمته عليه .

٣١ - وكان الامام على بن الحسين ( زين العابدين ) من أكثر الناس  
رحمة بالبؤساء لا يعلم أن أحدا من أصدقائه عليه دين إلا أدى دينه  
عنه .

(١) البداية والنهاية لابن كثير : ١٧٨٧/١٠ (٢) الآثار للامام محمد بن الحسن من ١٣٥

(٤) تقدم هذا الحديث وتخرجه

(٢) الكبار للذهبي : ٣١



دخل على محمد بن اسامة بن زيد يعود فوجده يبكي ، فسأله عن بكائه « فقال : على دين خمسة عشر ألف دينار » ، فقال : هي علي . قال محمد بن اسحاق : « كان ناس بالمدينة يعيشون لا يدرون من اين يعيشون ؟ ومن يعطيهم ؟ فلما مات علي بن الحسين فقدوا ذلك فعرّفوا أنه هو الذي كان يأتيهم بالليل بما يأتيهم به ، ولما مات وجدوا في ظهره واكتافه أثر حمل الجراب الى بيوت الارامل والمساكين .

وكان يقول : صدقة الليل تطفى غضب الرب ، وتنير القلب والقبر وتكشف عن العبد ظلمة يوم القيامة .

نال منه ابن عمه حسن بن حسن وهو ساكت ، فلما كان الليل ذهب الى منزل ابن عمه وقال له : يا بن العم ! ان كنت صادقا يغفر الله لي ، وان كنت كاذبا يغفر الله لك والسلام عليك . ثم رجع فلحق به ابن عمه فصالحه .

وهو صاحب القصة المشهورة من أن جارية كانت تحمل الابريق وتسكب منه الماء ليتوضأ ، فوقع الابريق على وجهه وشججه ، فرفع رأسه اليها لاثما ، فقالت الجارية له : « والكاظمين الفيظ » فقال : قد كظمت غيظي ! فقالت : « والعافين عن الناس » فقال : عفا الله عنك ! فقالت : « والله يحب المحسنين » فقال : أنت حرة لوجه الله تعالى (١) !

٣٢ - وكان عند يونس بن عبيد ثياب مختلفة الاثمان ، ضرب قيمة كل حلة منها اربعمائة ، وضرب قيمة كل منها مائتان ، فذهب الى الصلاة وخلف ابن أخيه في الدكان ، فجاء اعرابي وطلب حلة باربعمائة فعرض عليه من حلل المائتين واستحسنها ورضيها ، فاشتراها ومضى بها وهي على يديه ، فاستقبله في الطريق يونس فعرف أنها من بضاعته ، فقال للاعرابي : بكم اشتريت ؟ فقال : باربعمائة ، فقال يونس : لا تساوي اكثر من مائتين فأرجع حتى تردها ، فقال الاعرابي : هذه تساوي بلدنا خمسمائة وأنا أرتضيها ! فقال له يونس : انصرف فان النصح في الدين خير من الدنيا بما فيها ، ثم رده الى الدكان ، ورد عليه مائتي درهم وخاصم ابن أخيه في ذلك وقتله ، وقال له : اما استحييت ؟ اما تقيت الله ؟ تربح مثل الثمن وتترك النصح للمسلمين ؟ فقال : والله ما أخذها الا وهو راض بها ، قال يونس : فهلا رضيت له بما ترضاه لنفسك (٢) .

٣٣ - وكان السري السقطي قد اشترى لوزا . البكر منه بستين دينارا وكتب عنده أن ربحه ثلاثة دنانير . فصار اللوز بتسعين . فاتاه الدلال وطلب اللوز . فقال : خذه . قال الدلال : بكم ؟ فقال : بثلاثة وستين . فقال الدلال وكان من الصالحين : فقد صار اللوز بتسعين . فقال السري : لقد عقدت عقدا لا أحله . لست أبيع الا بثلاثة وستين . فقال الدلال : وأنا عقدت عقدا بيني وبين الله أن لا أغش مسلما . لست آخذ منك الا بتسعين ! فلا الدلال اشترى ولا السري باعه (٣) .

(١) نقلنا هذا القول الذي أوردها عن زين العابدين عن كتاب « الامام زيد » للعلامة

المحقق الاستاذ محمد ابو زهرة حفظه الله

(٢) أحياء علوم الدين : ٧٩/٢٠ وانظر تهذيب التهذيب لابن حجر ٤٤٢/٩١

(٣) الاحياء : ٨٠/٢

٣٤ - وكان لمحمد بن المنكدر . دكان يبيع فيها شققا بعضها بخمسة وبعضها بعشرة . فباع غلامه في غيبته شقة من الخمسيات بعشرة . فلما عرف لم يزل يطلب ذلك الاعرابي المشتري طول النهار حتى عثر عليه . فقال له : ان انفلام غلط فباعك مايساوى خمسة . بعشرة . فقال : يا هذا قد رضيت . فقال ابن المنكدر : وان رضيت فأنا لانرضى لك الا مانرضاه لانفسنا . فاختر احدي ثلاث خصال : اما أن تأخذ شقة من المشتريات بدراهمك . واما أن نرد عليك خمسة . واما أن ترد شقتنا وتأخذ دراهمك . فقال الاعرابي : أعطنى خمسة . فرد عليه خمسة . وانصرف الاعرابي (١) .

٣٥ - باع الحسن البصري بقة له باربعمئة درهم . فلما استوجب المال قال له المشتري : اسمح يا أبا سعيد ! قال : قد أسقطت عنك مائة . فقال له أحسن يا أبا سعيد فقال الحسن قد وهبت لك مائة أخرى فقبض من حقه مائتى درهم . فقبل له : يا أبا سعيد ! هذانصف الثمن . فقال : هكذا يكون الأحسان والا فلا (٢) .

٣٦ - كان في صالحى السلف من له دفتران للحساب أحدهما ترجمته مجهولة . فيه أسماء من لا يعرفه من الضعفاء والفقراء . وذلك أن الفقير كان يرى الطعام أو الفاكهة فيشتهيه . فيقول : احتاج الى خمسة أرطال مثلا من هذا وليس معى ثمنه . فيقول له ذلك التاجر : خذه وأقض ثمنه عند الميسرة .

قال الغزالي : ولم يكن يعد مثل ههنا التاجر من خيار الناس . بل يعدون من الخيار من لم يكن يثبت اسمه في الدفتر أصلا ولا يجمله ديناً ، لكن يقول : خذ ما تريد . فان يسر لك فاقض . والا فانت في حل منه وسعة (٣) .

٣٧ - جاء فتح الموصلى الى منزل أخ له وكان غائبا . فامر اهله فأخرجت صندوقه . ففتحه وأخذ حاجته . فأخبرت الجارية مولاهما بذلك بعد أن حضر . فقال لها : ان صدقت فأنت حرة لوجه الله (٤) ، قال ذلك سرورا بما فعل أخوه في ماله وهو في غيبته .

٣٨ - وكان ابراهيم بن أدهم مع رفيق له وكان لرفيقه حمار . فأعطاه ابراهيم - بغير اذنه - لرجل آخر رآه راجلا . فلما جاء رفيقه وعلم بما فعل ابن أدهم سكت ولم يقل شيئا (٥) .

٣٩ - قال ابن عمر رضى الله عنهما : أهدى لرجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس شاة . فقال : فلان أحوج منى اليه فبعث به اليه . فبعثه ذلك الانسان الى آخر . فلم يزل يبعث به واحد الى آخر حتى رجع الى الاول بعد أن تداوله سبعة (٦) .

(٢) الاحياء : ٨٠/٢

(٤ ، ٥ ) الاحياء : ١٧٤/٢

(١) الاحياء : ٨١/٢

(٣) الاحياء : ٨٢/٢

(٦) الاحياء : ١٧٤/٢

٤٠ - ويتسبب هذه تلك القصة المشهورة التي جرت للواقدي وصديقه الهاشمي مع صديقهما الآخر ليلة العيد .

٤١ - استدان مسروق بن الأجدع ديناً ثقيلاً . فبلغه أن على أخيه خيثمة ديناً ، فذهب مسروق ففضى دين خيثمة وهو لا يعلم وذهب خيثمة قضى دين مسروق وهو لا يعلم (١) .

٤٢ - قال الفزالي : وكان في السلف من يفقد عيال أخيه ( أي صديقه ) وأولاده بعد موته أربعين سنة يقوم بحوائجهم ويتردد كل يوم اليهم ، ويمولهم من ماله ، فكانوا لا يفقدون من أيهم إلا عينه ، بل كانوا يرون منه ما لم يروا من أيهم في حياته ، وكان الواحد منهم يتردد إلى باب دار أخيه ويسأل ويقول : هل لكم زيت ؟ هل لكم ملح ؟ هل لكم حاجة ؟ وكان يقوم بها من حيث لا يعرفه أخوه (٢) .

٤٣ - قال عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي الحافظ ( صاحب عل الحديث ) : وقع عندنا الغلاء فأنقل إلى أحد أصدقائي حبوباً من أصبهان فبعثها بعشرين ألف درهم ، وسألني أن أشتري له داراً عندنا « فاذنزل علينا نزل فيها » فأنفقتها على الفقراء ! فكتب إلي : ماذا فعلت ؟ قلت اشتريت لك بها قصراً في الجنة ، فكتب إلي : رضيت أن ضمنك ذلك لي فكتبته على نفسك صكاً . ففعلت (٣) .

٤٤ - ولا ننسى أن نذكر في هذا الميدان « صلاح الدين الأيوبي » ذلك البطل الخالد الذي أتيج له من المجد والظفر والفنائ ما لم يتح لأحد من بعده ومن قبله في عصور قلائل : ومع ذلك فقد أقام من المؤسسات العلمية والخيرية من المساجد والمدارس والمستشفيات والرباطات ما قاضت به بلاد الشام ومصر ، دون أن يسجل واحداً منها باسمه وإنما كان يسجلها باسماء قواده وزوجاته وأمرائه ، ولما مات لم يترك ديناراً ولا درهما ولا ضياعاً ولا قصوراً ولا اثناً ولا رياشاً .

٤٥ - وآخرنا الكلام هنا عمداً عن الخليفة الزاهد العادل عمر بن عبد العزيز لأن سيرته حجب من العجب « فقد جاء في عهد كانت النفوس فيه قد بدأت بالانحراف عن سنن الخلفاء الراشدين ، ولعبت الأهواء بيت المال وقست القلوب ، وفشت الرفاهية ، واتسعت الفتوحات ، وعظمت الدولة .

ثم هو نفسه عاش في بيت الإمارة ، وأسرة الملك ، وجو العطور والرياحين ، ولذة الترف والنعيم ، قلما ولي الخلافة ، ودانت له الدنيا كان أزهده الناس فيها وفي جاهها وأموالها ، وكان أبعد الناس عن عظمة الملك وأبهة الخلافة ، وكان أحرص الناس على العدل والأمن والسلام . وابتاع كل ذي حقّ حقّه ، واتصاف المظلوم من الظالم .

ذلكم هو عمر بن عبد العزيز ..

(٢) الأحياء : ١٧٥/٢

(١) الأحياء : ١٧٤/٢

(٣) علل الحديث : ٧/١

## واليكم بعض أخباره ومآثره (١) ..

١ - كان أول ما فعله عمر بعد أن بويع بالخلافة أن قدمت إليه المراكب ، فقال : ما هذه ؟ فقالوا : مراكب لم تتركب قط يركبها الخليفة أول ما يلي : فتركها وخرج يلتمس بقلته ، وقال : يامزاحم ! ضم هذه إلى بيت مال المسلمين . ونصبت له سرادقات وحجر لم يجلس فيها أحد قط ، كانت تضرب للخلفاء أول ما يلون : فقال : ما هذه ؟ فقالوا سرادقات وحجر لم يجلس فيها أحد قط يجلس فيها الخليفة أول ما يلي ، قال : يامزاحم ضم هذه إلى أموال المسلمين ، ثم ركب بقلته وانصرف إلى القرش والوطاء الذي لم يجلس عليه أحد قط يفرش للخلفاء أول ما يلون ، فجعل يدفع ذلك برجله حتى يفضى إلى الحصير ، ثم قال يامزاحم : ضم هذا إلى أموال المسلمين .

٢ - ولما أصبح قال له أهل سليمان « الخليفة السابق » . هذا لك وهذا لنا : قال : وما هذا ؟ وما هذا ؟ قالوا : هذا مما لبس الخليفة من الثياب ومس من الطيب فهو لولده ، وما لم يمس ولم يلبس فهو للخليفة بعده هو لك ، فقال عمر ما هذا لي ولا سيما لسليمان ولا لكم ولكن يامزاحم ضم هذا كله إلى بيت مال المسلمين .

فتشاور الوزراء والأمراء فيما بينهم في خطة هذا الخليفة الجديد فبقى عندهم الأمل في أن يكون عنده ميل إلى الجوارى : فعرضن عليه كأمثال الدمي ، فلما نظر اليهن جعل يسألهن واحدة واحدة : من أنت ؟ ولمن كنت ؟ ومن بعث بك ؟ فتخبره الجارية بذلك ، فيأمر بردهن إلى أهليهن ، ويحملن إلى بلادهن حتى فرغ منهن .

فلما رأوا ذلك منه أيسوا منه وعلموا أنه سيحمل الناس على الحق .

٣ - ولما دخل المجلس لأول مرة قام الناس بين يديه فقال :

يا معشر الناس ! ان تقوموا نقم وإن تقعدوا تقعد ، فانما يقوم الناس لرب العالمين .

ان الله فرض فرائض وسنن سننا من أخذ بها لحق . ومن تركها محق ومن أراد أن يصحبنا فليصحبنا بخمس : يوصل إلينا حاجة من لا تصل إلينا حاجته ، ويدلنا من العدل إلى ما لا نهتدي إليه . ويكون عوناً لنا على الحق . ويؤدي الأمانة إلينا وإلى الناس ، والا يفتب عندنا أحدا . ومن لم يفعل فهو في حرج من صحبتنا والدخول علينا .

## ٤ - ومن خطبة له :

الا واني قد استعملت عليكم رجالا لا اقول : هم خياركم ولكنهم خير ممن هو شر منهم ، الا فمن ظلمه امامه فلا اذن له على ( أى يدخل بغير استئذان ) ومن لا فلا أرينه الا : واني منعت نفسي وأهل بيتي هذا الما

(١) كل ما يأتي من النقول أخذته من كتاب « سيرة عمر بن عبد العزيز » لابن الحكم

فان حسنت به عنكم انى اذا لثنين وما احد منكم تلعنى حاجته الا حرصت أن أسد من حاجته ما قدرت عليه . وما أحد لا يسعه ما عندى الا وددت أنه يدىء بى وبلحمتى الذين يلونى حتى يستوى عيشنا وعيشكم .

٥ - وكل عنده قوم ذات ليلة فى بعض ما يحتاج اليه ، ففشى بهراجه ، فقام اليه فأصلحه ، فقليل له : يا امير المؤمنين ! الا تكفيك ؟ قال : وما ضرني ؟ فمت وأنا عمر بن عبد العزيز ورجعت وأنا عمر بن عبد العزيز .

٦ - وأتى ذات يوم بعنبرة من الفىء ، فأخذها بيده فمسحها ثم أمر بها فرفعت حتى تباع ، ثم انه أمر يده على انفه فوجد ريحها فدعا يوضوء فتوضأ قال كاتبة ليث بن أبى رقية وكان حاضراً . فقلت لامير المؤمنين ما هذا الذى أصبت منها حتى تتوضأ ؟ فقال عمر : عجباً لك ياليث ! وهل ينتفع منها الا بالذى وجدت ؟ أتوكل ؟ أو تشرب ؟ .

٧ - وكان له غلام يأتيه بقمقم من ماء مسخن يتوضأ منه ، فقال للغلام يوماً : اذهب بهذا القمقم الى مطبخ المسلمين فتجعله عنده حتى يسخن ثم تأتى به ؟ قال : نعم أصلحك الله ! قال عمر للغلام ، أفسدته علينا ، فأمر مزاحماً أن يلقى ذلك القمقم ثم ينظر مايدخل فيه من الحطب ثم يحسب تلك الأيام التى كان يقيه فيها فيجعلها حطباً للمطبخ

٨ - وكان له غلام وبرذون يغل عليه . فسأل الغلام عن حاله ، فقال : الناس كلهم بخير الا أنا وأنت وهذا البرذون ، قال : اذهب فانت حر ! ..

٩ - أبطأ عمر يوماً عن الجمعة قليلاً ، فعوتب فى ذلك ، فقال : انما انتظرت قميصى غسلته أن يجف ..

١٠ - ودخل مسلمة بن عبد الملك على عمر بن عبد العزيز فى مرضه وعليه قميص وسخ ، فقال لفاطمة زوجة عمر وهى أخت مسلمة : الا تفسلون قميصه ؟ قالت : والله ما له غيره وأن غسلناه بقى لاقميص له .

١١ - وكان عمر يصلى العشاء ثم يدخل على يتانه فيسلم عليهن ، فدخل عليهن ذات ليلة فلما أحسنه وضعن أيديهن على أفواههن ثم تبادرن الباب ، فقال للحاضنة : ما شأنهن ؟ فقالت : انه لم يكن عندهن شيء يتعشينه الا عدس وبصل ، فكرهن أن تشم ذلك من أفواههن ، فبكى عمر ، ثم قال لهن : يا بناتى : ماينفعكن أن تفششين الالوان ويمر بأبيكن الى النار ، فبكبن حتى علت أصواتهن !

١٢ - ونزل عمر بدير فمرت به اطباق ، فقال : ما هذه ؟ قيل له : صاحب الدير يطعم الناس ، فجاء بطبق فيه فستق ولوز ، فقال عمر : تلك الاطباق مثل هذا ؟ قال : لا ، قل خذ طبقك !

١٣ - وكان عمر يعطى كل مقعدين ، وكل زمين غلاماً يخدمهما ، وكل أهمل غلاماً يقوده .

١٤ - وقال مرة لزوجته فاطمة بنت عبد الملك : قد علمت حال هذا الجوهر ( لجليها ) وما صنع فيه أبوك ، ومن أين أصابه ، فهل لك أن أجعله في تابوت . ثم أطبع عليه وأجعله في أقصى بيت مال المسلمين وأنفق مادونه . فان خلصت إليه أنفقته ، وإن مت قبل ذلك فلعمرى ليردنه إليك ، قالت له : افعل ما شئت . ففعل ذلك ومات رحمه الله والحلى والجواهر في بيت المال . فلما ولي أخوها يزيد بن عبد الملك الخلافة رد إليها تلك الجواهر فامتنعت عن أخذها . وقالت : ما كنت لأتركها ثم أخذها ..

١٥ - وأراد عمر الحج فسأل خازنه مزاحما : انى قد اشتريت الحج ، فهل عندك شيء ، قال : بضعة عشر دينارا ، قال : وما تقع منى ؟ ولم يحج بعد ذلك ..

١٦ - وكتب الى زيد بن عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب - وكان واليه على الكوفة - : « كتبت تذكر أنه قد اجتمعت عندك أموال بعد أعطية الجند » فأعط منهم من كان عليه دين في غير فساد . أو تزوج فلم يقدر على نقد »

١٧ - وكتب الى أهل المواسم :

« أما بعد فابما رجل قدم علينا في رد مظلمة أو امر يصلح الله به . خاصا أو عاما من أمر الدين فله ما بين مائة دينار الى ثلاثمائة دينار . بقدر ما يرى من الحسبة وبعد الشقة . رحم الله امرا لم يتكأذه بصد سفر . لعل الله يحيى به حقا ، أو يميت به باطلا أو يفتح به من ورائه خيرا .

١٨ - وقال ابن عياش : خرج عمر ذات يوم من منزله على بفسلة له شهباء . فلقية رجل فشكا اليه عدى بن اربطة في أرض له . فامر عمر برد اوضه اليه . ثم قال له : كم أنفقت في مجيئك الى ؟ فقال : أمير المؤمنين ! تسألنى عن نفقتى وأنت قد رددت على اوضى وهى خير من مائة ألف ؟ فقال عمر : انما رددت عليك حقت . فأخبرنى كم أنفقت ؟ قال : ما أدرى : قال احززه ! قال ستين درهما فأمر له بها من بيت المال . فلما ولي صاح به عمر . فرجع فقال له : خذ هذه خمسة دراهم من مالى فكل بها لحما حتى ترجع الى أهلك ان شام الله .

١٩ - وسأل عنبسة بن سعيد عمر بن عبد العزيز شيئا من المال . فقال له عمر :

يا عنبسة ! ان كان مالك الذى أصبح عندك حلالا فهو كافيك ، وان كان حراما فلا تزيدن اليه حراما الا تخبرنى ! أمحتاج أنت ؟ قال : لا ، أفعلبك دين ؟ قال : لا ، قال : أفتأمرنى أن أعمد الى مال الله فأعطيك من غير حاجة بك اليه ، وأدع فقراء المسلمين ؟ لو كنت غارما أدبت غرمك ، أو محتاجا أمرت لك بما يصلحك ، فعليك بمالك الذى عندك فكله واتق الله ، وانظر أولا من أين جمعته ، وانظر لنفسك قبل أن ينظر اليك من ليس لك عنده هواة ولا مراجعة .

٢٠ - وكان من حرصه على مال الأمة أن وفد عليه يريد من بعض الافاق فاستهى الى باب عمر ليلا فمرع ابياب ، فخرج اليه البواب فقال : أعلم امير المؤمنين أن باباب رسولا من فلان عامله ، فدخل فأعلم عمر - وقد كان اراد ان ينام - ففقد وقال : ائذن له ، فدخل الرسول ، فدعا عمر بشمعة غليظة فأججت نارا ، وأجلس الرسول وجلس عمر ، فسأله عن حال أهل البلد ومن بها من المسلمين وأهل العهد ، وكيف سير العامل ، وكيف الأسعار ، وكيف أبناء المهاجرين والانصار ، وأبناء السبيل والفقراء ، وهل أعطى كل ذي حق حقه ، وهل له شك ، وهل ظلم احدا فأنباه بجميع ما علم الرسول من امر تلك المملكة كل ذلك يسأله فيحفي السؤال حتى اذا فرغ من مسأله قال له : يا امير المؤمنين كيف حالك في نفسك وبدنك ؟ وكيف عيالك وجميع أهل خزانتيك ومن تعني بشانه ؟ قال : فنفض عمر الشمعة فأطفأها بنفخته وقال : يا غلام ! على سراج فدعا بفتيلة لا تكاد تضيء . فقال : سل عما أحببت ، فعجب البريد للشمعة وأطفأه ايها . وسأله عن سبب ذلك فقال عمر : يا عبد الله ! ان الشمعة التي رأيتني أطفأتها انما هي من مال الله ومال المسلمين ، وكنت أسألك عن حوائجهم وأمرهم فكانت تلك الشمعة توقد بين يدي فيما يصلحهم وهي لهم ، فلما صرت لشأني وأمر عيالي ونفسي أطفأت نار المسلمين ..

٢١ - وهذا الخليفة العظيم لم يكن تزيد نفقته في اليوم على درهمين واليك ما فعل في أمواله بعد أن بويع بالخلافة :

قال الحكم بن عمر الحمصي : أول شيء بدأ به عمر بن عبد العزيز انه لم يترك ظلامة مزرعة ، ولا طلبية لاحد قبله الا ردها اليه ، وباع ما كان له من المزارع من عبد أو أمة أو بهيمة أو آفة ، وباع ما كان من متاع أو مركب أو لباس أو عطر وأشياء بلغ ثمنها ثلاثة وعشرين ألف دينار . ثم جعلها في سبيل الله . وقال غير الحكم : بلغ ثمنها ثلاثة وأربعين ألف دينار ، وابتاع جارية تخبز له وتطحن وتفسل ثيابه بمائة ووصيفا في حاجته ورسالته . وكان يزن له في كل يوم درهمين للحمه وخبره وبقله ان غلا السعر أو رخص .

٢٢ - وهذا الخليفة الذي عاش هذا العيش الجاف الخشن . وكان شعبه يعيش في بحبوحة ورخاء واليك النقول التاريخية التي يرويها ابن عبد الحكيم .

قال يحيى بن سعيد : كنا نطوف بالصدقات على الناس في عهد عمر بن عبد العزيز فلا نجد من يقبلها قد أغنى الناس عمر بن عبد العزيز وخرج يوما في ولايته الخلافة بالشام فركب هو ومزاحم وكان كثيرا ما يركب فيلقى الركبان يتجسس الاخبار عن القرى ، فلقيهما راكب من أهل المدينة وسألاه عن الناس وماوراءه ، فقال لهما : اني تركت المدينة والظالم بها مقهور . والمظلوم بها منصور والغنى موفور والعائل مجبور فسر عمر بذلك وقال : والله لان تكون البلدان كلها على هذه الصفة أحب الى مما طلعت عليه الشمس .

وقال رجل من ولد زيد بن الخطاب : مامات عمر بن عبد العزيز حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم فيقول : اجعلوا هذا حيث ترون في الفقراء فما يبرح حتى يرجع بماله . يتذكر من يضعه فيهم فما يجده ، فيرجع بماله قد أغنى الله الناس على يد عمر بن عبد العزيز . .

٢٣ - ولما حضرت عمر الوفاة قال له مسلمة بن عبد الملك أوصي يا أمير المؤمنين ! قال : مالي من مال فأوصي فيه . قال مسلمة : هذه مائة ألف دينار فأوصي فيها بما أحببت . قال عمر : أو خير من ذلك يا مسلمة ؟ أن تردها من حيث أخذتها . فقال له مسلمة : جزاك الله عنا خيرا يا أمير المؤمنين . . والله لقد ألت لنا قلوبا قاسية . وجعلت لنا ذكرا في الصالحين .

٢٤ - ثم حاول مسلمة بن عبد الملك محاولة أخيرة لانتقاذ أولاد عمر - وهم أولاد أخته - من الفقر والضياع من بعده فقال له :

يا أمير المؤمنين ! انك قد ففرت أفواه ولدك من هذا المال ، فلو أوصيت بهم الى والى نظرائى من قومك فكفوك مؤوتتهم . فلما سمع ذلك قال : أجلسونى فأجلسوه ، فقال :

قد سمعت مقالتك يا مسلمة ! أما قولك انى قد اففرت أفواه ولدى من هذا المال ، فو الله ماظلمتهم حقا هو لهم ، ولم أكن لاعطيهم شيئا لغيرهم .

وأما ماقلت فى الوصية ، فان وصيتى ( الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ) وإنما ولد عمر بين أحد رجلين : أما رجل صالح فسيفنيه الله ، وأما غير ذلك فلن أكون أول من أعانه بالمال على معصية الله .

ثم قال : ادع لى بنى !

فأتوه ، فلما رأهم تفرقت عيناه وقال :

بنفسى فتية تركتهم عالة لاشئ لهم !  
ثم بكى وقال :

يا بنى : انى قد تركت لكم خير كثيرا ، لاتمرون بأحد من المسلمين وأهل ذمتهم الا راوا لكم حقا .

يا بنى ! انى قد مثلت بين الامرين : أما ان تستفتنوا أدخل النار ، او تفتقروا الى آخر يوم الابد وأدخل الجنة ! ، فأرى ان تفتقروا الى ذلك أحب الى ! قوموا عصمكم الله ! قوموا رزقكم الله .

٢٥ - ونرى أن نختم هذا الحديث عن عمر وأخلاقه وسيرته بوصف زوجته فاطمة بنت عبد الملك له ، فقد أرسل اليها عطاء يسألها عن أحوالها فقالت :



ان عمر رحمة الله عليه كان قد فرغ للمسلمين نفسه ، ولأمورهم ذهنه ، فكان اذا أمسى ولم يفرغ من حوائج يومه . وصل يومه بليته الى أن أمسى مساءً وقد فرغ من حوائج يومه . فدعا بسراجيه الذي كان من ماله . فصلى ركعتين . ثم أقعى وأضعأ رأسه على يديه، تسيل دموعه على خديه يشهق الشهقة يكاد ينصدع قلبه لها . وتخرج لها نفسه ، حتى برق الصبح فأصبح صائماً فدنوت منه فقلت : يا أمير المؤمنين ! أليس كان منك ما كان ؟ قال : أجل ! فعليك بشأنك وخلني وشأني ! قالت : فقلت اني أرجو أن أتعظ ، قال : اذن أخبرك ..

اني نظرت فوجدتني قد وليت أمر هذه الامة أسودها وأحمرها ، ثم ذكرت الفقير الجائع ، والغريب الضائع ، والاسير المقهور ، وذا المال القليل ، والعيال الكثير ، وأشباه ذلك في أقاصي البلاد وأطراف الارض فعلمت أن الله سائلني عنهم ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم حجيجي فيهم فخفت أن لايقبل الله مني معذرة فيهم ولا تقوم لي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة فرحمت الله يا فاطمة نفسي رحمة دمعت لها عيني ، ووجع لها قلبي . فأننا كلما ازددت لها ذكراً ازددت منها خوفاً ، فاتعظي أن شئت أو ذري ..

وبعد فهذا هو عمر بن عبد العزيز الخليفة الزاهد العظيم يرحمه الله ، ولو لم يكن في تاريخ الاسلام إلا تاريخه : لكفى ذلك دليلاً على نجاح الاسلام في اشتراكته ، ومحمد رسول الله في قيادته ، أذ أنجبت للدنيا مثل هذا الرجل الذي لايعرف التاريخ له مثيلاً في قديم الحكم وحديثه ، فكيف اذا كان للاسلام من أمثاله الحاكمين المخلصين عشرات ، ومن أمثاله الاغنياء الزاهدين ، مئات ومئات . ومن أمثاله المسلمين الورعين الوف تعد بالعشرات ؟



الخاتمة



يقول الله تعالى :

« ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء . تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ، ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ، يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء (١) »  
وقال المسيح عليه السلام : سيكون بعدى أنبياء كذبة . قيل له فما علامتهم ؟ فقال : من ثمارهم تعرفونهم .

إذا كانت محاولة البرهان على أفضل النظم عن طريق المقارنة والجداول لا تثمر ثمرتها المرجوة حين يرين الهوى على القلوب . وتطفئ العصبية على العقول . فإن المقارنة بين نتائج النظم وثمارها كما يحكيها التاريخ الصادق . سبيل لامجال لدحضه والرد عليه ولو لج البطلون في عنادهم . ولقد رأينا ثمار اشتراكية الاسلام كما هي في رواية التاريخ وواقعه الحي في دولتها وفي مجتمعاتها وفي أفرادها . فكيف كانت هذه الثمار ؟!

ان اشتراكية الاسلام :

أخذت من العرب وثنية متردية . وقبائل متفرقة وحياة خشنة ، وعزلة موحشة . وأعطتهم توحيدا متساميا . وعيشا رخيا . وأمة واحدة . وقيادة لمواكب النور في تاريخ الإنسانية كلها .  
أخذت من العالم عقائده المنفسخة ، وملوكه الظلمة . وحيوانيته المتقاتلة . وأعطته عقيدة محررة . وقيادة ساهرة . وإنسانية بالنبل والخير ذاخرة .

أخذت من العرب « أبا جهل » وأعطتهم « أبا بكر » !

أخذت من الفرس « مزدك » وأعطتهم « أبا جنيفة » !

أخذت من العراق « رستم » وأعطتها « سعدا » !

أخذت من مصر « المقوقس » وأعطتها « عمرا » !

أخذت من الشام « هرقل » وأعطتها « معاوية » !

أخذت من قيادة العالم « أمبراطوريتين » أفنتا الشعوب :  
امبراطورية الفرس في الشرق . وامبراطورية الروم في الغرب . .

وأعطت العالم « حضارتين » بعثتا الشرق الوثني والغرب المجوسي من رقدتيهما : حضارة « بغداد » في الشرق و « قرطبة » في الغرب

هذه هي بعض ثمار اشتراكية الاسلام فما هي ثمار اشتراكية الشيوعيين ؟

انا لا اتحدث عن ثمارها في بلادها وفي بلاد غير بلادنا ، ولكنى  
اتحدث عن ثمارها في بلادنا فماذا كانت ؟

لقد كانت ثمارها في الوطن العربي : الحادا وافسادا وخيانة  
وائتمارا أنها تريد أن تأخذ من الامة العربية وحدتها لتعطيها الفرقة  
والانقسام  
تريد أن تأخذ من الامة العربية اجتماع شملها لتعطيها قوميات  
مختلفة متقاتلة .

تريد أن تأخذ من الامة العربية دينها وعروبها لتعطيها الحادها  
وشعوبيتها

تريد أن تأخذ من الامة العربية سيادتها واستقلالها لتلحقها  
انحلالها واباحيتها

تريد أن تأخذ من الامة العربية سيادتها واستقلالها لتلحقها  
بركب الاستعمار المبطن بغطاء رقيق من الانسانية الزائفة !.

انها تريد أن تأخذ من العالم الاسلامي وحدته الروحية وفضائله  
الاصيلة ، لتعطيها قوميات يخاصم بعضها بعضا ، ورذائل تقتل  
فضائله قتلا .

انها تريد أن تأخذ من العرب والمسلمين مصادر القوة لتعطيهم  
عوامل الضعف ، وتريد أن تأخذ منهم امضى اسلحتهم في كفاح المستعمرين  
لتلقيهم بغير سلاح في وجه الطامعين .

انها تريد أن تأخذ من الشرق العربي والاسلامي وثبته المتوفرة  
لانشاء حضارة جديدة تحتاجها الانسانية المعذبة، ولتعطيها هذه الحضارة  
الثردية الشقية التي تلفظ أنفاسها .

انها تريد أن تحوله عن قيادة « محمد » عليه صلوات الله ، الى  
قيادة « إبليس » عليه لعنات الله !

شتان ما بين أخذ الاشتراكية الاسلامية وعطائها . وما بين أخذ  
الاشتراكية الشيوعية وعطائها .

فهل تستويان في ميزان النقد ؟ وهل تستويان في منطق العقل ؟  
وهل تستويان في نتائجهما الحضارية الانسانية ؟  
« أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا ؟ لا يستوون (١) »

« قل هل يستوى الاعمى والبصير ؟ أم هل تستوى الظلمات  
والنور (٢) ؟ »

« قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث (٣) ! »

«وما يستوى الاحياء ولا الاموات ، ان الله يسمع من يشاء» (١) وأخيرا :

« مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا » (٢) ؟

« لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ، أصحاب الجنة هم الفائزون » (٣) .

أيها السادة :

ان الاشتراكية الإسلامية :

الهيئة في قدسيتها !

محمدية في قيادتها !

عربية في خصائصها !

إنسانية في نزعتها !

عالمية في رسالتها !

ومن أجل ذلك كانت اشتراكية الاسلام لنا نحن العرب والمسلمين رسالة كريمة وسبيلا مستقيما ، وكانت اشتراكية الشيوعيين لنا موتا ذليلا وفسادا هداما .

ومن أجل ذلك كانت الدعوة الى اشتراكية الاسلام خدمة إنسانية باهرة ، وضرورة قومية قاهرة ، وكانت الدعوة الى اشتراكية الشيوعيين خيانة وطنية سافرة ، وجريمة شعوبية قاهرة ..

والحمد لله رب العالمين

---

(١) طاهر ٢٢

(٣) الحشر ٢٠





الملاحق



## ١ - جواب الاسلام على الشيوعية

« لهذا الخطاب قصة ... »

فقد انعقد المؤتمر الاسلامي المسيحي العالمي في بجمدون بين ٢٢ - ٢٧ - نيسان « ابريل » ١٩٥٤ بتنظيم جمعية اصدقاء الشرف الاوسط الامريكية ، ودعيت اليه وفود من جميع أنحاء البلاد العربية وباكستان وايران وتركيا وغيرها من بلاد العالم الاسلامي ، وتردد الوفد السوري أول الامر في قبول الدعوة ولكننا رأينا أخيراً أن نقبلها لنحبط ما قد يكون وراء المؤتمر من مناورات سياسية ! وهذا هو الذي وقع .. فقد كان جو المؤتمر وانتقاء كثير من اعضاء الوفود دليلاً على أن القصد من الدعوة اليه انشاء كتلة عالمية باسم الاسلام والمسيحية ضد الاتحاد السوفييتي ، وقد كان يومئذ ينتصر لقضايانا في المحافل الدولية ، ولم يكن من مصلحة العرب الانقياد وراء المناورات الغربية لانشاء هذه الكتلة السياسية . وكان من أبحاث المؤتمر المقررة مقدماً « جواب الاسلام على الشيوعية » و « جواب المسيحية على الشيوعية » أما جواب المسيحية فقد أعطى لاسئاد من أساتذة الجامعات الامريكية ، أما جواب الاسلام فقد أعطى لمن لم يحسن مناقشة الموضوع الا بالسبب والشائم

واستاءت الوفود العربية من هذا التصرف ، فالوضع جدير بالمناقشة العلمية من جهة ، وبالحدرد الشديد من أن تستغل الدعابة الغربية لمصلحتها السياسية من جهة أخرى ، وقد أجمع رأي الوفود على أن تلزم القائمين على المؤتمر بفسح المجال للقاء كلمة عن الشيوعية في نظر الاسلام غير الكلمة التي ألقيت ، وشرفتني الوفود بكتابة هذه الكلمة والقائها ، فكتبت وترجمت الى الانجليزية في بضع ساعات ، ثم ألقيت وكان لها وقع القنبلة ، واستطعنا أن نحول المؤتمر الى مظاهرة للانتصار لفلسطين واللاجئين والقضايا العربية والاسلامية .

وقد نشر هذا الخطاب في الصحف والمجلات السورية يومئذ كما نشر كاملاً في نشرة المؤتمر ضمن الابحاث والكلمات التي ألقيت فيه .



من الواجب ان نبحت هذا الموضوع بكثير من الصراحة والحكمة والصدق فنحن هنا رواد حق في مؤتمر علمي محصور بين لفيف من اقطاب الفكر في العالمين الاسلامي والمسيحي ، لا في اجتماع عام يقصد به الاستيلاء على عاطفة الجماهير بالخطابة المؤثرة والبيان البليغ .

اننا نحن المسلمين ننظر الى الشيوعية من جهات ثلاث :

١ - ننظر اليها كعقيدة ذات فلسفة مادية تنكر الروح وما وراء المادة ، وهي في ذلك تختلف عن الاسلام في أسسها وجوهرها ، لا يمكن أن تلتقى معه في عقيدته وفلسفته ، وجواب الاسلام على

الشيوعية في هذه الناحية ، هو جوابه على كل فكرة خاطئة . ان يفندھا بالحجة والمنطق وان يبين ما فيها من انحراف عن الحق وخطا في الاسواق .

٢ - وننظر الى الشيوعية كنظام اقتصادي اشتراكي ، يسعى الى تحقيق العدالة بين طبقات الشعب . ويمنع تحكم المال ووسائل الانتاج في العمل والعمال على اسلوب خاص ، وجواب الاسلام على الشيوعية من هذه الناحية : انه وضع نظاما اشتراكيا واضح المعالم مستقلا عن الشيوعية وعن الاشتراكية وعن الرأسمالية ، وهو في ذلك لا يحارب الشيوعية في كل اتجاهاتها الاشتراكية ولا يقرها في كل اتجاهاتها أيضا كما انه لا يحارب النظم الاقتصادية الاخرى ولا يقرها في كل تفاصيلها واتجاهاتها .

واعتقد ان الاديان كلها سبقت الشيوعية الى الرحمة بالبائسين ، والانصاف للناس ، والرغبة في تحقيق العدالة بين الجماهير وكل ديانة وسائلها الخاصة بها في تحقيق هذه الاهداف ، فلا ضرر على كل من الاسلام والمسيحية ان تتفق معه الشيوعية في اهدافه الانسانية النبيلة ، وان كانت تسلك لذلك طرقا لا تقرها المسيحية ، او لا يقرها نظام الاسلام الاشتراكي .

٣ - وننظر الى الشيوعية كدولة ذات قوة واهداف سياسية ، وجواب الاسلام على الشيوعية من هذه الزاوية هو جوابه على كل قوة مسلحة تجاوره ، فان سالت عقيدة المسلمين وكرامتهم واحترمت ارادتهم وسلطانهم على ديارهم سالمها الاسلام ولو كانت مخالفة له في العقيدة والنظام ، لان الاسلام لا يفرض الحرب على كل من خالفه . وانما يضع هذا المبدأ الخالد العادل « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم (١) » وان هي حاربت المسلمين في عقيدتهم وكرامتهم وديارهم اعلن عليها الحرب وأمر المسلمين باعداد كل وسائل القوة لرد العدوان . وشعاره في ذلك هو المبدأ الذي لا يزال شرعة الامم حتى اليوم . « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم (٢) » .

واذا كان جواب الاسلام على الشيوعية المعتدية هو الحرب ، كان ذلك جوابه أيضا على الديمقراطية المعتدية وعلى الصهيونية المعتدية ، وعلى كل قوة تعتدى على أرضه وحقه . بل تعتدى على الامن والنظام العام ولو كانت من أبناءه « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصالحوا بينهما ، فان بقت احدهما على الاخرى فقاتلوا التي تبغى حتى تفيء الى أمر الله » (٣) .

وقد يقال : ان الشيوعية تتبنى الثورة والحرب كوسيلة من وسائل انتشارها . وقد يكون هذا صحيحا وواقعا ، ولكنني اتساءل :

(٢) البقرة : ١٩٤

(١) الممتحنة : ٨

(٣) المعجرات : ٩

أليس هنالك بجانب الشيوعية أنظمة ودول تعتمد على القوة وتسيطر الحروب ؟ ألم تعتمد الديمقراطية في بلاد الشرق العربي والإسلامي على القوة والبطش لتحقيق حكمها وسيطرتها ؟ ألم تسلك الصهيونية كل وسائل الحرب والتدمير والتقتيل للوصول إلى أهدافها ؟ وإذا كان من حق الديمقراطية الغربي أن يزعم بأنه يسعى للسلم ، وأن ينكر على الشيوعي أعداده للحرب ، فإن من حق رجال الدين وقادة الفكر أمثالكم في هذا المؤتمر أن ينكروا كل وسائل البغي والعدوان ، وأن لا يخصوا بنقمتهم فريقا دون فريق ، فذلك شأن السياسيين الذين لا يرون أنفسهم ملزمين بالتقيد بمبادئ العدالة والحق والأخلاق دائما أبدا .

وقد يقال : أن الشيوعية بفلسفتها المادية تحمل مبادئ التدمير لكل القوى الأخلاقية والروحية في العالم ، وقد يكون هذا صحيحا أيضا وواقعا ، ولكن من حقنا أن نتساءل هنا : ألم تنحرف الديمقراطية في عصرنا الحاضر عن القيم الروحية والأخلاقية للشرائع والديانات ؟ ألم تشبع الديمقراطية السياسية لتحقيق مطامعها وأهدافها بشره مادي بجانب روح الأنبياء ومبادئ الكتب المقدسة وشرائع الله ؟

ليست الصهيونية في مطامعها السياسية حركة مادية تجانب كل القيم الروحية والأخلاقية حتى في الشريعة اليهودية ذاتها ؟ فلم إذا يقتصر مؤتمرهم على بحث الشيوعية المادية ولا يتناول الديمقراطية المادية والصهيونية المادية ؟ . ولماذا يطلب منا نحن سكان هذا الشرق من عرب ومسلمين وشرقيين أن نحارب الشيوعية وحدها ، بحجة أنها مادية تحارب القيم الدينية والأخلاقية بينما نجد العالم الغربي المسيحي تسيطر على سياسته روح مادية لا تأبه إلا بمصالحها وسيادتها ، حتى أنها تبنت الصهيونية المادية وخلقتها وزرعها في بلادنا زرعاً بقوة الحديد والنار ، وباغراء الذهب والدولار ؟

أمن الممكن أن نطلب من جماهيرنا التي تكتوى بنار الصهيونية ، وتعاني فظائع الظلم والارهاب الاستعماري في بلادها ، أن تصدق بأن الغرب المسيحي مخلص في محاربته الشيوعية لماديتها وخطرها على الأديان والأخلاق ، بينما هي تشاهد كيف تزدرى الدولة الفريية كل مبادئ الحق والعدالة في علاقاتها معها ، وتحتضن الحركة الصهيونية الباغية المادية كولد مدلل ينزل أبوابه عند كل رغباته ومطالبه ؟

أيها السادة :

لست أبعد عن الحديث حين انتقل من الكلام عن الشيوعية إلى الصهيونية ، ذلك لأن الصهيونية تعتمد على الشيوعية وتنشرها كما تعتمد على الديمقراطية وتدافع عنها ، لأن الصهيونية لا دين لها إلا تحقيق مطامعها ، وأنكم لتعلمون أن الصهيونية كانت دعامة الحركات الشيوعية في أوروبا وأمريكا . وأن الجاسوسية التي اقضت مضاجع أمريكا وإنكلترا وغيرهما من دول الغرب ، إنما يديرها وسهر عليها صهيونيون كبار ، استطاع التحقيق أن يكشف القناع عن وجوه كثيرين منهم فأسلمهم إلى يد العدالة . ولا يزال القناع قائما على وجوه كثيرين

من كبار الصهيويين المواطنين في امريكا وأوربا . وسيعلم التسعيب  
الامريكي والشعوب الاوربية ولو بعد حين ، ان هؤلاء الصهيويين الكبار  
م يخونوا . لاخويه ومجرمين كبارا في حق امريكا وأوربا على السواء ،  
وهذه العناصر الصهيونية القوية هي التي توجه سياسة الدول الفريية  
وتبسط سلطانها ونفوذها على كثير من الرؤساء والزعماء والنواب ودور  
الصحافة وبيوت التجارة في بلاد اوربا وأمريكا . وهي التي تتصل  
بأمثالها في الشرق العربي والاسلامى عندنا وتتبنى الشيوعية لا ايمانا  
منها بالشيوعية ، ولكن استدرارا لعطف الشيوعية الدولية وتأييدها كما  
عملت في اقامة دولة اسرائيل .

من أجل ذلك كان الحديث عندنا في الشرق العربي والاسلامى  
عن الخطر الشيوعى مقترنا بالحديث عن الخطر الصهيونى .

انكم ايها الامريكيون والانجليز وانفرنسيون والكنديون والابطاليون  
وغيرهم من زملائنا أعضاء هذا المؤتمر ، قد لا تشعرون بخطـ  
الصهيونية ومحاربتها للاديان والشرائع ، وخاصة رجال الدين وأساتذة  
الجامعات منكم ، ممن لا يمارس السياسة ولا يعاني مشاكلها ،  
فاسمحوا لنا اذن نحن أبناء هذه البلاد أن نكاشفكم بحقيقة هذا  
الخطر ، وعليكم انتم يا رجال الدين وأساتذة الجامعات وأصدقاء  
الشرق الاوسط أن تفسحوا صدوركم لآلنا ما دمتم تريدون منا أن  
نتعاون معا على الخير ، وأن نسير في طريق واحد تؤدي بالانسانية  
الى السعادة والسلام :

ان الصهيونية حركة مادية لا تؤمن بالله ولا باليوم الآخر ولا بالقيم  
الروحية والاخلاقية، وهي حركة سياسية تستغل كل الشرائع والقوانين  
والمثل العليا لتحقيق مطامعها في السيادة والملك .

وهي سياسة « ميكافيلية » تستبيح كل الجرائم الخلقية  
والاجتماعية من قتل وتخريب وتشريد للوصول الى غايتها .

وهي حركة عدوان تدبر الحروب ، وتثير العداوة والبغضاء بين  
الشعوب .

هذه هي الصهيونية في فكرتها وفي واقعها ، فاذا شككتم في ذلك  
فتعالوا لتروا الصهيونية بأعينكم خرابا ويطما وتشريدا واجلاء وافناء.  
تعالوا بنا نزر معكم أماكن اللاجئين لتروا آثار الصهيونية في جولتها  
الاولى ، وهي الآن تستعد للجولة الثانية والثالثة وغيرها حتى تصل  
الى ما تريد من أفنائنا كشعب ، والقضاء علينا كأمة ذات دين وحضارة  
روحية ومثل عليا .

ومن أجل ذلك نعتبر الصهيونية خطرا قائما في قلب وطننا العربي  
الاسلامى ، ونعتبر كل من يساندها عدوا للحق والاخلاق والاديان ،  
ونحن حين نخوض ضدها معركة الدفاع ، انما نخوضها لا من أجل  
انفسنا وتراثنا وقيمنا الاخلاقية فحسب ، بل نخوضها من أجل  
الانسانية كلها ، من أجل القيم الروحية والخلقية التي جاءت لها شرائع  
الله ، واثن كان الغرب المسيحي وقف حتى الآن موقف المؤبد المد

للحركة بكل ما يستطيع من نفوذ ومال ، فان العالم الاسلامي يطلب منكم يا قادة الروح في الغرب ان تحيوا شعور أممكم وشعوبكم ، وتوقظوا الضمير العالمي لايقاف هذه الكارثة التي نشأت عن أكبر غزو أفنائي في تاريخنا القديم والحديث .

أيها السادة :

لقد كان من الحق حين وضع في برنامج أبحاث المؤتمر موقف الاسلام والمسيحية من الشيوعية أن توضع في البرنامج أيضا أبحاث حول أسباب انتشارها ووسائل مكافحتها ، وهو أمر لا بد منه ليكون لبحث هذا الموضوع نتائج عملية مثمرة ، أن المريض لا يكتفى من طبيبه أن يقول له بعد معانيته « أنك مريض » ولكنه يطلب منه أن يكشف له عن أسباب مرضه وأن يصف له علاجه الناجح ، وإذا كانت فلسفة الاسلام والمسيحية تجانبان الفلسفة الشيوعية المادية كان لا بد لانتشار الشيوعية في بلاد المسيحية والاسلام من أسباب أدت الى هذه النتائج . ١ - وأول هذه الأسباب في رأينا فساد الأنظمة الاجتماعية وخاصة في الشرق الاسلامي ، فان انحطاط مستوى المعيشة والعلم والصحة والتفاوت الفاحش بين الطبقات وفساد أنظمة الحكم وانحراف الحكام عن سنن العدالة ، ذلك كله من أكبر أسباب التدمير الذي يؤدي بالجماهير الى اعتناق أية فكرة تظن فيها الخلاص من حالتها السيئة أن الجماهير إنما تعنى بمصالحها المادية قبل كل شيء ، وهي تفتش عن تحقيق تلك المصالح في دائرة أديانها ، فإذا رأت فيها العجز والاعراض عن تحقيق ذلك تولت عنها وهي تفتش عن مذهب يعدها بالانقاذ ، وستتبعه حتما ولو كان آتيا من الشيطان .

٢ - وثاني هذه الأسباب محاربة الديمقراطية الغربية لشعوب الشرق في أمانيها التحررية والاستقلالية ، ومحاولة إبقائها تحت نير الجهل والظلام والعبودية ، وإشاعة حكم الارهاب والبطش في كثير من الاقطار المتحضرة للتحرر كل ذلك كان له أثره في اتجاه الجماهير الى نظام يعدها بالتحرر من سلطان الديمقراطيات ويطشها وارهابها . ٣ - وثالث هذه الأسباب - وهو سبب خاص بلادنا - ذلك التأييد الذي لقيته الصهيونية من الديمقراطية الغربية . حتى أصبح لها كيان مفروض في قلب الوطن العربي رغم إرادة سكانه وشعوبه مما شرد مليوناً من سكان فلسطين ، وأشاع المرارة والخيبة في نفوس العرب والمسلمين ، وجعل أوساط اللاجئين امكنة صالحة للشيوعية تزداد يوماً بعد يوم ، واعدوا هؤلاء اللاجئين أيها السادة . أعدوهم إذا تلفت أحدهم الى زوجته فراها أسيرة أو مفقودة . وتلفت الى أولاده فرأى البرد والمرض والسل يقترب واحدًا بعد آخر . وتلفت الى نفسه فرأى خيمته تقتلعها الرياح وتغطيها الثلوج . ورأى جسمه تهزه الامراض ورأى نفسه عاجزا عن توفير الكرامة لنفسه واطفاله انه ليعانى هذا كله وهو يرى بين يديه أرضه تزرع . وداره تسكن . وأثاثه يشهب . ويرى أن ذلك كله نتيجة سياسة الديمقراطيات الغربية وحكمها وتأييدها للصهيونية المحتلة لأرضه وداره . فكيف تستطيعون أن تقنعوه مع ذلك بأن يؤمن بأن هذه

الديمقراطيات تحمل لواء الحق وتمثل المعسكر الذي يفقد بالسروح والقيم الاخلاقية والدينية ؟

ان اضطراب الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية في أوروبا جعل نصفها يميل الى الشيوعية أو يقع تحت قبضتها . فكيف لا تؤدي سوء اوضاع اللاجئين وهي أسوأ بالآلاف المرات من تلك . الى اعتناق الشيوعية أو غيرها وهم في تلك الحالة من اليأس والشقاء ؟ هذه هي الاسباب الرئيسية لانتشار الشيوعية وبذلك يعرف الطريق الواضح لمكافحتها .

انه لا سبيل لكم — لتكونوا عمليين مخلصين في نصره القيم الروحية والاخلاقية — من أن تعلنوا انكاركم لاستمرار الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية السيئة في اوساط الشعوب والجمهير . ومن أن تعلنوا انكاركم لسياسة الديمقراطيات الغربية في موقفها من اماني الشعوب العربية والاسلامية . ومن أن تعلنوا استنكاركم للصهيونية كحركة مادية فيها كل الخطر على السلم وعلى الامن وعلى الاخلاق والدين في هذه المنطقة الحساسة من الشرق الاوسط . كونوا جريئين مخلصين ايها السادة في اعلانكم هذه الحقائق . وسنكون نحن جريئين مخلصين حين نعلن لكم انه من الصعب أن تفكروا في حمل شعوبنا على محاربة الشيوعية وحدها . وهي ترى الدول الديمقراطية الغربية تتخذ قضاياها في المحافل الدولية وتساند الدول الاستعمارية منها بكل قوة .

لقد قال المستر تشرشل كلمة ذهبت مثلاً في التاريخ يوم اعترض عليه بعض الناس حين مد يده الى روسيا في الحرب ليتعاون معها على حرب المانيا . قال « اننى مستعد لان اتحالف مع الشيطان في سبيل الوصول الى النصر » وتعاون الحلفاء يومئذ مع الشيوعية خلال مدة الحرب العالمية الثانية . وما كان تحالفهم مع الشيوعية الفكرية ولا مع الشيوعية الاقتصادية . وانما كان مع الشيوعية القوية المسلحة لان مصلحتهم التقت مع مصلحتها في هذا التعاون . ونحن اليوم لانريد ان نفرض سيطرتنا ولا انتصاراتنا على الشعوب . وانما نريد ان نصل الى حقنا . . نريد ان نطمئن على حرياتنا وكرامتنا . . ان من حقنا أن نعيش أحراراً في فلسطين وسوريا ولبنان والاردن وفي العراق وفي مصر وفي مراكش وتونس والجزائر وفي كشمير وفي آندونيسيا وفي ايران وفي كل بلادنا العربية والاسلامية . نريد ان نصل الى هذا الحق الذي تحاربه الديمقراطيات الغربية المسيحية حرباً تنكرها مبادئ الديانات وشرائع الله . فهل نلأم اذا نظرنا الى مصلحتنا المشروعة في مهادنة كل من يعترف لنا بهذا الحق ؟ .

سيذهب كل جهد لكم عبثاً ما لم تعلنوا قراركم في هذا المؤتمر جريئاً وواضحاً في هذه القضايا كلها . وعندئذ تنالون احترام المسالم وثقتهم . وتسبرون في طريق التعاون الثمر المفيد بين الاسلام والمسيحية . لرد الانسانية الضالعة الى الله . ولتدعيم القيم الروحية التي لا يقوم بناء العالم الحرة الكريم الا على اساسها .



واذا لم تفعلوا ذلك فثقوا أننا لن نسير مع الغرب خطوة واحدة في مكافحة أية حركة مادية كقوة سياسية . ما لم يثبت لنا الغرب عمليا حسن نيته وصدق اخلاصه في التخلي عن مناصرة الصهيونية حتى ندرا أخطارها عن بلادنا وعن العالم كله . وفي الاعتراف بحقوقنا كاملة في السيادة والاستقلال . حتى نتعاون معه تعاون الحر مع الحر . والكريم مع الكريم . لا تعاون العبد مع السيد . والدليل مع العزيز . والمظلوم مع الظالم .

هذه كلمة نقولها اليوم رجاء أن تحتل من قلوبكم مكان الاقتناع والتأييد . فتكونوا أنصارا للحق في أوساط شعوبكم تجهرون بكلمته القوية على مسمع من حكوماتكم ورؤسائكم والا فاننا نقولها اليوم للتاريخ . . وسيقول فيها التاريخ كلمته فيما بعد . .

اللهم وفقنا جميعا للخير والحق . والهمنا رشدنا . وهيئنا لانتقاذ الانسانية من طغيان السياسة على شرائع الله وآدابه . .

## مع المعارضين . . خطتان مختلفتان

كل فكرة حديثة لا بد أن تثير جوا من النقاش والاخذ والسر ، وفكرة « اشتراكية الاسلام » ليست حديثة على الاسلام ، ولا مبتدعة في أجوائه . وقد رأى القارىء أن جميع ما ذكرناه من مبادئ وقوانينها مؤيد بأدلة من مصادر التشريع الاسلامى من الكتاب والسنة . مدعم بالفهم والتطبيق العمليين في عصر الرسول وخلفائه الراشدين وعصور الاجتهاد والتفريع الفقهي العظيم .

ولكن الجديد في « اشتراكية الاسلام » هو المناداة بها واحياء الدعوة الى مبادئها وقوانينها بعد أن أهملها المجتمع الاسلامى أمدا طويلا . وأصبحت نسيا منسيا في أذهان جمهور الفقهاء وعلماء الشريعة في العصور الأخيرة .

ولما كانت الشريعة الاسلامية محفوظة في مصادرها ونصوصها . مهما غفل الناس عنها . أو انحرفوا عن تطبيقها في بعض عصور الانحطاط والتخلف . كان من السهل الرجوع اليها لمعالجة المشكلات التي يتعرض لها المجتمع الاسلامى في عصرنا الحاضر .

ان مجتمعنا يعاني من المشكلات ما لم يعانيه مجتمع اسلامى في عصر من العصور الماضية . وذلك لعوامل عدة نذكر من أهمها :

١ - اصطدام مجتمعنا بالحضارة الغربية ونظمها وفلسفتها وأخلاقيها التي تختلف في جوهرها عما ساد المجتمع الاسلامى من نظم وفلسفات وأخلاق وعادات .

٢ - تفكك مجتمعنا السياسى والاقتصادى والاجتماعى تفككا لم يواجهه المجتمع الاسلامى في عصر من عصوره الماضية .

شعور أبنائه بالحالة المتخلفة التي يعيشون فيها ، ورغبتهم في التخلص من هذا التخلف ، والسير في ركب الحضارة التي تسود العالم اليوم .

كان من الطبيعى أن يحس المتعلمون وحملة الفكر فينا بوطة هذا التخلف ، والحاجة الى سلوك الوسائل الجديدة للخلاص منه .

والواقع أنهم قد انقسموا الى ثلاث فئات في معالجة مشاكلها القائمة :

( ١ ) فالفئة الاولى : فئة لا تؤمن بصلاح ما في يد الامة من تراث وعقيدة لحل هذه المشكلات ، فاتجهت الى الحضارة الغربية تنشد عندها الحل وتبتغى لديها الترياق . وقد أسرفت هذه الفئة في هذا

الاتجاه بحيث تخلت عن تفكيرها المستقل وعن شخصيتها المستقلة فاستحسننت كل ماراته في الحضارة الفريية ، وهاجمت كل مالا يتفق مع اتجاهاتها وأخلاقها . وقد كان قليل من التبصر والاخلص يحتم عليها أن تتلمس الفوارق بين مجتمعنا والمجتمعات الأوروبية ، وأن ما يصلح لها ربما لا يصلح لنا . وما يفيدها قد يضر بنا ضررا بالفسا .

(ب) والفئة الثانية : هي التي تؤمن بأن في الاسلام حل هذه المشكلات ايمانا غيبيا ، ولكنها لا تصرف كيف يحلها ، وتظن أن من الممكن تطبيق الاسلام بنفس الاشكال التي طبقت في عصر الخلفاء الراشدين تماما .

هؤلاء هم أكثر فقهاء الشريعة وعلمائها ، وهم يعيدون كل البعد عن تفهم مشكلات المجتمع الاسلامي الحديث ، ويقفون منها دائما موقفا سلبيا ، وكل ما يقدمونه للناس قولهم أن الرجوع الى الاسلام هو الذي ينقذنا من مشكلاتنا ! ولكن كيف ؟ وإلى أي مدى ؟ وما هو رأي الاسلام في المشكلات التي لم يعرفها السلف في عصور الخلفاء الراشدين فما بعدهم ؟ اللهم لا شيء .

وابعد من هذا أنهم يحاربون كل اتجاه لحل هذه المشكلات على ضوء مبادئ الاسلام ومقاصده العامة ، بل على ضوء تطبيق الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه لهذه النصوص وفهم علماء السلف في عصور الاجتهاد لها فهمنا نيرا صادقا يلتقي مع روح الاسلام وأهدافه العامة ، أنهم يحاربون هذه الحلول في هذا الاتجاه مستمسكين بنصوص للفقهاء أو لبعضهم حين جمد العقل الاسلامي ورأت البدع على المجتمع الاسلامي ، ونسيت مقاصد التشريع بل تنوسى تاريخ الرسول والخلفاء الراشدين وتطبيقهم العلمي الرشيد لتلك النصوص .

ان الشريعة عندهم هي هذه النصوص والآراء الفقهية التي وضعت في عصور متأخرة ، والتي لا يتلاءم كثير منها مع مشكلاتنا الحاضرة ولا ينسجم مع روح الشريعة السمحة التي جاءت بالعدل والحق وسعادة الناس في دنياهم وأخراهم .

هؤلاء هم الذين تكلموا باسم الاسلام في المجتمع امدا طويلا ، وأظهروا الاسلام بمظهر العاجز عن حل مشكلات المسلمين ، المنقطع الذي لا يقوم الا على الشدة والضييق والحرَج ، المسايز للظلم الاجتماعي ، والتخلف البعيد الذي عاش فيه المسلمون بضعة قرون .

وقامت المعركة بينهم وبين الفئة الاولى ، وكان سلاحهم ضدّها هو الاتهام بالكفر والالحاد ، وسلاح أولئك ضد هؤلاء هو الاتهام بالرجعية والجمود .

وكان الجمهور الاسلامي بمجموعه ، وبطبيعة ايمانه واقتناعه يدينه ، مستعدا أن يصفى الى هؤلاء الفقهاء أكثر . فأيدهم وسار

وراءهم .. وكان من الممكن أن يكون لهم قوة كبرى لاقامة اصلاح اجتماعى شامل لو كان هؤلاء الفقهاء بغير تلك العقلية وعلى غير تلك السلبية .

ولكنهم لم يفعلوا شيئا .. وازدادت وطأة الحضارة الغربية على العالم الاسلامى . وازداد اتصال المسلمين بها وخاصة بعد الحرب العالمية الاولى .. وانتشرت المعرفة . واتسع نطاق العلم - الذى كان متسما بطابع التفكير الغربى - فى مدارسنا ومعاهدنا العليا . وبدأ الجمهور الاسلامى يفقد ثقته بهؤلاء الفقهاء الذين عجزوا عن حل مشكلاته . من حيث لم يثق أبدا برواد الثقافة الغربية المتسمة بطابع العداء للإسلام خاصة والأديان عامة .

(ج) ونتيجة لكل صراع من هذا القبيل نشأت الفئة الثالثة التى كان موقفها وسطا بين الفريقين وإن كانت فى مبادئها أقرب الى الفقهاء من أولئك . وتقدمت لحل المشكلات .

هذه الفئة تنادى بأن الإسلام يحل كل مشكلاتنا الاجتماعية . فهى فى هذا تلتقى مع أولئك الفقهاء . لكنها تختلف معهم فى فهم هذه المشاكل وتصورها وطبيعة حلها . وتختلف معهم فى طريقه فهم الإسلام وتمثل مقاصده العامة . ويختلفون مع الفئة الاولى من رواد الثقافة الغربية بموقفهم من عقيدة الأمة وتراثها ، وبموقفهم من الحضارة الغربية وإيمانهم باستقامة مبادئها ومذاهبها واتجاهاتها .

إنهم لا يرون هذه الحضارة الغربية قادرة على اسعاد الناس ولا يرونها قائمة على أساس يحقق للعالم الامن والرخاء . ويرونها مضطربة حائرة شقية آخذة فى الانهيار . فلا تصلح أساسا يبنى عليه اصلاح حقيقى لحل مشكلاتنا الاجتماعية . ولا يرون فيها قـدوه صالحة لاتجاه فكرى واجتماعى سليم (١) .

وهكذا وقفت هذه الفئة موقفا « وسطا » ووجد فيها الجمهور الاسلامى أملا فى قيادة رشيدة لمستقبل باسم « ولولا كانت لها مشكلاتها الخاصة . وأخطاؤها المنهجية ، وظروفها الصعبة . لتصدرت القيادة الفكرية للعالم الاسلامى بلا ريب . ولتم لها ما أرادت من اصلاح شامل لجميع الاوضاع القائمة فى المجتمع الاسلامى الحديث .

### المعترضون :

وبعد فهذا الكتاب نموذج لتفكير هذه الفئة الناشئة ، ولحلها لمشكلات المجتمع الاسلامى . وقد قام على أساس واضح من استقلال التفكير من كل من الفئتين السابقتين اللتين لم تقدم أحدهما للمجتمع الاسلامى حلا معقولا مدروسا منسجما مع عقيدة الأمة ملتقيا مع رغبتها فى حل مشاكلها القائمة حلا عمليا ممكنا .

(١) انظر مقدماتنا لكتاب « من روائع حضارتنا » فنيها بسطط واف لموقفنا من هذه الحضارة ورأينا فيها وفى اصحابها

وكان من الطبيعي أن تستقبله الفئة الأولى بشيء من البرود أول الامر ، لانه يحمل اسم «الاسلام» وهم لا يحبون كل ما يمت اليه بصلة ، ولا يثقون بكل ما يحمله من اراء ، ولا يستسيغون طعما لكل ما يقدمه لهم من الوان الفداء .

ولكنى كنت واثقا ان فيهم فئة تريد الحق وتبحث عنه ، فاذا وجدته لم تتردد ان تعلن اغتباطها بما وجدت ورضاها عما عرفت بعد ان جهلت .

وهكذا كان . . فقد وصلتني رسائل من بعضهم يعلنون فيها قرحهم بما كشف لهم من حق كانوا يجهلونه ، وطريق كانوا يضلون عنه .

واما الفئة الثانية من الفقهاء ، فهى على عادتها تستقبل كل مالا يرضيها بالسلبية المطلقة ، والتشكيك المطلق .

وفيها نفر طيب ممن نجلهم ونحترم علمهم واخلاصهم للدين ودفاعهم عنه وان اختلفنا معهم فى المنهج والطريق .

وقد كان لبعضهم اعتراضات على ما جاء فى « اشتراكية الاسلام » كتبوا بها الى جزاهم الله خيرا ، وهذه الاعتراضات لا تخرج عما اجملته من اسباب الخلاف بيننا وبينهم .

ولست اريد الدخول فى نقاش لفظى مع هؤلاء الافاضل ، ولكنى احب ان احدد وجهة النظر المختلفة بيننا وبينهم موضوع « اشتراكية الاسلام » وغيره .

ان لنا موقفا من فهم نصوص الاسلام ، وموقفا من فهم مشاكل المجتمع :

أما فهمنا لنصوص الاسلام فلا يشك كل من درس نصوص الشريعة فى قرآنها وسنتها وعمل الخلفاء الراشدين انها تقوم على ثلاثة مبادئ رئيسية :

أولا : تحقيق مصالح الناس فى كل ما يحتاجون اليه ، ولا تضيق الشريعة بمصلحة للمجتمع ، يقر العقلاء والدارسون الشرعيون والاجتماعيون بانها مصلحة .

ثانيا : تحقيق العدالة بين الناس اذا تعارضت مصالحهم . مهما كلفت العدالة من غرم لبعض الناس .

ثالثا - تحقيق التطور الاجتماعى الصالح فى المجتمع الانسانى ، فلا يقف الاسلام فى وجه تطور ما فى مختلف نواحي الحياة الاجتماعية ، اذا كان هذا التطور نتيجة محتمة لتطور الفكر أو العلم أو ضرورات الحياة

هذه هى المبادئ الثلاثة التى نعتقد أن نصوص الشريعة كلها تقوم

عليها وتؤديها وتدعو اليها ، فكل اجتهاد وكل رأى ، وكل نص فقهي يصطدم مع مبدأ من هذه المبادئ فهو مرفوض عندنا مهما كان قائله ، لأنه يتنافى روح الشريعة ورسالتها الاجتماعية في الحياة .

وأما موقفنا من مشاكل المجتمع ، فهو وجوب دراستها دراسة عميقة ، والاختلاط بالمجتمع اختلاطاً شاملاً لكل فئاته ، حتى تحدد المشكلة وتعرف اسبابها ويعرف الطريق الصحيح لحلها حلاً عملياً متفقاً مع رسالة الاسلام .

وعلى هذا الاساس في فهمنا للنصوص وتمثلنا للمشاكل نختلف عن بعض الفقهاء الافاضل المعترضين .

انهم يفهمون الشريعة فهماً جزئياً ، مفككا غير متجه نحو هدف عام. ورسالة شاملة للحياة ، ثم هم يتذكرون بعض احكامها وينسون بعضاً آخر ، مع أنها كل لا يتجزأ ، ووحدة لا تتفرق ، ثم هم يقيمون وزناً كبيراً لنصوص الفقهاء المتأخرين فيعتبرونها شريعة منزلة لا يجوز العدول عنها ولا مخالفتها ولا الرد على قائلها مهما خالفت روح الشريعة ومقاصدها العامة .

ثم هم يغفلون التطور الذي طرأ على المجتمع الاسلامي في هذه العصور بعد أن مضى عصر أولئك الفقهاء ، وأن التفقه في دين الله يحتم عليهم أن يعالجوا ما تطور من أوضاع المسلمين على ضوء مبادئ الشريعة ونصوصها لا على نصوص فقهية اجتهادية نشأت في جو خاص وعصر خاص وتفكير خاص .

ثم هم لا يختلطون بالمجتمع الذي يعيشون فيه الا اختلاطاً بسيطاً ، ويخدعون ببعض المظاهر فيظنونها من علائم الخير مع أن وراءها شراً كبيراً وظلماً فاحشاً .

يرى أحدهم من بعض الناس مظاهر من التدين كحضور الصلاة في المساجد ، وصيام رمضان . واحترام العلماء ، واقامة الولائم للفقراء في بعض ايام رمضان . والتصدق بالنزر اليسير على بعض الفلاحين المعدمين ، فيعجبه ذلك منه ويشيد بدينه وصلاحه ورقة قلبه و « انسانيته » ويشهد له بأنه يخرج « الزكاة » ويتصدق على « الفقراء » مع أنه يأكل حقوق الناس ويظلم الفلاحين ويجمع الاموال الطائلة من جهودهم وظلمه لهم واحتجازه حق الله عنهم ، وله أولاد فجار اشرار ينفقون في ليلة من لياليهم الحمراء ما ينفقه أبوه على موائد الفقراء سنة كاملة .

فإذا نزل أحد هؤلاء الفقهاء ضيفاً على صاحب ارض كبيرة فقدم له مائدة عامرة بألوان الطعام . خرج يشكره على كرمه ، وهو لا يفكر أن يسأل عن هؤلاء الفلاحين والعمال الذين يعيش بينهم هذا الفنى « الكريم » كيف يعيشون ؟ وكيف يأكلون ؟ وكيف يعاملهم هذا الفنى « الكريم » وماذا ينالهم « من كرمه » ؟

ثم هم لا يخرجون في الغالب من بيوتهم الا الى مساجدهم أو مدارسهم وإذا مروا في الطريق غضوا ابصارهم لئلا يروا المنكرات ، ولا يفكرون في أن يختلطوا بالتجار في أسواقهم ، وأعمال في بيوتهم والناس في مجتمعاتهم ، ليروا كيف يتعاملون ، وماذا يعانون من المشاكل ، وماذا يفتك بهم من سموم وأخطار . ويكتفى أحدهم بأن يسمع من بعض من يحضر مجالسه شكوى عن معاملات التجار أو لبس النساء ، أو أخلاق الشباب ، فإذا هو ينكر ويصيح دون أن يبحث عن أصل المشكلة وأسبابها وعواملها وكيف تحل حلا عمليا يستطيعه الناس وترضاه الشريعة ؟

هذا مثل غفلة هؤلاء الفقهاء عن دينهم وشريعتهم ورسالتهم في المجتمع الذي يعيشون فيه ، وبهذه الروح والسمات الظاهرة أرسل بعضهم ينقد بعض ما جاء في « اشتراكية الاسلام » :

لانه لا يوافق على تحديد الملكية بالنسبة للملكيات القائمة ، ويجيز ذلك بالنسبة لما ينشأ من ملكيات في المستقبل ، ولا يوافق على التأمين لان في ذلك انتزاعا للملكية الارض ممن يملكها « شرعا » ومع ما قدمته في بحث التأمين وتحديد الملكية من مستندات شرعية لذلك فانهم لم يفكروا أبدا في مصائب الفلاحين الذين كانوا يعيشون في النظام البائد : فقرهم ، ومرضهم ، وجهلهم ، وتغاسلهم وتتردهم ، وإنما يفكرون في حماية « حق » صاحب الارض الواسعة في الابقاء على ملكيته لئلا « يظلم » .

انهم يفضون لظلم « فرد » واحد ، ولا يفضون لظلم « الآلاف وعشرات الآلاف » فهم بين امرين : اما أن يعترفوا بالحالة التمييزية التي تعيش فيها هذه الآلاف ، ولكنهم لا يرون مجالا لانصافها بحجة ان « الشريعة » أعطت صاحب الارض الحق في هذه الملكية التي نشأ عنها هذا الظلم القبيح ، وبذلك يكونون قد جنوا على الشريعة وأساءوا اليها ، وصدوا الناس عن دين الله من حيث يتصدون للدعوة إليه والدفاع عنه ، واما أن يجهلوا الحالة التمييزية التي يعيش فيها أولئك الفلاحون ، فكيف يجوز لهم أن يتصدوا للوعظ والافتاء والتحدث باسم الشريعة وهم لا يعلمون أمراض المجتمع الذي يعيشون فيه .

لقد قال بعضهم : لا حاجة الى فرض ضرائب على الشعب عند الكوارث والمحن ، فمن الممكن أن تستدين الدولة من الاغنياء الزكاة الواجبة عليهم لمدة سنة أو سنتين عما يستقبل من الزمان ! كما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل ذلك .

فهل ترى مثل هذا التفكير يدل على فهم لتطور المجتمع والدولة وأحوال الناس ؟

ثم الا ترى فيه غفلة عن نصوص الشريعة التي ذكرناها والوقائع التاريخية التي أثبتناها مما يجعل من حق الدولة أن تفرض مثل ذلك على الشعب حين وقوع الكوارث أو احتياج بيت المال الى المال ؟

ويقول بعضهم : انه لاسبيل الى انتزاع الملكية ممن يملك الارض بحجة حماية الفلاحين من التشرد والجوع ، بل على الدولة ان تطعمهم وتكسوهم ! كان من واجبه الشعب - ومال الدولة هو مال الشعب أن ينفق على فلاحى أرض يستغل صاحبها جهودهم وأعمالهم لتنمو ثروته وتكثر أمواله ، أى أننا يجب أن نأخذ من الشعب لنمكن « فردا » واحدا أن يزيد فى ثروته وبذخه وتبذيره وأفساده للأخلاق وللكرامات.

ومن أعجب ما قرأته من اعتراض هؤلاء : أن الفقر ليس نقمة دائما وأبدا ، بل هو « نعمة » فى أكثر الحالات ، ولاكثر الناس !

يقولون هذا وهم يعنون بالفقر الجوع والعري والمرض وحرمان وسائل العيش الكريم ، وهم بأنفسهم لا يطبقون على هذا صبرا ، ولا يصبرون عليه ولا يرضونه لأولادهم ونسائهم يوما واحدا، فكيف يبررون به رضاهم عنه لجمهور الأمة وسواد الشعب ؟

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عن الفقر انه قريب من الكفر ، وعن الجوع انه بثس الضجيع ، ويستعيد بالله منهما ومن غلبة الدين وكثرة الهموم وقهر الرجال ..

فكيف يرضى عالم بدين الله ، محب لرسول الله أن يرضى بتقلب الجماهير فى اليأس والجوع والهموم والأمراض والاحزان ، من حيث يعيش بجانيهم « قلة » مترفة فاجرة تحدث القرآن عنها كثيرا بأنها تحارب شرائع الله ورسله وتعمل على انهيار الأمة وخراب البلاد .. وكذلك رأيناها تفعل .

ان رسالة الاسلام تمتاز عن جميع الشرائع والديانات بأنها نظمت شئون المعاش ولم تترك رعاية الفقراء واطعامهم صدقة ولأمانة ، بل حقا وواجبا ، وهى الشريعة الواحدة التى لم تعن بشيء من أمور الحياة الدنيا بمثل ما عنيت بأمر التملك والكسب وتنظيم وسائلهما وضمان كرامة المعيشة لكل فئات الشعب وطبقاته .

والاسلام صريح فى أن ضمان ذلك للناس من أقرب القربات الى الله ولقد رأينا كيف اعتبر عبد الله بن المبارك اطعام صبيين جائعين أفضل من التقرب الى الله بحجة هو ومن معه ! وكيف أعطاهما ما كان يدخره لنفقات الحج ثم قفل عائدا الى بلده وقال : « هذا أفضل مما قصدت اليه .. »

صيانة طفلين من الجوع والعري والتشرد افضل من التنفل بالطواف بالبيت والصلاة بالمسجد الحرام والوقوف بعرفات « افضل من قراءة القرآن وذكر الله وأداء شعائره ! .. هذا هو الاسلام الذى تفتحت له قلوب أبناء الدنيا يوم فتح الدنيا .. وهذا هو الاسلام الذى تريده الدنيا اليوم ! ..

أتري لو أن هذا الاسلام الذى فهمه أمثال الامام المحدث المجاهد العالم العظيم عبد الله بن المبارك يفهمه اليوم علماءنا وحملة الشريعة



فينا اكان فى الدنيا من يتطلع بعقله وبصره الى افاق عقيدة اخرى ليجد فى ظلها السعادة والاطمئنان ؟ اكانت الجماهير تفتن بالشيوعية او الاشتراكية القريبة او غيرهما من النظم التى تزعم انها جاءت لتنقذ العالم من البؤس والشقاء ؟ اكان فى ابنائنا من يكفر بالله ويستهزئ بدينه ويتخلى عن نبيه الا ان يشاء الله ؟ .

ان العالم اليوم - ونحن المسلمين خاصة - فى اشد الحاجة الى هذا الاسلام الذى فهمه ابو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان ابن عفان وعلى بن ابي طالب ، وعمر بن عبد العزيز ، وصالح الدين الايوبى وعبد الله بن المبارك والبخارى وابو خنيفة ومالك والشافعى والحمد وابن تيمية وامثالهم من ائمة الاسلام والعلام الهدى . . فمن كان عاملا لخير الانسانية فليعمل لهذا ، ومن كان يريد الخير للاسلام ويزعم الفيرة عليه والدفاع عنه فلا يقف فى وجه الذين يدعون لمثل هذا . « قل هذه سبيلي ادعوا الى الله على بصيرة انا ومن اتبعنى وسبحان الله وما انا من المشركين » (١) .

## الأبحاث

صفحة	
٣	مقدمة الطبعة الثانية
٤	مقدمة الطبعة الاولى
١٥	مقدمة المحاضرة
١٧	<b>موقف الاديان من الفقر</b>
١٩	حديث القرآن عن عناية الانبياء بمشكلة الفقر
٢٢	<b>في اليهودية :</b>
٢٢	في العهد القديم
٢٧	<b>في المسيحية :</b>
٢٧	في العهد الجديد
٣٠	معيشة المسيح
٣٠	معيشة أصحاب الاوائل
٣١	المبادئ العامة لدعوتهم
٣٥	<b>في الاسلام :</b>
٣٧	الحقوق الطبيعية
٣٩	حق الحياة
٤٠	ما يتعلق بحفظ الحياة
٤١	ما يتعلق بحفظ الصحة
٤٣	سقوط الواجبات عند الخطر
٤٥	جواز فعل المحرمات عند الضرورة
٤٦	حماية حياة الاطفال
٤٧	حق الحياة للارقاء
٤٧	حق الحياة للحيوان
٤٨	حق الحرية
٤٨	الحرية الانسانية
٥٠	الحرية الدينية
٥٢	الحرية العلمية
٥٤	الحرية السياسية
٥٥	الحرية المدنية
٥٦	الحرية الاجتماعية
٥٦	الحرية الادبية
٦٠	<b>حق العلم</b>
٦٠	الاشادة بالعلم
٦١	الاشادة بالعلماء
٦٢	تفضيل العلماء على المنقطعين للعبادة
٦٢	الحث على طلب العلم

صفحة	
٦٣	فضل المرحلة في طلب العلم
٦٣	لا خير في غير العالم والمتعلم
٦٣	وجوب التعلم والتعليم
٦٤	حدود العلم
٦٥	مدلول العلم
٦٦	أقسام العلم :
٦٦	١ - ما هو فرض عين
٦٦	٢ - ما هو فرض كفاية
٦٧	العلم المندوب والمباح
٦٧	أيهما أفضل
٦٧	النتيجة
٦٧	العلم شرف
٦٨	العلم واجب
٦٨	العلم حق
٦٩	العلم حق للجميع
٧٠	أثر هذا الحق في البيئة الإسلامية
٧١	حق الكرامة
٧١	١ - كرامة الاخاء الانساني
٧٢	ب - كرامة المساواة والحقوقية
٧٣	ج - كرامة العدالة القضائية
٧٥	د - كرامة العدالة الاجتماعية
٧٥	هـ - كرامة المنزلة القضائية
٧٦	و - كرامة الأسمعة العائلية
٧٨	<b>حق التملك :</b>
٧٨	القوانين المنظمة لهذه الحقوق
٧٩	<b>مبادئ التملك</b>
٨١	الكون كله لله
٨١	الكون مسخر للانسان
٨١	المال وسيلة للخير
٨٢	الفقر مرض اجتماعي
٨٣	العمل أهم وسائل التملك
٨٣	تأمين الموارد الضرورية
٨٣	طرائق التملك
٨٣	الحجر على السفهاء
٨٤	التملك وظيفة اجتماعية
٨٤	كراهية تكديس الثروات

صفحة

٨٤	الملكية المشروعة مصنونة
٨٥	وجانب التكافل الاجتماعى
٨٥	مشروعية الارث
٨٥	حق الخزانة العامة
٨٧	أبحاث حول حق التملك
٨٨	<b>أحياء الموات :</b>
٨٨	تعريف الموات
٨٩	هل يشترط أن يكون بعيداً عن العمران ؟
٨٩	ما هو أحياء الموات
٨٩	حكم أحياء الموات
٩٠	هل يشترط إذن الدولة ؟
٩١	شرط تملكه
٩٢	<b>الاقطاع</b>
٩٢	تعريفه
٩٢	وقائع الاقطاع في عهد الرسول والخلفاء
٩٤	افتراء جاهل
٩٦	<b>المبادئ العامة لصيانة حقوق العمال</b>
٩٧	١ - العمل شرف
٩٧	٢ - العمل نعمة
٩٧	٣ - العامل مسئول
٩٧	٤ - رب العمل مسئول
٩٧	لا عمل من غير أجر
٩٨	٦ - الاجر على قدر العمل
٩٨	٧ - الاجر حق لا منة فيه
٩٨	٨ - الاجر في حماية الدولة
٩٨	٩ - العمل على قدر الطاقة
٩٨	١٠ - حق العامل في تأمين نفقاته
٩٩	١١ - حق العامل في الراحة
٩٩	١٢ - للعامل حماية المجتمع
١٠١	<b>التأمين</b>
١٠٥	<b>تحديد الملكية</b>
١٠٩	<b>قوانين التكافل الاجتماعى</b>
١٠٩	مبدأ التكافل الاجتماعى في الاسلام
١١٢	معنى البر في القرآن
١١٢	معنى التقوى في القرآن
١١٤	<b>أنواع التكافل الاجتماعى في الاسلام :</b>
١١٥	أولاً : التكافل الادبى
١١٥	ثانياً : التكافل العلمى
١١٥	ثالثاً : التكافل السياسى

صفحة

١١٦	رابعاً : التكافل الدفاعي
١١٦	خامساً : التكافل الجنائي
١١٦	سادساً : التكافل الاخلاقي
١١٧	سابعاً : التكافل الاقتصادي
١١٧	ثامناً : التكافل العبادي
١١٧	تاسعاً : التكافل الحضاري
١١٨	عاشرًا : التكافل المعاشي
١١٩	<b>قوانين التكافل المعاشي</b>
١١٩	<b>١ - الفئات التي تستحق التكافل</b>
١٢٠	قانون المساعدة
١٢٠	قانون الضيافة
١٢٠	قانون المشاركة
١٢١	قانون المأمون
١٢٢	قانون الاعفاف
١٢٢	قانون الاسعاف
١٢٣	قانون الطوارئ
١٢٦	قانون التعويض العائلي
١٢٨	<b>ب - موارد نفقات التكافل</b>
١٢٨	١ - قانون الزكاة
١٢٩	٢ - قانون النفقات
١٣٠	٣ - قانون الوقف
١٣٠	٤ - قانون الوصية
١٣٠	٥ - قانون الفرائض
١٣١	٦ - قانون الركاك
١٣١	٧ - قانون قانون النذور
١٣١	٨ - قانون الكفارات
١٣٢	٩ - قانون الاضاحي
١٣٢	١٠ - قانون صدقات الفطر
١٣٢	١١ - قانون الخزينة العامة
١٣٣	١٢ - قانون الكفاية
١٣٥	<b>حقائق عن التكافل الاجتماعي عندنا وعند الغربين</b>
١٣٥	عندنا
١٣٥	عند الغربيين
١٣٧	المؤيدات
١٣٩	<b>أ - المؤيدات الاعتقادية</b>
١٤٠	<b>ب - المؤيدات الاخلاقية</b>
١٤٩	<b>ج - المؤيدات المادية :</b>
١٥٠	١ - الحسبة
١٥٤	٢ - الحدود والقصاص
١٥٤	٣ - التميزير

صفحة

١٥٤

١٥٥

١٥٥

١٥٥

١٥٥

١٥٧

١٥٧

١٥٩

١٦٣

١٦٥

١٦٥

١٧١

١٧٧

١٨٢

١٨٢

١٨٣

١٨٣

١٨٤

١٨٤

١٨٥

١٨٦

١٨٦

١٨٧

١٨٧

١٨٨

١٨٩

١٨٩

١٩٠

١٩٠

١٩٠

١٩١

١٩١

١٩٦

١٩٦

١٩٨

٢٠٠

٢٠٠

٢٠٠

٢٠١

٢٠٢

٤ - الجهاد

د - المؤيدات التشريعية :

أ - المصادر التشريعية :

١ - الاستحسان

٢ - الاستصلاح

٣ - العرف

ب - القواعد التشريعية

**الملاحظات**

**المقارنات :**

أ - مع الراسمالية

ب - مع الشيوعية

**آراء الغربيين**

**الواقع التاريخي**

**شخصية الرسول وأثره**

١ - أوصافه الخلقية

٢ - معيشتة في نفسه

٣ - معيشتة في بيته

٤ - عمله في بيته

٥ - معاملته لأصحابه

٦ - خشيتة وعبادته

٧ - رياضته ونظافته

٨ - مزاحه ودعابته

٩ - تواضعه وسماحته

١٠ - رحمته وشفقته

١١ - مشاركته لآلام الشعب

١٢ - زهده في الدنيا

١٣ - نفقاته وصدقاته

١٤ - عدله وشدته في الحق

١٥ - شجاعته في الحروب

١٦ - حرصه على أداء رسالته

١٧ - الرسول الكامل

١٨ - الرسول المعلم

**- في الدولة الإسلامية**

١ - في عهد الرسول

خطبة الوداع

٢ - في عهد الخلفاء الراشدين

في عهد أبي بكر

في عهد عمر

في عهد عثمان

في عهد علي

صفحة

٢٠٢	٣ - في العهد الاموى
٢٠٢	٤ - في العهود الاخرى
٢٠٣	في الحروب الاسلامية
٢٠٤	<b>ب - المال في المجتمع الاسلامى</b>
٢٠٥	أخلاقهم في المعاملات
٢٠٥	أخلاقهم في الجوار
٢٠٥	موقفهم من أموالهم
٢٠٥	استجابتهم للدعوة الخير
٢٠٦	ثقة بعضهم بحديث بعض
٢٠٦	عنايتهم باليتامى والمساكين والجيران
٢٠٦	اشتراكيتهن في الاموال
٢٠٦	اشارهم وحرصهم على اخوانهم
٢٠٦	عتقهم للرقيق اذا اساءوا اليه
٢٠٧	كثرة الفقهاء وكثرة المنفقين
٢٠٧	جمعهم بين الجد والدعابة
٢٠٧	خوفهم من النفاق في العقيدة
٢٠٧	صبرهم على الجوع خوفا من النار
٢٠٧	حرصهم على اخلاق الخدم
٢٠٧	اذا تزاووا تجملوا
٢٠٧	بتعلمون العلم والعمل معا
٢٠٨	أمانتهم وعفتهم في الحروب والفنائم
٢٠٩	<b>الآثار الباقية في المجتمع من اشتراكية الاسلام</b>
٢٠٩	أولا - أخراج الزكاة
٢٠٩	ثانيا - التكافل العائلى
٢٠٩	ثالثا - الوصايا
٢٠٩	رابعا - الندور
٢١٠	خامسا - الاوقاف :
٢١١	أوقاف للطب النفسى
٢١١	أوقاف للتزويج
٢١١	وقف الزبائى
٢١١	نقطة الحليب
١١٢	وقف للحيوان
١١٢	تطبيب الحيوان
١١٣	<b>في الفرد المسلم</b>
٢٢٩	الخاتمة
٢٣٥	<b>الملاحق :</b>
٢٣٧	١ - جواب الاسلام على الشيوعية
٢٤٤	٢ - مع المعترضين خطتان مختلفتان
٢٥٢	الفهارس
٢٥٨	المراجع

## المراجع

نذكر فيما يلى أهم المراجع التى أخذنا منها إبحاثنا فى هذا الكتاب

### ١ - من كتب التفسير

- ١ - تفسير ابن جرير الطبرى - المطبعة الاميرية بالقاهرة ١٣٢٣ هـ
- ٢ - تفسير الحافظ ابن كثير - دار أحياء الكتب العربية بالقاهرة « من غير تاريخ »
- ٣ - جامع أحكام القرآن للقرطبى - دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٣٥٤ - ١٣٦٩
- ٤ - روح المعانى للالوسى - المطبعة الاميرية بالقاهرة « من غير تاريخ »

### ب - من كتب الحديث

- ٥ - صحيح البخارى بشرح ابن حجر - المطبعة المصرية بالقاهرة ١٣٤٨
- ٦ - صحيح مسلم بشرح النووي - المطبعة المصرية بالازهر بالقاهرة ١٣٤٧
- ٧ - صحيح الترمذى بشرح ابن العرائى - مطبعة الصاوى بالقاهرة ١٣٥٢
- ٨ - سنن أبى داود بشرح الخطابى - المطبعة الحليمية بحلب ١٣٥١
- ٩ - سنن النسائى بشرح السيوطى - المطبعة المصرية بالازهر « من غير تاريخ »
- ١٠ - سنن ابن ماجه بتعليق السندى - المطبعة العلمية بالقاهرة ١٣٦٣
- ١١ - موطا مالك بشرح الباجى - مطبعة السعادة بالقاهرة ١٣٣١
- ١٢ - مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر - دار المعارف بالقاهرة ١٣٦٨
- ١٣ - الادب المفرد للإمام البخارى المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٧٥
- ١٤ - الشمائل المحمدية للإمام الترمذى - طبع القاهرة
- ١٥ - المقاصد الحسنة للسخاوى مكتبة الخانجى بالقاهرة ١٣٧٤
- ١٦ - الترغيب والترهيب للمندرى - دار أحياء الكتب العربية بالقاهرة
- ١٧ - مجمع الزوائد للهيثمى - مكتبة القدسي بالقاهرة ١٣٥٢
- ١٨ - الجامع الصغير للسيوطى - مطبعة مصطفى محمد بالقاهرة بشرح المنادى ١٣٥٦
- ١٩ - علل الحديث لابن أبى حاتم - المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٤٣
- ٢٠ - شرح الزرقانى على المواهب - المطبعة الازهرية بالقاهرة ١٣٢٥



## ج - من كتب أصول الفقه

- ٢١ - الموافقات للشاطبي بتحقيق  
دراز - المكتبة التجارية بالقاهرة
- ٢٢ - الاحكام في اصول الاحكام لابن  
حزم - مطبعة السعادة بالقاهرة ١٣٢٥
- ٢٣ - الاحكام في اصول الاحكام - مكتبة محمد على صبيح بالقاهرة  
الامدى ١٣٤٧
- ٢٤ - المستصفى للامام الفزالي - المطبعة الاميرية بالقاهرة ١٣٣٢
- ٢٥ - مسلم الثبوت لابن عبد الشكور - المطبعة الاميرية بالقاهرة ١٣٣٢
- ٢٦ - التقرير شرح التحرير - المطبعة الاميرية بالقاهرة ١٣٣٢
- ٢٧ - جمع الجوامع للسبكي - طبع القاهرة ١٣٣١

## د - من كتب الفقه

- ٢٨ - المبسوط للامام السرخسى - مطبعة السعادة بالقاهرة ١٣٢٤
- ٢٩ - تحفة الفقهاء للسمرقندى - مطبعة جامعة دمشق ١٣٧٨
- ٣٠ - بدائع الصنائع للكاسانى - شركة المطبوعات العلمية بالقاهرة  
١٣٢٧
- ٣١ - فتح القدير لابن الهمام - المطبعة الميمنية بالقاهرة
- ٣٢ - الاختيار شرح المختار للموصلى - مكتبة محمد على صبيح بالقاهرة
- ٣٣ - ابن عابدين على الدر المختار - دار الطباعة المصرية ١٣٧٧
- ٣٤ - المبنى والشرح الكبير  
( الطبعة الثانية ) - مطبعة المنار بالقاهرة ١٣٤٦
- ٣٥ - الخراج لابي يوسف  
( الطبعة الثانية ) - مطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٥٢
- ٣٦ - الخراج ليحيى ابن آدم - مطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٥٢
- ٣٧ - الاموال لابن عبيد - المكتبة التجارية بالقاهرة ١٣٥٣
- ٣٨ - حاشية القليوبى على المنهاج - دار احياء الكتب العربية بالقاهرة
- ٣٩ - الاحكام السلطانية للماوردى - مطبعة السعادة بالقاهرة ١٣٢٧
- ٤٠ - الاحكام السلطانية لابي يعلى - مطبعة البابى الحلبي بالقاهرة  
١٣٥٦
- ٤١ - الحسبة لشيخ الاسلام ابن  
تيمية - طبع القاهرة
- ٤٢ - المحلى لابن حزم - المطبعة المنيرية بالقاهرة
- ٤٣ - اعلام الموقعين لابن القيم - المطبعة المنيرية بالقاهرة
- ٤٤ - زاد المعاد لابن القيم - طبع مصطفى البابى الحلبي بالقاهرة  
١٣٦٩
- ٤٥ - الاشباه والنظائر لابن نجيم - المطبعة الحسينية بالقاهرة ١٣٢٢
- ٤٦ - الاشباه والنظائر للسيوطى - المكتبة التجارية بالقاهرة ١٣٥٩
- ٤٧ - نهاية الرتبة فى طلب الحسبة - طبع القاهرة

## هـ - مؤلفات حديثة في الفقه والاصول وغيرها

- ٤٨ - الامام زيد للاستاذ ابي زهرة - طبع القاهرة  
٤٩ - المدخل الفقهي للاستاذ الزرقاني ( الطبعة الخامسة ) - مطبعة جامعة دمشق  
٥٠ - المدخل الى اصول الفقه للدكتور دواليبي ( الطبعة الثالثة ) - مطبعة جامعة دمشق  
٥١ - شرح قانون الاحوال الشخصية للسباعي - مطبعة جامعة دمشق  
٥٢ - مجلة الاحكام العدلية - طبع استانبول  
٥٣ - علم المالية للاستاذ فارس الخوري - مطبعة الجامعة السورية  
٥٤ - نظام السلم والحرب في الاسلام للسباعي - مطبعة الكشاف المسلم - بيروت

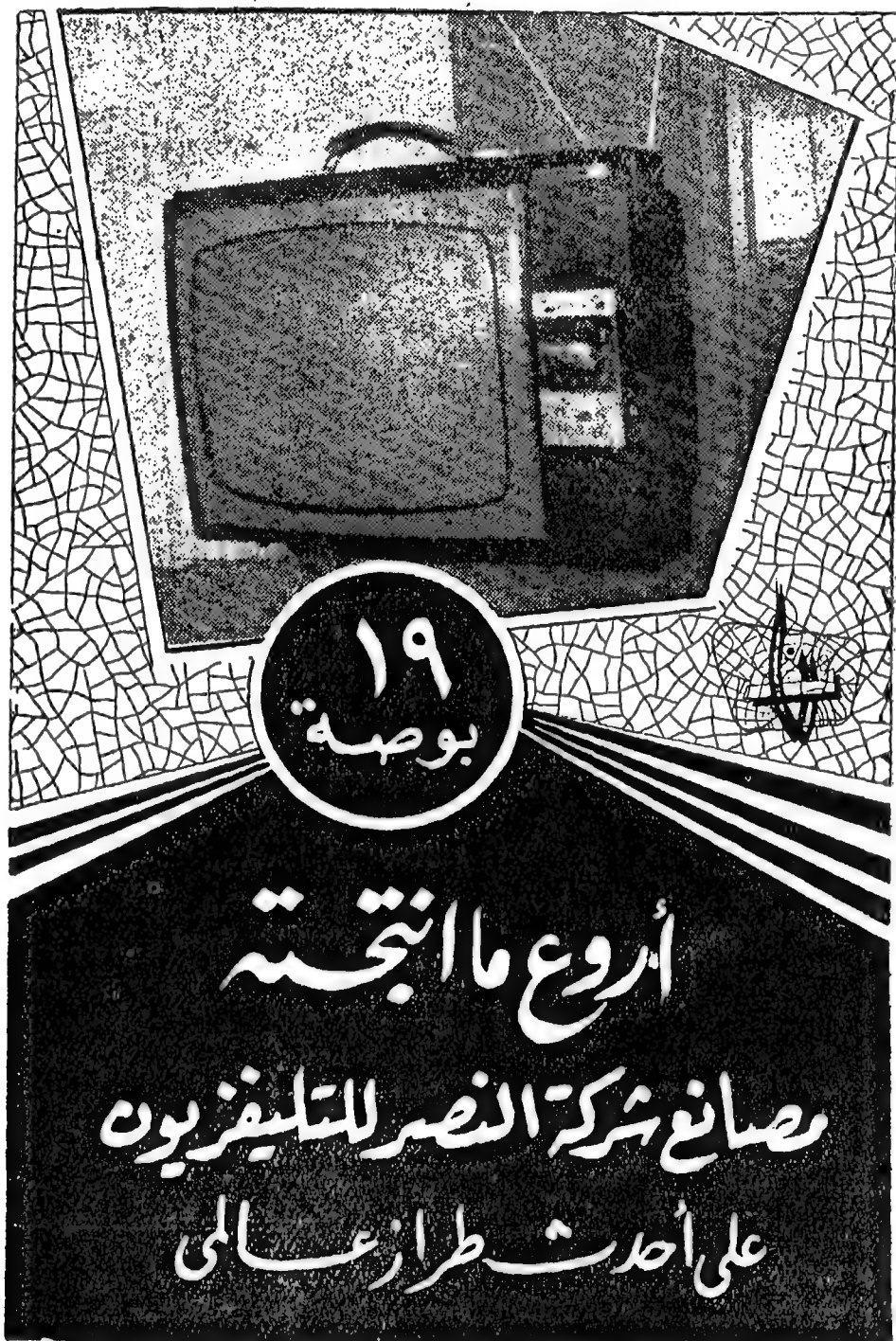
## و - من كتب الادب والتاريخ وغيرها

- ٥٥ - سيرة ابن هشام - مصطفى البابي الحلبي ١٣٥٥  
٥٦ - تاريخ الطبري - مطبعة الاستقامة ١٣٥٧  
٥٧ - البداية والنهاية لابن كثير - مطبعة السعادة بالقاهرة  
٥٨ - فتوح البلدان للبلاذري - مطبعة الموسوعات ١٣١٩  
٥٩ - النجوم الزاهرة لابن تغري برى - دار الكتب المصرية ١٣٤٨  
٦٠ - صبح الاعشى للقلقشندي - المطبعة الاميرية بالقاهرة ١٣٣١  
٦١ - وفيات الاميان لابن خلكان - طبع المكتبة التجارية بالقاهرة  
٦٢ - الوافي بالوفيات للصفدي - طبع استانبول ودمشق  
٦٣ - فوات الوفيات لابن شاكر الكبي - طبع القاهرة  
٦٤ - تهذيب التهذيب لابن حجر - طبع الهند  
٦٥ - سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم - بتحقيق احمد عبيد ١٣٧٣  
٦٦ - جمهرة رسائل العرب لصفوت - طبع القاهرة  
٦٧ - تاريخ الاسلام السياسي لحسن ابراهيم - طبع القاهرة  
٦٨ - مع الرعيل الاول لمحبة الدين الخطيب - طبع المطبعة السلفية بالقاهرة  
٦٩ - تاريخ القضاء والقضاة لعرنوس - طبع المطبعة الحديثة بالقاهرة  
٧٠ - من اخلاق العلماء لمحمد سليمان - طبع المطبعة السلفية بالقاهرة  
٧١ - جامع بيان العلم لابن عبد البر - ادارة الطباعة المنيرية بالقاهرة  
٧٢ - احياء علوم الدين للغزالي - طبع المكتبة التجارية بالقاهرة  
٧٣ - الكبائر للذهبي - طبع المكتبة التجارية بالقاهرة

- ٧٤ - الاسلام والحضارة العربية  
لكرد على - طبع دار الكتب المصرية  
٧٥ - خطط الشام لكرد على - طبع دمشق  
٧٦ - الاسلام والنظام العالمى  
الجديد لمحمد على - طبع القاهرة  
٧٧ - معالم تاريخ الاسلام لويلز - طبع القاهرة  
٧٨ - قصة الحضارة لديورانت - طبع القاهرة  
٧٩ - دفاع عن الاسلام لفاغليرى - طبع بيروت

**ز - من الكتب الدينية المسيحية**

- ٨٠ - العهد القديم والعهد الجديد - طبع كمبردج ١٩٣٧  
٨١ - التفاسير البيضاوية لرسائل  
بولس - طبع القاهرة  
٨٢ - رسول الجهاد « بولس »  
حبيب سعد - طبع القاهرة



١٩  
بوصة

أروع ما أنتجته  
مصانع شركة النصر للتليفزيون  
على أحدث طراز عالمي

## مركز أبحاث قناة السويس

تقدم المشروعات الهندسية الكبرى دائما على أساس قوى من الدراسات الفنية للجوانب المختلفة المتصلة بها . وقد وضعت هيئة قناة السويس هذه الحقيقة موضع الاعتبار منذ اليوم الاول لتأميم القناة .

فعملت على تكوين جهاز فنى لدراسة التطورات المنتظرة فى حركة الملاحة بالقناة ، وارتباطها بحركة النقل العالمية وما يتبع ذلك من مشروعات تهدف الى مداركة هذا التطور من ناحية عدد السفن وحمولتها .

وعند دراسة تفاصيل تلك المشروعات برزت مسائل يحتاج البت فيها الى أبحاث معملية فتقرر انشاء مركز للأبحاث بمدينة الاسماعيلية للقيام بالدراسات المتعلقة بالقناة ومشروعاتها .

وفى سبيل الاسهام فى مضمار التنافس العلمى واذكاء روح البحث والمعرفة فى هذه المنطقة من العالم اتجه الرأى الى أن يقوم هذا المركز الى جانب الغرض الاساسى من انشائه ، بالأبحاث والدراسات التى تدخل فى اختصاصه ، لحساب الهيئات المختلفة فى جميع أنحاء العالم ، كمشاكل القنوات الملاحية ، والموانى وتصميمات هياكل السفن ومراوحها وغير ذلك .

ويشمل الجزء الاكبر من هذا المركز معملا للأبحاث الهيدروكية ملحق به معمل لاختبار خواص المواد ومقاومتها ، ومعملا آخر لميكانيكا التربة واختبارها ومعملا للدراسات الخاصة باستعمال النظائر المشعة فى أبحاث القناة مع ما يقتضى سير العمل فى كل من هذه العامل من قاعات ومعدات وورش وتجهيزات على أحدث النظم العلمية .

الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع عبيد - روض الفرج

تليفون ٤٥٣٤٦ - ٤٥٤٠٥ - ٣١٦٢٥



# مجموعة اخترنا لك

تصدر

نصف شهرية باللغات العالمية  
يشترك في تحريرها وإعدادها  
لجنة "اخترنا لك"

المراسلات : الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع عبيد - دوض الفرج

تليفون ٤٥٣٤٦ - ٤٥٤٠٥ - ٣١٦٢٥

الثنى ١٥ قرشا